

داعش لايف ستايل!

ودراسات أخرى

ممدوح الشيخ

داعش لايف ستايل!

ودراسات أخرى

ممدوح الشيخ

الكتاب: داعش لايف استايل!

ودراسات أخرى

المؤلف: ممدوح الشيخ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **10161/ 2016**

الترقيم الدولي: **978-977-90-3939-8**

الطبعة الأولى **2016**

مقدمة

هذا الكتاب حصيلة ما كتبت خلال العامين 2014 و2015 من دراسات في مجال "**دراسات الحركات الإسلامية**"، وتتوزع الدراسات الواردة فيه (بحسب ما هو مبين في هوامشه) بين دراسات نشرت في مجلات متخصصة أو قدمت لفعاليات (ندوات) تتناول الظاهرة.

والخيط الناظم الذي يجمعها محاولة رصد معالم المشهد الجديد للحركات الإسلامية – وبخاصة المسلحة – بعد "**الربيع العربي**".

ويضم هذا الكتاب الدراسات التالية:

- **داعش لايف ستايل!**

"الداعشية": إعادة إنتاج نمط "ما قبل المدينة"

- **البيئة الحاضنة للإرهاب: محاضن الشر**
- **الفتاوى السياسية: أجوبة بلا أسئلة... واستدلالات بلا أدلة!**

- "الأمة" بين إحياء واكتشاف وبناء؟
- الخطاب الديني والفكر الديني... والشغب الأيديولوجي
- أموال الإرهاب: الدوافع والمنابع والكوابح
- القاعدة وداعش: صراع الخرائط والأفكار والأجيال
- أجيال العنف: الاستمرار والتغير
- المقدس والحرية: سؤال الحداثة ومعارك العصر الحجري!
- في نقد خطاب الإسلاميين الإعلامي
- الإسلاميون المتشددون والشريعة:
- النقشبندية والسياسة: من "الإسلام الليبرالي" إلى "الليبرالية النقشبندية"!
- الإسلاميون واليسار من "صالح سرية" إلى "شهيد بولس"!
- الإخوان في الربيع العربي: نور الدعوة ونار السياسة
- الانتحاريات... إنهم يفخخون القوارير
- "هاتف الخلافة": كيف انقاد جيل كامل من الإسلاميين للعنف؟
- الإسلام السياسي في سوريا: المعالم... المسار... سيناريوهات المستقبل.
- التصدع العظيم.

عجلة التنظير لـ "ما بعد الإسلام السياسي" انطلقت بأسرع مما كان متوقعاً!.

وهو مساهمة متواضعة أقدمها في ملف كبير معقد، وفي ظرف أشد تعقيدًا.

والله من وراء القصد.

ممدوح الشيخ

مطلع سبتمبر 2015.

داعش لايف ستايل!

"الداعشية": إعادة إنتاج نمط "ما قبل المدينة"([1])

داعش تمنع ..

داعش تفرض ..

داعش تجرِّم ..

كلها تعبيرات تتداولها وسائل الإعلام – أحيانًا دون تدقيق– لرصد ما يطرأ من تغير على حياة البشر في المناطق التي يسيطر عليها تنظيم **"الدولة الإسلامية في العراق والشام"** المعروف اختصارًا بـ **"داعش"**.

ورغم جسامة التحولات السياسية، وتاليًا العسكرية الآنية والاستراتيجية المستقبلية، التي ستنجم عن استمرار التنظيم في السيطرة على المناطق التي استولى عليها (وهو مجرد فرض)، فإن **"النتائج الاجتماعية"** التي يمكن أن تترتب على هذا الاستمرار المفترض في السيطرة على البشر الذين يعيشون على هذه الأرض

([1]) نشر على الموقع الإليكتروني لمركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة – دولة الإمارات – 29/ 6/ 2014 – واختارت له أسرة تحرير الموقع عنوان: "الداعشية" .... إعادة إنتاج نمط ما قبل المدينة – وننشره هنا بالعنوان الذي كتب به.

تظل الأخطر، ومن الحقائق المؤلمة في القرن العشرين أن الكم الأكبر من الدماء تم سفكه بسبب الصراع على الطريقة التي "**ينبغي**" تنظيم المجتمعات وإدارتها وفقًا لها!

محاولة لتجريد نموذج:

وسواء أدرك قادة هذا التنظيم أو لم يدركوا، فإنهم يقومون بعملية "**هندسة اجتماعية**" وفقًا لشروط مسبقة، بالضبط كما فعلت كل التجارب الشمولية (البائسة) التي حدثت على يد ستالين وهتلر وماو تسي تونج وعصابات الخمير الحمر في كمبوديا، وغيرها. وتبقى الديباجات الإسلامية قشرة تخفي تحتها رؤية لـ "**الذات**" و"**الآخر**" و"**الصواب**" و"**الحق**" و"**المجتمع**" و"**الفرد**" و"**الحرية**" و"**النظام**" و"**الدين**" و"**الأخلاق**"، تستمد من ثقافة مادية مفرطة في غريزيتها وواحديتها، وهي بالتالي مرشحة لأن تكون مفرطة في العنف إلى حد الجنون.

إن قوائم التجريم الداعشية ليست ثمرة الانحياز إلى خيارات فقهية متشددة بقدر ما هي انعكاس لرؤية اجتماعية "**مضمرة**" تشرَّبها جيل من المتدينين بشكل غير مؤطر، ولكنهم يعيدون إنتاجها بشكل أكثر وضوحًا، ورحم الله العلامة الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي كان له فضل التنبيه إلى أن كل اختيار واعٍ وراءه "**نموذج كلي**"، سواء أدرك صاحبه ذلك وأعلنه أو لا.

واستكشاف النموذج الكلي الكامن وراء رؤية داعش أهم من زاوية التحليل الاجتماعي بكثير من الحفر وراء جذورها وشبكة تحالفاتها، وقائمة

أهدافها، التي هي بالفعل غامضة إلى حدٍ كبير. ويظل هذا النموذج أكثر وضوحاً، فالتنظيم يتبنى رؤية ترتكز على أسس أهمها:

1 – أن الصواب لا يتعدد فهو واحد مثل الحق، وهذه المطابقة بين "الصواب" و"الحق" تجعل وجود وجهات نظر أو أنماط سلوك مغايرة لما يريدونه "جريمة".

2 – إن الأخلاق تقوم على "المنع" لا على "الامتناع"، بالتضاد مع كل ما جاءت به الأديان السماوية من قواعد أخلاقية مؤسِّسة.

3 – إن العلاقة "آلية"، وهي بالتالي بسيطة ومادية، بين التقوى والنهضة، وبالتالي فإن الخيط الفاصل بين عالمي: "الغيب" و"الشهادة" يكاد يكون مطموسًا.

4 – إن الإسلام تتحقق غايته من إعادة إنتاج "نمط حياة" سابق بتفاصيله كافة، والصواب أن ذلك يتحقق بإعادة الاعتبار إلى "معايير" هي أوسع دلالة بكثير من الأحكام الشرعية.

5 – إن العدو الرئيس هو في الخارج، غير المسلمين، العلمانيين، الغرب، الحكومات غير الإسلامية، وهؤلاء جميعًا قد يكونون خصومًا بدرجة أو بأخرى، (وبعضهم قد لا يكون). لكن العدو الحقيقي هو الشيطان، بالمعنى الحرفي للكلمة، فالأمة الإسلامية دفعت ثمناً للتردي "الإنساني" الشامل في العالم الإسلامي أكبر بكثير من الثمن الذي دفعته نتيجة الاحتلال العسكري الغربي، أو التغريب، وهذا التردي مهد الأرض للعدو الأكبر وهو الاستبداد!

6 – إن الحياة كلها "ميدان حرب"، وبالتالي يجوز الاحتكام إلى قاعدة "الحرب خدعة"، وهو حديث صحيح للرسول ﷺ يتم اقتطاعه من سياقه لتبرير الغدر والاستباحة إزاء كل الأطراف. والحديث أقرب ما يكون إلى القاعدة العسكرية التكتيكية التي يتم الاحتكام إليها في "ميدان الحرب" لا في حالة الخصومة. والقرآن الكريم نهى النبي ﷺ عن الغدر، وأمره إذا شن حرباً على قوم أن ينبذ إليهم "على سواء".

7 – إن غياب الوحدة بين شعوب الأمة المسلمة يجيز لجماعة أن تنتدب نفسها (دون مبرر معتبر شرعًا أو عقلاً) لإعادة الأمة إلى حالة الوحدة بالقوة. وفكرة أن تنتدب جماعة من الأمة نفسها للحرب نيابة عن الأمة دونما تفويض (بيعة) واضحة، هو في حد ذاته إنكار لفكرة "الأمة"، فالرسول ﷺ نفسه أقام تفرقة واضحة بين إيمان الأنصار به كـ "نبي" معصوم فأخذ منهم بيعتي العقبة الأولى والثانية، ومع وجود البيعة والعصمة والتأييد من السماء، ومع ثبوت إيمان الأنصار بالوحي وبالشواهد العملية المحسوسة، وبعد نزول الإذن من السماء للمسلمين بالقتال: "أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا"، مع كل هذه الحقائق، استشار النبي الأنصار في الحرب قبل غزوة بدر.

تمزيق المجتمع لا النظام السياسي:

ومما يلفت النظر أن التنظيم مهتم حد الهوس بالسيطرة على الأرض وأنه يعطي أهمية لفرض "**نمط حياة**" على كل البشر في هذه الأرض، وهو منطق نظر يؤدي – بالضرورة – إلى وجود "**مكونات اجتماعية**" غير مرغوب فيها،

يتم تجريدها (صراحة أو ضمنًا) من إنسانيتها وإنكار وجودها، وبالتالي حقوقها (وبعضها ضمنها الشرع نفسه)، وعندئذٍ يترسخ ميل عميق إلى التخلص منهم، لكونهم غير مستوفين لشروط النموذج المعد مسبقًا!

وهنا يبدأ القمع، وفي حالات كثيرة المذابح!

وما يحدث في الحقيقة ليس انتصارًا لما يمكن أن يسمى: "**المجتمع الإسلامي**" بل هو إعادة إنتاج لنمط "**ما قبل المدينة**" بالمعنيين الديني والاجتماعي. فالمحصلة التي سوف تترتب على استمرار احتفاظ هذا التنظيم لفترة على مساحة كبيرة من الأرض، وبالتالي على عدد كبير نسبيًا من السكان، سيؤدي إلى ترسيخ أنماط العلاقات الريفية والبدوية في هذه الأرض.

ولعل من أسباب ما يبدو أنه "**تأييد صامت**" أو تعايش هادئ مع سيطرة داعش على هذه المساحة في العراق وسوريا، أن "**الاستبداد القومي البعثي**" عمل بشكل منظم لإعادة "**تربية**" المجتمعين: السوري والعراقي لعقود – بمنتهى القسوة – على قيم الريفية والبداوة. وفي الحالة العراقية، فإن زوال نظام صدام حسين أعقبته سنوات من "**التطييف**" رسمت خطوطًا من نار بين الشيعة والسنة، والعرب والأكراد، وصولاً إلى المكونات الأصغر حجمًا.

وبالتالي، فإن ظهور داعش وتمددها، وبخاصة في "**المثلث السني**"، صادف حنينًا قد لا نتفق مع أصحابه، إلى كل ما شأنه أن يعيد إليهم عالما مزقته تجربة فاشلة لاستنساخ الدول القومية، حيث تحولت إلى دولة بوليسية لا أكثر، وصراع سياسي/طائفي كانت تأثيراته على رؤية المجتمع العراقي لنفسه، مما لم يحظ باهتمام أحد بسبب ضجيج السياسة والإرهاب.

تدمير مستودع القيم:

وما سوف ينجم عن محاولة داعش فرض "**نمط الحياة**" الذي يمكن استنتاج ملامحه من قوائم المحرمات التي تتداول في الإعلام، تدمير الطبقة الوسطى التي هي دائمًا "**مستودع القيم**"، فهي دائمًا تقف بين الفئات الأدنى التي لا تعير اهتمامًا لـ "**المجال العام**"، والفئات الأعلى التي تراه – غالبًا – ساحة صراع مصالح ونزاعات منافع. وسيجد التنظيم نفسه وسط بحر من البشر (يزداد بالتدريج) من المذعنين القادرين على التكيف والباحثين عما يقيم أود أجسادهم، وهؤلاء غالبًا، يرون "**الدولة القامعة**"، ويكرهون ما يتصل بالتغير والمنافسة والتعدد في الفكر والسلوك، وكثير منهم لا يفرق، ولا يريد أن يفرق، بين "**الدولة**" و"**السلطة**".

ولعل من المهم هنا أن نشير إلى أن تأمل البعد الاجتماعي لحركة الأمم ليس متعارضًا أبدًا مع الاحتكام إلى المعايير الدينية، بل إن رب العزة سبحانه وتعالى امتن على المؤمنين بأن يهديهم إلى الغيب وإلى سنن السابقين في سياق واحد، قال تعالى: "**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم**".

ومع غياب المصدر الكتابي للثقافة (الكتاب) كما هي حال العالم العربي، فإن شرائح واسعة من البشر تميل لأن تتكيف مع ما تسمع (الثقافة الشفاهية) وما ترى (ثقافة الصورة)، وعندئذٍ تظهر – بعد فترة – شعوب صنعها "**نمط الحياة**"، أي أن سنوات من السيطرة والإكراه المادي والمعنوي يمكن أن تؤدي إلى ظهور "**مجتمعات داعشية**"، تتسق مع نمط الحياة المفروض. وقد

حدث هذا في تجارب شمولية سابقة كالتجربتين: النازية والشيوعية، حيث ما زالت شرائح من هذه المجتمعات تشعر بحنين مؤلم إلى الحقبتين.

ونمط الحياة المشار إليه في الحقيقة، يتمدد بهدوء **"في فراغ"**، فقد تركت سنوات القمع الطويلة في الهلال الخصيب مجتمعات تثير الشفقة بهشاشة بنيتها الثقافية وفقرها المدقع في **"ثقافة الحياة"**، حيث تستمد الحياة ماءها من نبعين لا ثالث لهما: تقاليد يعاد إنتاجها دون مناقشة، ودون تفكير أصلاً في معايير مثل: **"المعقولية"** أو **"القناعة"**، ورغبة قوية في الانسياق (للسلطة والمجتمع معًا) طلبًا للسلامة. وتبقى البقية الباقية من النخبة المثقفة ما بين غربة الخارج (المنفى) وغربة الداخل، وهي أقسى وأمر. وفي اليابان تحت الحكم الفاشي كان المثقفون في حالة تهميش وعجز وكانت تطلق عليهم أوصاف مثل: **"المستذلين"** و**"الضعفاء"**، والآفة الأخطر في رؤية داعش ومن سار على دربها أنها لا ترى سوى **"الحكم الشرعي"** والسلطة التي يجب أن تفرضها، ولا تدرك أن **"الفاعل الإنساني"** ضلع ثالث في المعادلة، وأن وجوده واستمراره مرهون بفضاء عرفه الفقهاء منذ أن كان هناك مسلمون، ففي مساحة **"المسكوت عنه"** شرعًا مما لا يشمله أمر أو نهي أو حكم بالكراهة، يتحرك الفاعل الإنساني ويبدع، لكن فكرة أن الصواب واحد لا يتعدد تمثل مشتركًا عامًا بين كل الرؤى الشمولية (أي الاستبدادية) الدينية والعلمانية.

في رثاء المدينة:

"**المدينة**"، تاريخيًا، تقترن من ناحية بالطبقة الوسطى ومن ناحية أخرى بالثقافة التعاقدية، ومن حصيلة حركة الطبقة الوسطى تحت مظلة الثقافة التعاقدية ينمو مجتمع معني بـ "**الشأن العام**"، ومن ثم "**المشترك العام**": السياسي والثقافي والاجتماعي والأخلاقي. ومحصلة كل هذا أن "**داعش ستايل**" لن يستقر إلا بتجريف ما بقي من معالم "**المدينة**". وعندئذٍ ستتحول حواضر كانت قبل أكثر من ألف عام حواضر مزدهرة، إلى صحراء قاحلة من البداوة والريفية تمرح فيها عربات الدفع الرباعي وقوافل المسلحين، حيث لا أفق لوحدة أمة ولا لتحقيق مشروع أياً كان نوعه!

وحقيقة ما سينجزه "**داعش لايف ستايل**" أن يكتب نهاية "**المدينة**" في الاجتماع الإنساني في أي منطقة يدوم استيلاؤه عليها لفترة تكفي لإحداث تغيير في سلوك المجتمع، ومن ثم رؤيته لنفسه.

والرسول ﷺ نهى الصحابة عن العودة إلى حياة البداوة وأسس المدينة على وثيقة تعاقدية غير مسبوقة بالفعل، وفي عصر عزتهم أسس المسلمون مدناً وحواضر يصعب حصرها، لكن المسار الذي يبدو أن البعض يراه سبيل النجاة، سيعود ببعض المسلمين إلى ما قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى "**المدينة**" المنورة.

البيئة الحاضنة للإرهاب:

محاضن الشر([2])

تمهيد:

لا مبالغة في القول بأن الإرهاب أصبح – منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 – يستحق الوصف الذي أطلقه نقاد الأدب ومؤرخوه على شاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبي: "**ملأ الدنيا وشغل الناس**"!

مع اتساع نطاق الظاهرة الإرهابية وتعاظم التهديدات التي تنطوي عليها – جغرافيًا ونوعيًا – لم يعد يكفي الحديث "**الانطباعي**"، عن المسببات، فعلى سبيل المثال، فإن "**الربط الآلي**" بين الظاهرة الإرهابية والفكر المتشدد (دينيًا كان أو قوميًا أو أيديولوجيًا أو .....) قد يفسر بعض أنماط الظاهرة. أما "**التفسير التآمري**": (الإرهاب مؤامرة استخباراتية قادمة من خارج الحدود)، فهو – بتعبيرات الاقتصاديين – قد استنفد "**منفعته الحدية**" سريعًا. وبقي من تجربة ما يقرب من ربع قرن مضى حقيقة واحدة مؤكدة: الإرهاب ظاهرة مركبة

([2]) نشر في مجلة اتجاهات الأحداث – الإمارات – مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة – يونيو 2015.

تضم تحت مظلتها الواسعة ظواهر غير متماثلة، وجميعها تحتاج نظرة مركبة تأخذ في اعتبارها العديد من العوامل، تمتد من الثقافة إلى الاقتصاد السياسي.

والأمر نفسه ينطبق على "**التفسير الأمني**" بطبيعته الاختزالية: (الإرهاب ظاهرة إجرامية وحسب)، ويمكننا هنا استخدام تعبير خبير الحركات الإسلامية المصري الدكتور عمرو الشوبكي، إذ يقول: "**الحرب مع الإرهاب تختلف عن الحرب مع العصابات المسلحة**"، حتى لو مارسا السلوك نفسه، "**لأن الأمر يتعلق هنا بالبيئة الاجتماعية والسياسية المحيطة بكل منهما**"، و"**تحقيق اختراق حقيقي في البيئة الحاضنة للإرهاب لصالح الدولة المصرية بتحييد قطاعات تعاطفت أو سهلت عمل الجماعات الإرهابية نتيجة معارضتها للمسار السياسي الجديد، أو نتيجة تضرر مصالحها الاقتصادية من هدم الأنفاق فى سيناء، أو نتيجة شعورها بالظلم والتهميش السياسى أو الاجتماعى**".([3]) وتلك عينة "**ممثلة**" للأهمية المتزايدة لمقولة "**البيئة الحاضنة للإرهاب**" في الخطاب العام: التحليلي والسياسي والإعلامي.

وقد اجتهد الباحث النرويجي توماس هيغهامر في أطروحته للدكتوراه المعنونة: "**الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب**"، في تقسيم الجماعات المسلحة السلفية في واقعها الراهن، وفقاً لأهدافها، وعلى هذا التقسيم بنيت هذه الدراسة، وله فائدة تحليلية كبيرة.

وحسب هيغهامر، فإن هذه الجماعات تنقسم على النحو التالي:

([3]) البيئة الحاضنة للإرهاب – دكتور عمرو الشوبكي – مقال – جريدة المصري اليوم – 2/ 2/ 2015.

- **"الثوريون الاجتماعيون" يقاتلون نظماً إسلامية يعتبرونها غير شرعية من أجل الوصول إلى السلطة.**
- **"التحرريون" الذين يتخذون العنف سلاحًا يناضلون لتحرير بقعة معينة من محتل غير مسلم.**
- **"الوحدويون" الذين يتخذون العنف سلاحاً لصد عدوان الكافرين عن الأمة الإسلامية برمتها وعن أراضيها.**
- **"الجهاديون العالميون" يقاتلون الغرب بالوسائل كافة وفي المناطق كافة.**
- **"الطائفيون" الذين يتخذون العنف سلاحاً يقاتلون لترويع الطائفة المنافسة وتهميشها (سنية أو شيعية).([4])**

وهو في نهاية أطروحته للدكتوراه، يخرج بالخلاصة المنهجية المهمة التالية: **"توجد صور مثالية مختلفة للتيار الإسلامي المسلح، تتجلى على صُعُد متنوعة في دول مختلفة. وهذا يفسح المجال أمام احتمال أن يكون للأنواع المختلفة لهذا النشاط أسباب أيضاً مختلفة"**، وأن كل صورة له مرتبطة بخصائص معينة لبلد معين. والظاهر أن هذا النهج التحقيقي الذي ربما يمكن وصفه بـ : **"السياسة المقارنة للتنافس الإسلامي"**، يفرض معاينة أشد تمحيصًا للقوى المحركة المسببة للعنف الإسلامي. وعوضًا عن معاينة النظم أو الفقر على صعيد النزوع الإرهابي أو الإسلامي عمومًا، يمكننا معاينة تأثيراته في النشاط الإسلامي بأنواعه المختلفة. وعلى سبيل المثال، ربما يكون الربط بين الفقر

([4]) الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب – توماس هيغهامر – ترجمة: أمين الأيوبي – مراجعة: سعود السويدا – الشبكة العربية للأبحاث والنشر – بيروت – الطبعة الأولى – 2013 – ص 16.

والسياسة الحومية القمعية من جهة، والتيار الاجتماعي الثوري من جهة أخرى، أقوى من ترابط الفقر وتلك السياسة مع التيار الإسلامي الوحدوي المسلح. وعلى العكس، ربما يكون تأثير التباينات الزمنية في عدد الصراعات الدائرة بين المسلمين وغير المسلمين وبروزها، أقوى في مستويات النشاط الوحدوي الإسلامي، منه في "**التيار الإسلامي الاجتماعي الثوري**".([5])

وبناء على هذه التمايزات المستقاة من واقع الحركات الإسلامية المسلحة التي تستخدم الإرهاب وسيلة لتحقيق أهدافها، تمايز العلاقة – نسبيًا أو نوعيًا – مع البيئة الحاضنة التي تتحرك (أو تستقر) فيها هذه الجماعات.

نحو إطار للفهم:

وقبل تناول حدود ما هو متبلور من "**مفهوم البيئات الحاضنة للإرهاب**" (وهو بعدُ قيد التشكل) نشير إلى أنه، رغم اتساع نطاق ظاهرة الإرهاب على نحو غير مسبوق، كما أشرنا، ورغم اكتساب مقولة "**البيئة الحاضنة**" للمزيد من الأنصار فإن البعض لم يزل يرفض المفهوم ويراه مضللاً، فعلى سبيل المثال، يؤكد المفكر الفلسطيني منير شفيق أن ظهور التيارات "**الاستسلامية**" داخل الحركات السياسية يفسر ميلاد حركات أكثر تشددًا من رحمها!

([5]) الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب – مصدر سبق ذكره – ص 344.

فمثلاً، حركة "**فتح**" من الاتجاه الفلسطيني العام حين مارست الكفاح المسلح ظهر من خلالها منظمة صبري البنا "**أبو نضال**" لكن ضد ما اتبعت من أسلوب ووسائل. ويضيف منير شفيق إلى ذلك أمثلة في التاريخ السياسي الأوروبي المعاصر مثل حركات الإرهاب التي عرفتها مرحلة "**الحرب الباردة**"، وقد خرجت من صفوف اليسار والأحزاب العمالية والشيوعية، مثل منظمات: "**بادر ماينهوف**" في ألمانيا، و"**العمل المباشر**" في فرنسا، و"**الألوية الحمراء**" في إيطاليا، و"**الجيش الأحمر**" في اليابان. المهم هنا – حسب منير شفيق – **تأكيد** أن منظمات الارهاب، كما اتجاهات الاستسلام أو التفريط، تتفرع من تيارات كبرى، أو متوسطة، لكنْ ضدها ورفضًا لمنهجها وأساليبها باعتبارها "**فاشلة**"، ولهذا لا يمكن اعتبار تلك التيارات محضنًا يولد التطرف على الجانبين. فحقيقة أن منظمات الإرهاب "**تفرعات**" من مدارس فكرية أو حركات سياسية أو اتجاهات شعبية، لا يعني انها ابنة شرعية لها، أو أنها المحضن الذي كان سببها. أما التنظير فقلما كان السبب وإنما نتيجة لتعزيز "**البديل**".

من جهة ثانية، فإن التركيز على موضوع "**المحضن**"، هنا، أو التركيز على حصر ظاهرة الإرهاب بخروجه "**من بيئة عقلية وذهنية واجتماعية معينة تتسم بالجهل**"، يطمس إشكالية الأزمات الكبرى التي تعصف بالبلاد العربية والاسلامية.([6])

ومن نقد المقولة إلى محاولة فهمها، يمكن وصف العلاقة بين الإرهاب وبيته الحاضنة على النحو التالي: "**الجماعات الإرهابية محدودة العدد، لكنها**

([6]) في نقد مقولة "محاضن الإرهاب" – منير شفيق – مقال – الحياة – 21/ 12/ 2003 – رقم العدد: 14880 – 14 – تيارات.

تتحرك وسط بيئة تساعدها، ولو جزئيًا، عبر خطاب سياسى قائم على المظلومية ...... ونجحت فى استمالة أعداد من الناس غضت الطرف عن عملياتها الإرهابية أو تواطأت معها". و"البيئة الحاضنة" ....أخطر من الإرهاب نفسه لأنها تخص قطاعاً ولو محدودًا من المجتمع يمتلك رواية سياسية مكتملة (مهما كان الرأي فيها) تؤثر في قطاعات محدودة من الشباب وتجعل قلة منه تتورط في الإرهاب"، و"الرواية السياسية، مهما كان شططها، تدحضها رواية أخرى، وإذا نجحت الدولة في فرض روايتها بالإقناع وتصحيح الأخطاء، وليس بالأمن، فإن معركة البيئة الحاضنة ستحسم في اتجاه العمل السلمي".([7])

والمفهوم (أيًا كان الخيار اللغوي للتعبير عنه)، لم يزل مفهومًا مطاطًا لم يستقر بعد على نحو بيّن الوضوح، فبعض الباحثين – مثلاً – كانوا يشيرون إلى العمل الاجتماعي الذي قامت به "**الجماعة الإسلامية**" في مصر داخل الجامعة وخارجها قبل الصدام المسلح بينها وبين الدولة المصرية (1990 – 1997)، بوصفه نوعًا من العمل المخطط لبناء: "**الحاضنة الاجتماعية**"، ومبكرًا ظهر في الخطابين الأمني والتحليلي في مصر تعبير: "**تجفيف المنابع**"، ليشير إلى ضرورة توسيع نطاق مواجهة الإرهاب ليشمل معالجة مشكلات تسهم في انتشاره أو التعاطف معه. وقد غلب على محتوى أدبيات "**تجفيف المنابع**" النظرة الأمنية وروح السجال الأيديولوجي. وبعض الباحثين يرى العلاقة بين "**تنظيم القاعدة**"، و"**حركة طالبان أفغانستان**"، و"**مجتمع القبائل**"، العابر لحدود الدولة بين أفغانستان وباكستان، علاقة مركبة توفر نموذجًا لمفهوم "**البيئة الحاضنة**

([7]) البيئة الحاضنة للإرهاب – دكتور عمرو الشوبكي – مصدر سبق ذكره.

للإرهاب". وكذلك العلاقة بين قيادي "**تنظيم القاعدة**" أبي مصعب الزرقاوي حتى مقتله عام 2006، وبين بعض العشائر العربية في ما يسمى "**المثلث السني**" في العراق حالة مثالية للعلاقة بين تنظيم إرهابي وبين محيطه الاجتماعي.

تجربة القاعدة (الأولى):

شكّل انتقال أسامة بن لادن من السودان إلى أفغانستان، في مايو1996، بداية "**العصر الذهبي للقاعدة**". وعلى مدى السنين الخمس التالية، شهدت البنية التحتية للتنظيم وعملياته وعضويته توسعًا كبيرًا. وعندما غزت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة أفغانستان في أكتوبر 2001، كان التنظيم قد درّب بضعة آلاف من المتطوعين العرب ودبّر أشدّ الهجمات دويًا في التاريخ. وثمة أسباب مكنت التنظيم القاعدة من امتلاك هذه القدرة الهائلة في هذه الحقبة. أول هذه الأسباب وأهمّها، "**الملاذ الآمن**" الذي وجده التنظيم في أفغانستان. و"**أهم الدروس التي نستخلصها من تاريخ القاعدة، هو أن تمتّع جماعة عنفيّة بحرية مطلقة في بقعة أرض يزيد من قدرتها العسكرية بشكل هائل. بادئ ذي بدء أتاح الملاذ الآمن لتنظيم القاعدة التخطيط لعملياته بصمت وفقًا لبرنامجه الخاص ومن دون تشويش خارجي من الناحية الفعلية. كما سمح لبن لادن ببناء نواة تنظيمية على درجة عالية من البيروقراطية والتقسيم الوظيفي للمهام وهو ما رفع الكفاءة التنظيمية. والأهم من ذلك كلّه أنّ حيازة الأرض مكّنت بن لادن من بناء نظام تعليمي عسكري واسع لم يسبق لمنظمة عنفيّة عابرة للحدود ذات أجندة راديكالية أن امتلكت**

مثله. وهذه البنية التحتية أو (جامعة الجهاد العالمي) طورت إلى حد بعيد قدرة تنظيم القاعدة على إستخدام مجنّديه".([8])

وشكلت المعسكرات أداة لرفع كفاءات المجنَّدين شبه العسكرية، وشكلت أيضاً ميداناً لعمليات اجتماعية طوّرت القدرة العملانية للتنظيم. كثير من هذه العمليات حاكى العمليات التي ترعاها منظمات عسكرية محترفة. و**"ترجع نجاحات تنظيم القاعدة الدبلوماسية النسبية من بعض النواحي إلى الشيء الذي كان في مقدوره تقديمه، وعلى التحديد التدريب والملاذ والمال".([9])**

ما بعد تجربة القاعدة:

لفتت تجربة القاعدة – بشكل غير مسبوق – النظر إلى قضية البيئة الحاضنة للإرهاب وبخاصة منذ الاحتلال العسكري لأفغانستان، حيث أثبتت التجربة العملية أن المعرفة بالبنية التنظيمية وحدها لم تكن كافية لإنجاز الهدف، وشكلت قدرة "**القاعدة**" على الاستمرار تأكيدًا لدور المحيط الذي تتحرك فيه. ومن ثم بدأت تظهر أدبيات تستهدف تعريف الظاهرة على نحو أوضح وقراءة تجاربها السابقة باهتمام أكبر. الباحث ميشيل موسو يرى أن العلاقة بين الحركات الإسلامية المسلحة وبيئتها الحاضنة تضمن لهذه الجماعات "**الاستمرار**"

([8]) الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب – مصدر سبق ذكره – ص 165.

([9]) الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب – مصدر سبق ذكره – ص 167.

بقدر ما توفر لها التمويل والمتطوعين، وهي تبدو قادرة على تحقيق ذلك بيسر في بيئات معينة. ما يعني أن تهديد الإرهاب "**ظاهرة سياسية**" بقدر ما هو ظاهرة مسلحة وإجرامية، وأن فهم جذوره السياسية شرط لهزيمته.([10])

ويرى الباحث الدكتور حازم قشوع أن بالإمكان إجمال أسباب وجود حواضن الإرهاب في ما يلي:

أولاً: أسباب موضوعية.

1. الاستقطاب الإقليمي.

2. مصالح النظام العالمي في التجاذبات السياسية القائمة.

3. قدرة المجتمعات المحيطة في التعاطي مع الظاهرة.

ثانيًا: أسباب ذاتية بيئية.

1. الفقر والبطالة.

2. الاحتلال.

3. غياب الديمقراطية.

4. اختلال ميزان العدالة.

5. غياب قيم المواطنة.([11])

([10]) Urban poverty and support for Islamist terror: Survey results of Muslims in fourteen countries – Micheal Mousseau – Journal of Peace Research – 48(1) – P. 35 - 36.

([11]) في تخفيف حواضن الإرهاب – دكتور حازم قشوع – مقال = جريدة الرأي الأردنية – 24/ 12/ 2014 – بتصرف واختصار.

وثمة من سعى في إطار بلورة المفهوم إلى الانتقال من "**الجماعة**" إلى "**الفرد**" البحث سمات مميزة يمكن اعتبارها مشتركات عامة، عن البنية النفسية لأبناء البيئات الحاضنة للإرهاب. وهي:

1 – **عقلية عدوانية**.

2 – **نفسية كارهة للمجتمع والبشر**.

وتتحول هاتان الصفتان عند شيوعهما في مجتمع ما (طائفي أو إثني إو ديني أو ...) إلى بيئة اجتماعية حاضنة، تغذي وترعى وتدعم وتمجد الإرهاب عبر وسائل التواصل والمواقع وترفع شعاراته وأعلامه. وعليه، فإن "**البيئة الاجتماعية الحاضنة**" المسؤول الأكبر والأخطر في تقبُّل الإرهاب ونشره وجذب الشباب إليه، و"**الحواضن الاجتماعية**" هي الضامن الأكبر لاستمراره. ولولا "**الحواضن**" التي قدمت المأوى والمآكل والعون المادي والمعلوماتي، لما استطاع "**داعش**" اكتساح المدن والقرى والمحافظات وتهجير الملايين، واقتلاع الطوائف والأقليات التاريخية العراقية من أوطانها بهذه السرعة. وهذه الحاضنة سهلت لـ "**داعش**" عبر الإمداد بالمعلومات عن بيوت وأماكن الطائفتين!([12])

ومدخل البنية النفسية – أو بمعنى أوسع نطاقًا – المكون النفسي/ العقلي للفرد الذي يمكن احتمالاً أن يكون فرداً في بيئة داعمة للإرهاب يكتسب المزيد من الأنصار في دراسات الظاهرة، بعد أن البحث في "**البنى التنظيمية**" و"**الخطاب الفقهي**" يحوز الوزن النسبي الأكبر. وبعض الباحثين يستنتج – على نحو لا يخلو من مبالغة – أن الثقافة العامة لمجتمعات مسلمة

([12]) الحواضن الاجتماعية للإرهاب – الدكتور عبد الحميد الأنصاري – مقال – جريدة الجريدة الكويتية – 1/ 9/ 2014 – بتصرف واختصار.

بأكملها داعمة للإرهاب ويمكن أن تجعل هذه المجتمعات من المحتمل أن تتحول إلى "**بيئات حاضنة للإرهاب**". الباحث فتحالي م. مقدم (بجامعة جورج تاون) يقول بوضوح: "**أصبح كثير من المجتمعات الإسلامية حول العالم ومن ضمنها ملايين من المسلمين المهاجرين إلى كثير من الدول الأوروبية، (على سبيل المثال مسلمي، جنوب آسيا بالمملكة المتحدة، أو شمال أفريقيا بفرنسا، أو الأتراك المسلمين بألمانيا) تساند مجموعات الإسلام المتطرف، وقد تبنى مواقفه. وعلى سبيل المثال، فإن عددًا كبيرًا من هؤلاء المهاجرين يرفضون الاعتراف بأن اعتداءات 11/ 9 قام بها العرب. 56 % من مسلمي إنجلترا، 46 % من المسلمين الفرنسيين، 44 % من مسلمي ألمانيا، 65 % في إندونيسيا، 59 % من مصر، وفي تركيا 59 %، وفي الأردن 53 %. كما أن نسبة كبيرة منهم أي عشرات الملايين المقيمين في مجتمعات غربية أو غير غربية، تبرر استهداف المدنيين في بعض الأحيان بحجة الدفاع عن الإسلام (مسلمو بريطانيا 15 %، مسلمو فرنسا 16 %، في ألمانيا 7 %، وإندونيسيا 10 %، وفي مصر 28 %، وبتركيا 17 %)**". وهو يعقب على هذه الإحصاءات بالقول: "**تتمثل خطورة راديكالية هذه الجاليات، فيما يمكن أن تقدمه من مساندة معنوية أو عملية لأنشطة عنيفة مثل الإرهاب بشكل خاص**".([13])

([13]) الوجوه المتعددة للإرهاب: وجهات نظر وقضايا مختلفة – تحرير: ديفيد كانتر – ترجمة وتقديم: جيهان الحكيم – المركز القومي للترجمة – مصر – العدد: 2233 – الطبعة الأولى 2014 – ص 431.

الفقر أم عشوائيات المدن؟:

شكلت فكرة "**التفسير الواحد**" القادر على حل "**اللغز**" الظاهرة الإرهابية فخاً سقط فيه قسم لا يستهان به من الخطاب التحليلي الذي تناول الظاهرة، وهو – كما أشرنا سلفاً أهم التنوعات الكبيرة داخل الظاهرة – جغرافيًا وتاريخيًا وبنيويًا – وكان من أوفر التفسيرات حظًا لفترة ليست بالقصيرة الربط بين الإرهاب والفقر والبطالة (وربما الجهل أو قلة التحصيل العلمي)، وقد عجزت هذه المقولة عن تفسير انخراط شرائح من كوادر هذه التنظيمات، فضلاً عن بعض أشهر رموزها وبخاصة الثري السعودي أسامة بن لادن، والطبيب ابن الطبقة الأرستقراطية المصرية الدكتور أيمن الظواهري.

وحسب الباحث النرويجي غيغهامر، فإن السعوديين في أفغانستان بعد العام 1996، شكلوا كسابقيهم، جمهورًا متنوعًا. لم يكن هؤلاء بمجموعهم فاشلين أو منعزلين أو معوزين، كما لم يكونوا خريجي جامعات ناقصين أو أبناء موسرين مدفوعين أيديولوجيًا. ومع أنّ هذه الصور كانت ممثَّلة جميعًا، كان المجنَّدون العاديون في القاعدة شبابًا من أبناء الطبقة الوسطى والوسطى الفقيرة، في أوائل العشرينات من أعمارهم، وقدموا من المدن الكبيرة: الرياض ومكّة وجدّة. ومع ذلك غدا السعوديون في أفغانستان بعد عام 1996 أقلّ تنوُّعًا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، وأقل تحصيلاً للعلم بعض الشيء من المجاهدين الأوائل. وهذا يعكس كون الجهاد في أواخر التسعينيات أشدّ خطرًا وأقلّ شيوعًا منه في الثمانينيات، ولذلك ركزت جهود التجنيد على الشبكات الاجتماعية

للمجاهدين السابقين بدرجة أكبر من ذي قبل.([14])

والظاهر أيضًا أنّ البطالة كانت أكثر شيوعًا في مجنّدي القاعدة منها في المجاهدين الأوائل. وهناك معلومات سردية كثيرة تتحدّث عن البطالة في سير المجاهدين. من ذلك، أنّ رجلاً سافر إلى أفغانستان في سبتمبر 2001 قال لاحقًا في مقابلة: "**أكملت دراستي الابتدائية ومكثت بلا عمل لعدة سنين قبل توجُّهي إلى أفغانستان**". وقال سجين في غوانتنامو كان قد سافر إلى أفغانستان في مارس 2001: "**قرأت على الإنترنت عن طالبان وكنت أبحث عن عمل، وجاء في الصفحة أنهم في حاجة إلى مسلمين وإلى عونهم، لذلك ذهبت لمساعدتهم**". هذه الروايات منسجمة مع الدليل الذي يشير إلى زيادة حجم البطالة في المملكة العربية السعودية زيادة سريعة في النصف الثاني من عقد التسعينيات، لزيادة نسبة الشباب في السكان ولتراجع عادات النفط. وإذ يصعب التأكد من ذلك لقلة البيانات التي يمكن التعويل عليها، نرجّح صحة الفرضية التي تقول إن البطالة أذكت الانخراط في معسكرات التدريب التابعة لـ "**القاعدة**". وفي المحصّلة، يصعب تحديد عوامل اجتماعية واقتصادية ذات قيمة تكهّنية قوية تقف وراء إنخراط السعوديين الفردي في صفوف القاعدة. كانوا فتية ومن أبناء المدن، وربما بعضهم كان عاطلاً عن العمل، لكن آلاف السعوديين من أمثالهم لم يتوجّهوا إلى أفغانستان.([15])

([14]) الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب – مصدر سبق ذكره – ص 197 – 198.

([15]) الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب – مصدر سبق ذكره – ص 197 – 201.

الباحث ميشيل موسو قام بمسح في 14 دولة إسلامية لمعرفة الشروط التي تجعل الناس العاديين داعمين لجماعة إرهابية. وتمت الدراسة على عينة من 8000 مسلم من 14 دولة، وهي عينة يفترض أنها تمثل 62 % من مسلمي العالم، سئلوا حول رأيهم في استخدام الإرهاب للدفاع عن الإسلام. والدراسة اختبرت فروضًا عديدة: التدين، مستوى التعليم، الفقر، مستوى الدخل، السخط، لكن التحليل يشير إلى عامل واحد: فقراء المدن. ودور المناطق الحضرية الفقيرة يتلخص في أن جذور **"الإرهاب الإسلامي"** هي في الأحياء الأكثر اكتظاظًا حول المدن الكبيرة في العالم الثالث. فالنازحون من الريف هربًا من الفقر كان يحدوهم الأمل في أن يجدوا حياة أفضل في المدن، ولما لم يجد كثير منهم فرص عمل بدأ طريقهم نحو دعم التنظيمات الإرهابية.([16]) والنتيجة النهائية لتحليل نتائج المسح أن **"فقر المدن"** أو ما يمكن أن نسميه: **"الأحياء العشوائية"** على حواف المدن الكبرى بيئة حاضنة للإرهاب. وتشير المؤشرات المتصلة بفقر المستطلعين إلى أن 40 % منهم عجزوا ذات يوم عن شراء الحاجات الغذائية الضرورية، و44 % منهم عجزوا عن شراء الدواء، 40 % منهم عجزوا عن شراء الملابس الضرورية.([17]) وحسب الدراسة، فإن 49 % من العينة مقتنعون بأن استخدام العنف للدفاع عن الإسلام مرفوض تمامًا و15 % يرونه مبررًا نادرًا، 21 % يرونه مبررًا أحيانًا، و15 % يرونه مبررًا غالبًا.([18]) ما يعني أنهم داعمون لفكرة استخدام الإرهاب لتحقيق أهداف دينية أو سياسية.

Ibid - P. 35 – 36. ([16])

Ibid - P. 44. ([17])

Ibid -P. 35 - 43 ([18])

"الثقافة المحافظة" محضن "السلفية الجهادية"([19])

عالم الاجتماع البحريني الدكتور باقر النجار يرى أن الجماعات السلفية المختلفة تنهل من ذات المعين الفكري والأيديولوجي، لكنها قد تختلف في درجة نزوعها للعنف، وفي حدة موقفها النافي للمختلف الديني والفكري، ورغم هذا فإن الفعل الذي بدت عليه **"طالبان"** سابقًا، والجماعات السلفية في العراق وبلاد الشام وأفريقيا، يثير التساؤل حول ما إذا كان هذا الفعل شاذًا أم يمثل التيار السائد فيها. وحسب اجتهاد النجار، فإن الأشكال الجديدة للجماعة السلفية القادرة على استقطاب أعداد كبيرة من الشباب المسلم للانخراط في صفوفها في بلاد الشام، وهي الجماعات الأكثر قوة وحضورًا وتناميًا في كثير من المجتمعات الإسلامية من باكستان شرقاً حتى نيجيريا غربًا تمثل نموذجًا وحالة معبرة. وقد مثلت التضامنيات القبلية والجماعات الاجتماعية المحافظة حواضنها الرئيسة. وهذه الحقيقة تعكسها حالات انتشار الجماعة السلفية في أوساط الجماعات القبلية الأفغانية الذي يمثل الشمال الباكستاني امتدادها، ليس فحسب الجغرافي، وإنما القبلي كذلك، ومنه باتت تستمد قوتها الاجتماعية والسياسية. كما أن الاختراقات التي تُحدثها طالبان في صفوف الجيش والأمن الأفغاني هي اختراقات تحدث بفعل المعطى القبلي، وليس السياسي أو الأيديولوجي، بل إن سيطرة داعش على غرب العراق جاء بفعل اختراقات واسعة للمكون القبلي في شمال العراق وغربه. وما يدعم التعاون الدائم بين

---

(19) للمزيد عن العلاقة بين الثقافة المحافظة وجماعات العنف السلفية الجديدة، يمكن الرجوع إلى: "الداعشية" ... إعادة إنتاج نمط ما قبل المدينة – ممدوح الشيخ – موقع مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة. الرابط:

http://www.futurecenter.ae/analys.php?analys=152

"طالبان باكستان" و**"طالبان أفغانستان"** هو **"التداخل القبلي"** قد وحدها أكثر من التماثل الفكري أو الآيديولوجي وحاضنتها الاجتماعية؛ القبلية أو الريفية، باتت تمثل معينها البشري. وبالمثل فإن قوة الجماعات السلفية في المجتمعين العراقي والسوري كان في البوادي، وربما في الأرياف أكثر من الحواضر. والقائد السلفي اليمني/ الأميركي المعروف، أنور العولقي، الذي طاردته القوات الأميركية حتى اغتالته، لم تحمه الدولة أو الجماعة السياسية، وإنما حمته القبيلة. بل إننا وجدنا نزوعًا عند عرب وآسيويين من المهاجرين إلى أوروبا نحو الهجرة والاستقرار في أفغانستان إبان حكم طالبان، لرغبتهم في تنشئة أبنائهم في **"بيئة إسلامية محافظة"**.

وحسب النجار، هناك قدر من التماهي بين القيم القبلية والبناءات الثقافية للجماعات السلفية. كما أن هذا يفسر الاحتضان القوي للجماعات القبلية في شبه جزيرة سيناء للسلفية الجهادية، وينسحب مثل هذا القول على: ليبيا واليمن والجزائر وجنوب الأردن. وهي بيئات تتداخل عوامل شتى اجتماعية واقتصادية وثقافية، ولربما دينية في أن تكون حواضن اجتماعية للجماعات السلفية الجديدة. فـ **"الآيديولوجية المحافظة"** للجماعات السلفية ذات المنشأ الثقافي الصحراوي التقت مع الطبيعة البدوية، والقبلية بصفتها جماعة حاضنة في كل المناطق التي شهدت حضورًا مكثفًا لها. وهي سياقات اجتماعية وثقافية تفسر الحضور الكثيف للمقاتلين من الإثنيات غير العربية: الشيشانية والآسيوية والأفريقية والأوروبية.([20]) وهذه الظاهرة انعكاس لحالة من الابتسار والخلط

([20]) الحاضنة الاجتماعية للجماعة السلفية – دكتور باقر النجار – مقال – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 28/ 8/ 2014 – رقم العدد: 13057 – باختصار وتصرف.

تحول بمقتضاها مفهوم: "**المجتمع الإسلامي**" من "**معايير حاكمة للحياة**" إلى "**نمط حياة**"، رغم أن هذا المفهوم يتعارض مع "**عالمية الإسلام**"، وأصبحت الروح المحافظة هي التعبير المختصر عن "**الهوية**"، فكلما زادت قوائم المحظورات أصبحت التجربة أكثر تعبيراً عن مفهوم الجماعات السلفية المسلحة للهوية.

رهاب الهوية بيئةً حاضنةً:

تشكل العلاقة بين "**الهوية**" و"**العنف**" موضوعًا تتزايد أهميته باضطراد ملحوظ في دراسات الاجتماع السياسي، فالدولة الوطنية الحديثة – وبخاصة في تجاربها الأوروبية – عززت أهمية مقولة الهوية على نحو لم تعرفه مجتمعات ما قبل العصر الحديث، ولاحقًا، أصبحت محركًا لا يستهان بأثره في تحولات الإسلاميين المسلحين. ويربط الباحث فتحالي م. مغدم (الباحث بجامعة جورج تاون الأمريكية) بين: "**الهوية**"، و"**الراديكالية**"، و"**العنف**" من خلال التصور التمثيلي التالي: "**لتقريب الصورة من العملية الراديكالية، وعلاقتها بالإرهاب كونت صورة خيالية لسلم يعتلي الإرهابي درجاته، خطوة خطوة، حتى يصل إلى آخر طابق..... ولنتخيل الآن أن معظم ساكني هذا المبنى، يقطنون الدور الأرضي، فلا يحتاجون إلى صعود السلم**"، و"**كل طابق من الطوابق يمثل مستوى مختلفًا من الأفعال والأفكار، التي تتحكم فيها عمليات نفسية**

عديدة". و"في الطابق الأرضي حيث يعيش أكثر من بليون مسلم، فإن الأفعال والأفكار تسيطر عليها الهوية".([21])

وحسب المفكر البريطاني المعروف أمارتيا سين (ذي الأصل الهندي) فإن "عددًا كبيرًا من القضايا السياسية والاجتماعية المعينة تدور حول المزاعم المتضاربة للهويات المختلفة التي تتعلق بجماعات مختلفة، ذلك أن مفهوم الهوية يؤثر، بطرق مختلفة كثيرة، في أفكارنا وتصرفاتنا. وقد أنذرت الأحداث والفظائع العنيفة في السنوات القليلة الماضية بمرحلة من الفوضى المتوحشة إضافة إلى بعض الصراعات المهلكة. وكثيرًا ما يُنظَر إلى سياسات الصراعات العالمية على أنها نتيجة منطقية للانقسامات الدينية والثقافية في العالم. والحق أنه يُنظَر إلى العالم بشكل متزايد، وإن بطريقة ضمنية، على أنه مكوَّن من اتحادات من الأديان أو اتحاد من الحضارات، وبذلك تُتجاهل الطرق الأخرى كلها التي ينظر بها الناس إلى أنفسهم. ويكمن وراء هذا الخط من التفكير الافتراض الغريب الذي يقضي بأن الناس في العالم يمكن أن يُصنَّفوا بشكل فريد تبعًا لنظام معين من التجزيء يتصف بأنه أحادي ومتعالٍ. ويؤدي التجزيء الحضاري أو الديني لسكان العالم إلى مقاربة "انعزالية" للهوية الإنسانية، وهي التي تنظر إلى بني الإنسان بوصفهم أعضاء في مجموعة واحدة فقط (وهي التي تُعرَّف في هذه الحالة بالحضارة أو الدين، على النقيض من الاعتماد الأقدم على الوطنيات

([21]) الوجوه المتعددة للإرهاب: وجهات نظر وقضايا مختلفة – مصدر سبق ذكره – ص 431.

والطبقات)"([22]) وفي عدة حالات كان "**رهاب الهوية**" سببًا في عنف فعلي أو محتمل، أو سببًا في تعاطف وفر بيئة حاضنة للإرهابيين، ففي باكستان مثلاً تعتبر شرائح من المجتمع أن "**الأجندة الباكستانية**" لمحاربة الإرهاب تم اختطافها من قِبل أطراف علمانية وليبرالية وفرض أجندتها ما قد يوفر بيئة مناسبة لتمدد داعش.([23])

"الدولة الفاشلة" و"البيئة الحاضنة":

يحتل الصومال المركز الأول عالميًا على مؤشر "**الدول الفاشلة**" منذ العام 2007.([24]) ومنذ انهيار الدولة في الصومال مطلع التسعينات وتحوُّلها لاحقًا إلى مفرخة للتنظيمات المتشددة التي تحالف بعضها مع "**الجريمة المنظمة**" (القرصنة) ليشكل تحالفهما تهديدًا للملاحة العالمية، وقضية تأثير افتقار الدولة للكفاءة – وصولاً إلى انهيارها – أحد أهم البيئات الحاضنة (المحتملة) للإرهاب. وقد انتبه تنظيم "**القاعدة**" إلى ذلك مبكرًا، فأُرسِل ناصر البحري الحارس الشخصي لأسامة بن لادن إلى الصومال في عدة مهمات استطلاعية بين عامي 1996 و1998 لأن قيادة القاعدة كانت تفكر في الانتقال إلى اليمن أو الصومال. ..... وقد عمل بن لادن على نقل تنظيمه بالكامل إلى مقر كبير كان يخطط

([22]) الهوية والعنف: وهم القدر – أمارتيا سين – ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني – جداول للنشر والتوزيع – الكويت – الطبعة الأولى – فبراير 2012 – ص 20 – 21.

([23]) ما هو مستقبل تنظيم الدولة في أفغانستان وباكستان؟ – دكتور أحمد موفق زيدان – موقع مركز الجزيرة للدراسات – 28 / 1/ 2015. الرابط:
http://studies.aljazeera.net/reports/2015/01/2015128101426344994.htm

([24]) ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – مصدر سبق ذكره – ص 137.

لإنشائه في كامبوني في جنوب الصومال..... وقد وضع بن لادن خططًا طموحة وكان يعتزم توحيد قواته وقوات زعماء العشائر المتعاطفين معه بهدف "**الاستيلاء على البلد**" ليستخدم لاحقاً كمنطلق لجهاد أوسع.([25])

القبيلة بيئة حاضنة:

في الحالة الأفغانية/ الباكستانية، كان "**تنظيم القاعدة**" آمنًا في أفغانستان والمناطق الجبلية من باكستان "**حيث تنظر القبائل المتعاطفة، ومعظمها من البشتون، إلى الجهاديين الدوليين كضيوف ورفاق في السلاح، ويحكم الثقافة البشتونية ميثاق شرف يدعى "بشتون والي" يمنع صراحة خيانة الضيوف**".([26]) وتعد العلاقة بين الدولة وبعض مكوناتها (القبلية) أحد أهم القضايا التي برزت خلال تجربة ما بعد "**هجمات الحادي عشر من سبتمبر**"، كتحدٍ أكدته التجربة الأفغانية/ الباكستانية. فوجود درجة ما من القصور في قدرة الدولة على فرض سيادتها وقانونها بشكل جزئي أو تام على جزء من أراضيها بسبب طبيعة البنية السكانية لهذا الجزء يجعله محضنًا محتملاً للإرهاب. وكانت "**منطقة القبائل**" نموذجًا لهذه الظاهرة.

فهذه المنطقة كانت محكومة لمئات السنين بنظام طالما حكم "**مناطق القبائل السبع**"، حيث يتحكم 14 رئيس قبيلة في أكثر من مليون ونصف المليون نسمة في وزيرستان الشمالية والجنوبية، وهو ما ينسحب على مناطق قبلية

([25]) ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – مصدر سبق ذكره – ص 141.

([26]) ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – مصدر سبق ذكره – ص 181.

أخرى. وتاريخيًا كانت "**منطقة القبائل**" بمنزلة "**الصندوق الأسود**" لكل الإمبراطوريات منذ حكم المغول. ومع صعود مؤسس الدولة الأفغانية الحديثة أحمد شاه الأبدالي (1724 – 1773) برز نظام رؤساء القبائل وسط قبائل وزيرستان، حيث عيَّن الأبدالي أربعة رؤساء لقبائل شمال وجنوب وزيرستان. ومع الانسحاب البريطاني من شبه القارة الهندية 1947، تم تخيير القبائل بالانضمام إلى باكستان أو إلى الهند، واختارت القبائل باكستان، لكن استقلال باكستان لم يعنِ شيئًا بالنسبة للقبائل. ومع خرق رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي بوتو في مطلع السبعينات التقليد المتبع بنأي مناطق القبائل عن العمل السياسي وتوجهه إليها، تسبَّب في صدمة لحكم قبلي تقليدي مستمر منذ قرون، وشكَّلت صدمة الجهاد الأفغاني ذروة الصدمات، فانتشرت المدارس الدينية كالفطر فيها وشارك طلبتها في الجهاد، وعادوا بأفكار وآراء جديدة بعد أن احتكوا مع جهاديين عالميين هناك.([27])

وباكستان – بسبب هذه الاعتبارات المتصلة بالبنية القبلية وما يترتب عليها – تحولت إلى "**مُحتَشَد للمنظمات الجهادية التي تشكل مكونًا أساسيًا للمجتمع في بعض المناطق**"، فتقدم خدمات رعاية أساسية وتؤمن وظائف وتعليماً في المدارس الدينية. ويتبين مدى تجذر هذه المنظمات في الحياة اليومية من كتاب: "**من الألف إلى الياء عن المنظمات الجهادية في باكستان" الذي نشر في باكستان**".([28]) ومن المستبعد أن تنجح في باكستان حملة "**صحوة**" على الطريقة العراقية بالنظر إلى الولاءات القبلية القائمة واعتبارات الثقافة

(27) ما هو مستقبل تنظيم الدولة في أفغانستان وباكستان؟ – مصدر سبق ذكره.

(28) ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – مصدر سبق ذكره – ص 194.

المحلية.([29]) وجاء الغزو الأميركي لأفغانستان عام 2001 وانحياز المقاتلين القبليين في صفوف **"طالبان"** و**"القاعدة"** إلى مناطقهم مع ضيوفهم من **"طالبان أفغانستان"** و**"القاعدة"**، لتتحول لفناء كامل للمسلحين الجدد.([30]) وشجعت الحكومة الباكستانية في عامي 2003 و2007 بعض وجهاء القبائل على إنشاء وحدات **"الشكر"** لطرد مجموعات **"طالبان"** و**"القاعدة"** والحركات المتعاونة معهما من مناطقهم، ولم تنجح التجربة. ([31])

وفي اليمن كان **"تنظيم القاعدة"** والمجموعات المنضوية تحت جناحه لهم وجود واسع الامتداد بفضل الولاءات القبلية في الغالب. وادعى أنور العولقي في مقابلة أجرتها معه صحيفة الشرق الأوسط **"أن هناك تأييدًا من قطاعات واسعة من الناس في اليمن"**. ..... و**"أدركت القاعدة في وقت مبكر أن التنظيم لن يتمكن أبدًا من ترسيخ قدميه في اليمن بدون دعم القبائل ووجود علاقات قوية معها"**. ....و**"خسارة دعم القبائل أو معاداتها ستكونان أشد خطرًا من استمرار القاعدة في شبه الجزيرة العربية من هجمات الطائرات بدون طيار"**. وقد أرسل أسامة بن لادن موفدين إلى اليمن في وقت مبكر لم يتجاوز عام 2000 وحثهم على تركيز جهودهم على اكتساب دعم القبائل هناك. ([32]).

([29]) ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – مصدر سبق ذكره – ص 213

([30]) ما هو مستقبل تنظيم الدولة في أفغانستان وباكستان؟ – مصدر سبق ذكره.

([31]) ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – مصدر سبق ذكره – ص 213.

([32]) ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – عبد الباري عطوان – ترجمة: سعيد العظم – الطبعة العربية – دار الساقي – بيروت – الطبعة الأولى 2013 – ص 123.

ويستند هذا الوجود إلى حقيقة اجتماعية/ سياسية مؤثرة هي أن "القبائل قوية إلى درجة غير مألوفة، وهي مسلحة جيدًا ولها أنظمتها الإدارية والقضائية والعسكرية الخاصة بها. وكما لدى قبائل البشتون في أفغانستان يعتبر ميثاق الشرف وحماية الضيف مبدأ أساسيًا لا تحيد عنه القبائل اليمنية".([33]) وتوجد في اليمن "مناطق قبلية يحرم دخولها على قوات الحكومة. .... وتشمل جهود القاعدة لاكتساب ود أفراد القبائل برامج رعائية أساسية وأشكالاً أخرى من الدعم المادي لأفقر العائلات في تلك المناطق. وقد طور تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية أسلوبًا لاكتساب تعاطف الناس في البلدات والقرى التي سيطرت عليها تتفادى بموجبه المجابهة مع القبائل". ..... وكتب الخبير اليمني في شئون الحركات الإسلامية عبد الإله حيدر يقول: "لا تستطيع الدولة التغلب على القبائل. وحتى لو عرفت القبائل من هم أعضاء القاعدة فإنها لن تفشي هذه المعلومات. وهل من شأن القبائل أن تبلغ عن أبنائها الذين يعيشون مع القاعدة وتدربوا على أيديها؟ هذا أمر مستحيل في القيم القبلية". وفي 2010 اعترف الزعيم القبلي اليمني فريد بن بابكير لصحافي جريدة الجارديان البريطانية – غيث عبد الأحد – أن مجمع أنور العولقي موجود في قريته.([34])

الإقصاء والتهميش بيئة حاضنة:

([33]) الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب – مصدر سبق ذكره – ص 125.

([34]) ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – مصدر سبق ذكره – ص 124 – بتصرف.

وسط صخب التحذيرات المتتالية من خطر الوجود التنظيمي لـ "**تنظيم الدولة الإسلامية**" (داعش) كان هناك من يحذر من أن فشل الدولة الباكستانية أكبر خطرًا، ذلك أن "**انسحاب الدولة الباكستانية من مهماتها الخدماتية والأمنية يراه خبراء هو الأخطر؛ فإرهاب قطع الغاز وقطع الكهرباء عن مدن بكاملها بسبب نقص الطاقة ربما أشد خطرًا من إرهاب تنظيم الدولة..... وإلا فإن الانهيار سيخلق بيئات مشجعة لنمو الجماعات "المتشددة"**".([35]) وكفاءة الدولة لا تقاس فقط بقدرتها على توفير الحد الأدنى – أو حتى الكافي – من متطلبات الحياة بل تقاس أيضًا بنوعية الحياة، وثمة اتجاه قوي في الدراسات الحديثة لتقييم قوة الدولة، أخذ سلامة النظام السياسي في الاعتبار، فغياب المقومات الرئيسة لدولة القانون واستئثار فئة بالسلطة يفتح الباب لاستخدام القوة وسيلة للتغيير، وهو أمر يرتبط – غالبًا – بوجود قبول مجتمعي للفكرة قبل أن تتحول إلى عمل منظم.

وفي حقيقة الأمر ليس للظاهرة – في أصلها – خصوصية تجعلها مرتبطةً – بنيويًا أو تاريخيًا – بدين بعينه أو بتشكيل حضاري معين، فقد رصد المفكر المعروف الدكتور عبد الوهاب المسيري في "**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**" أن الجماعات اليهودية في أوروبا تعرضت في ظل الدولة القومية الحديثة إلى عملية إقصاء وتهميش أدت إلى نتيجة مشابهة، وتحت عنوان: "**العجز اليهودي (بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة)**" يقول: "**العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة**" عبارة ظهرت مؤخرًا في الأدبيات الصهيونية وغيرها، وهي عبارة تحاول أن تفسر المسألة

([35]) ما هو مستقبل تنظيم الدولة في أفغانستان وباكستان؟ – مصدر سبق ذكره.

اليهودية على أنها تتلخص في افتقار اليهود إلى السيادة القومية وعدم مشاركتهم في صنع القرار. وهذا النموذج التفسيري صاغه مفكرون معظمهم من أصول إشكنازية شرق أوربية، وهم حين يتحدثون عن العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة، إنما يفكرون في تجربة أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا ابتداءً من العصور الوسطى حتى بداية القرن الحالي. وأعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب لم يشاركوا في صنع القرار، فقد كانوا منبتي الصلة بالجماهير وتعوزهم القوة العسكرية، وهذا ما جعلهم في حالة عجز، واعتماد كامل على الحاكم، الذي كانت ثقته بهم تتزايد لأنهم لا يشكلون أية خطورة عليه بسبب عجزهم عن الاستيلاء على السلطة، أو لافتقارهم إلى أساس من القوة يؤهلهم للمطالبة بنصيب فيها.([36]) وهذا الإحساس بالعجز – سواء كان حقيقيًا أو متوهمًا – يخلق بيئة خصبة لانخراط أعضاء الجماعة التي تتعرض للإقصاء والتهميش إلى انخراط أعضائها بمعدل كبير نسبيًا في الحركات المسلحة.

ومن هذه الزاوية، وعلى سبيل المثال، عقب بدء العملية العسكرية الأمريكية ضد نظام طالبان في أفغانستان (2002) كانت هناك شواهد على أن الوضع السياسي في أفغانستان مرشح لأن تشهد عنفًا سياسيًا يغذيه رافد جديد هو: "**تهميش الغالبية البشتونية**" وحرمانها من تقلد مناصب مهمة وحساسة، في الحكومة الأفغانية الانتقالية التي شكلت عقب التدخل الأميركي. وحذر

---

(36) موقع الدكتور عبد الوهاب المسيري – نص: موسوعة اليهودية واليهودية والصهيونية – الرابط:

http://www.elmessiri.com/encyclopedia/JEWISH/ENCYCLOPID/MG2/GZ1/BA2/MD22.HTM

مراقبون – أنذاك – من أن التهميش سيوفر أرضية خصبة للحركة وحليفتها "**القاعدة**" في التحرك. وساد على نطاق واسع، اعتقاد بين متابعي الشأن الأفغاني أن الخطأ الاستراتيجي الذي ارتكبته الإدارة الأمريكية بعد إسقاطها حركة "**طالبان**"، هو الاعتماد المفرط على الأقليات الأفغانية وتجاهل الغالبية البشتونية المعروفة بتعاضدها الداخلي، وهو ما يعكسه رفض قادة البشتون الأفغان تسليم، زعيم حركة "**طالبان**" الملا مُحمد عمر وقيادات الحركة الآخرين، أو حتى مجرد التعاون مع القوات الأميركية والدولية في ذلك. ودفع هذا التجاهل الأميركي الغالبية البشتونية إلى الارتماء في أحضان "**طالبان**" والاقتناع بوجهة نظرها في ضرورة مقاتلة القوات الأمريكية. وساهم قيامهم بتسريب معلومات إلى قادة "**طالبان**" و"**القاعدة**" عن تحرُّك القوات الأميركية ما سهل استهدافها وايقاع الكثير من الإصابات في صفوفها.([37])

وفي المقابل بدأت الولايات المتحدة الأمريكية في العراق – في خريف العام 2006 – تطبيق استراتيجية جديدة بهدف الحد من الاستياء المتزايد لدى قبائل سنية معينة في محافظة الأنبار. وشرعت قبائل ما عرف بـ "**الصحوة**" بقيادة رجل الأعمال الثري والزعيم القبلي عبد الستار أبو ريشة في التعاون مع الجيش الأمريكي ضد دولة العراق الإسلامية. وانتشرت حركة الصحوة إلى مناطق أخرى ووصل عدد مسلحيها إلى مائة ألف بحلول العام 2007.([38]) وقد نجحت "**الصحوات**" في القضاء على وجود "**تنظيم الدولة الإسلامية في**

([37]) **أفغانستان: حرمان الغالبية البشتونية يمهد لحرب عصابات – أحمد موفق زيدان – جريدة الحياة اللندنية – 8/ 4/ 2002 – رقم العدد: 14263 – ص 16.**

([38]) **ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – مصدر سبق ذكره – ص 278 – 279.**

العراق" بشكل شبه تام، قبل أن يخطط التنظيم لاستعادة بيئته الحاضنة. فحسب وثيقة صدرت عما يسمى: "**قسم الدراسات التاريخية والتوصيات الاستراتيجية في دولة العراق الإسلامية**" في يناير 2010 وتحمل عنوان: "**خطة استراتيجية لتعزيز الموقف السياسي لدولة العراق الإسلامية" (55 صفحة)، فإن تحول الحكومة العراقية إلى استهداف قوات "الصحوات**" يمثل فرصة سانحة. وإلى جانب أولويات عسكرية محددة وكذلك أولويات تنظيمية تتصل بالعلاقة مع تنظيمات مسلحة أخرى، كان الفصل الثالث من الوثيقة يتناول تصور التنظيم للعلاقة مع شيوخ العشائر بهدف جذبهم واستقطاب تأييدهم، وجذب قواعد اجتماعية مؤيدة لمحاولات استعادة "**الدولة**"، على أساس إقناع شيوخ العشائر من أجل إقامة "**الصحوات الجهادية**"، وعبر استقطاب أبناء العشائر للانخراط معهم تنظيميًا.([39])

وبالمقارنة بين المشهد عام 2006 وما بعده، والمشهد في العام 2014 مع دخول "**داعش**" الموصل، يمكن إدراك التحول في معطيات البيئة التي العراقية العشائرية التي بدأت "**حاضنة**" (مع أبي مصعب الزرقاوي)، ثم تحولت إلى "**طاردة**" (مع تأسيس الصحوات)، ثم عادت "**حاضنة**" مرة أخرى بسيطرة "**تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام**" (داعش) على مدينة الموصل ثاني أكبر مدن العراق. ومؤخرًا استضاف "**المركز الإقليمي للدراسات**" (5 فبراير 2015) بالقاهرة الباحث العراقي المقيم في الأردن منقذ داغر، وهو متخصص في

([39]) تنظيم القاعدة في العراق – هاني نسيرة – منشور في: موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي – إشراف: دكتور عبد الغني عماد – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الأولى – يناير 2013 – المجلد الثاني – 1479 – 1482.

استطلاعات الرأي، ونجح في القيام بدراسات استطلاعية في مدينة الموصل العراقية تكشف عن معطيات واقعية مهمة عن حالة من حالات العلاقة بين الإرهاب وبيئته. ومن النتائج المهمة التي كشفت عنها الاستطلاعات المشار إليها، فإن:

- **مسلحي داعش الذين دخلوا الموصل ما بين 2500 و3500 يشكلون نسبة لا تزيد عن 20 % من القوات التي استولت على المدينة، أي أن الباقي من مكونات عراقية أخرى (مسلحو العشائر – ضباط البعث – جيش النقشبندية – تنظيمات أخرى أصغر).**
- **عدة آلاف من العراقيين – معظمهم من ريف الموصل وليس من المدينة – انخرطوا في صفوف داعش. وبعض الحالات التي تطوعت في صفوف داعش كان مبررها الرئيس أن داعش تحارب أمريكا!!**

قبل دخول داعش مباشرة كان 91 % من العرب السنة يرون العراق تسير في الطريق الخاطيء، 91 % لا يثقون في الحكومة العراقية، و82 % منهم لا يثقون في الجيش العراقي، و85 % منهم لا يثقون في المحاكم. وكان 33 % منهم يريدون الهجرة، وكان 76 % منهم في حالة "**خوف من الآخر**". ويرسم الصحافي البريطاني باتريك كوكبيرن صورة جانب من التحولات في موقف المنطقة التي تشكل "**البيئة الحاضنة**" لـ "**داعش**" مبرزًا الأكثر الفاعل – بل ربما الحاسم – للتهميش السياسي للعرب السنة في ما استطاع التنظيم إحرازه مؤخرًا في العراق. فهي استفادت من "**التغييب السني**" في العراق، وكانت

الاحتجاجات التي بدأها السنة في ديسمبر 2012 سلمية في البداية، لكن فشل رئيس الوزراء نوري المالكي في احتواء غضب السنة، بالإضافة إلى مجزرة في مخيم للاحتجاج في إبريل 2013 (أسفر عن مقتل ما يزيد عن خمسين) حوَّل **"الاحتجاج السلمي"** إلى **"مقاومة مسلحة"**.([40]) ومن الواضح أن داعش تمكنت من **"الإمساك باللحظة"** عبر استغلال الحس المتنامي بالتغريب والاضطهاد بين صفوف السنة في العراق، وتفيد تقارير **"مجموعة الأزمات الدولية"** أن الاستخفاف وتشويع السمعة والقمع الذي مارسته الحكومة حول **"الحركة الشعبية"** شيئًا فشيئًا إلى **"صراع مسلح"**.([41])

ويؤكد كوكبيرن أن انتصار داعش في الموصل كان مفاجأة تامة – حتى بالنسبة لداعش نفسها – و**"يصعب التفكير في أي أمثلة في التاريخ حيث انهارت قوى أمنية تتألف من مليون عنصر ..... بسرعة هائلة أمام هجمات عدو قدرت قوته بستة آلاف عنصر"**. ويضيف: **"ما جعل هذا ممكنًا كان واقع أن المجموعات السكانية السنية بأكملها، عندما شعرت أن إمكانية وضع حد للظلم اللاحق كان في متناولها، أصبحت مستعدة لتقديم دعمها الضمني على الأقل"**.([42])

خلاصة:

([40]) داعش: عودة الجهاديين – باتريك كوكبيرن – ترجمة: ميشلين حبيب – دار الساقي – بيروت – الطبعة العربية – الطبعة الأولى – ص 49.

([41]) داعش: عودة الجهاديين – مصدر سبق ذكره – ص 78 – 79.

([42]) داعش: عودة الجهاديين – مصدر سبق ذكره – ص 71 – 72.

مع اتساع نطاق الظاهرة الإرهابية وتعاظم تهديداتها، لم يعد يكفي الحديث عن المسببات. والربط الآلي بين الظاهرة الإرهابية والفكر المتشدد قد يفسر بعض أنماطها أما "**التفسير التآمري**"، فاستنفد "**منفعته الحدية**" سريعًا. وبقي من تجربة عقود ماضية حقيقة أن الإرهاب ظاهرة مركبة تظم ظواهر غير متماثلة وتحتاج نظرة مركبة تأخذ في اعتبارها العديد من العوامل تمتد من الثقافة إلى الاقتصاد السياسي. والأمر نفسه ينطبق على "**التفسير الأمني**" بطبيعته الاختزالية. وهناك الآن ما يشبه القناعة بوجود صور مثالية مختلفة للتيار الإسلامي المسلح، تتجلى على صُعُد متنوعة في دول مختلفة. وهذا يفسح المجال أمام احتمال أن يكون للأنواع المختلفة لهذا النشاط أسباب أيضًا مختلفة، وأن كل صورة له مرتبطة بخصائص معينة لبلد معين. وبناءً على هذه التمايزات المستقاة من الواقع تتمايز العلاقة مع "**البيئة الحاضنة**".

ورغم أن البعض لم يزل يرفض المفهوم، فإن مزيدًا من الباحثين أصبح يرها أخطر من الإرهاب نفسه. والمفهوم لم يزل مطاطًا ولم يستقر بعد. وقد شكّل انتقال لادن لأفغانستان 1996، بداية "**العصر الذهبي للقاعدة**". وكان "**الملاذ الآمن**" أهم أسباب امتلاك "**القاعدة**" هذه القدرة الهائلة آنذاك. وقد لفتت التجربة – بشكل غير مسبوق – النظر لقضية البيئة الحاضنة للإرهاب، فظهرت أدبيات تستهدف تعريف الظاهرة على نحو أوضح وقراءة تجاربها السابقة باهتمام أكبر. على قاعدة أن تحديد الإرهاب "**ظاهرة سياسية**" وأن فهم جذوره السياسية شرط لهزيمته. ومدخل البنية النفسية – أو المكون النفسي/ العقلي للفرد الذي يمكن أن يكون فردًا في بيئة داعمة يكتسب اهتمامًا متزايدًا. بعد أن كان البحث في ما هو تنظيمي أو فقهي يحوز الوزن النسبي الأكبر. ولفترة كان هناك "**تفسير واحد**" للظاهرة الإرهابية، وكان من أوفر التفسيرات حظاً لفترة، ربط الإرهاب بالفقر والبطالة، وعجزت هذه المقولة عن تفسير انخراط شرائح من كوادر هذه التنظيمات. وبناءً على معطيات مسح تم في 14 دولة إسلامية، فإن "**فقر المدن**" بيئة حاضنة للإرهاب.

وفيما يتصل بالجماعات السلفية المختلفة فإنها تبحث عن "**المجتمع الإسلامي**" مستصحبة الروح المحافظة كتعبير مختصر عن "**الهوية**". أما العلاقة بين "**الهوية**" و"**العنف**" فموضوع تتزايد أهميته باضطراد ملحوظ في دراسات الاجتماع السياسي. ويربط الباحث فتحالي م. مغدم (جامعة جورج تاون) بين: "**الهوية**"، و"**الراديكالية**"، و"**العنف**". وفي عدة حالات كان "**رهاب الهوية**" سببًا في عنف فعلي أو محتمل، أو سببًا توفير بيئة حاضنة. ومنذ انهيار الدولة في الصومال يمثل افتقار الدولة للكفاءة – وصولاً إلى انهيارها – أحد أهم البيئات الحاضنة. وتعد العلاقة بين الدولة وبعض مكوناتها (القبلية) قضية برزت عقب "**هجمات 9/ 11**"، كتحدٍ كبير. فوجود قصور في قدرة الدولة على فرض سيادتها وقانونها على جزء من أراضيها بسبب طبيعة البنية السكانية لهذا الجزء يصبح محضنًا محتملاً للإرهاب. وفي التجربة الأفغانية/ الباكستانية كانت منطقة القبائل نموذجًا لذلك. وكفاءة الدولة لا تقاس فقط بقدرتها على توفير متطلبات الحياة بل تقاس أيضاً بنوعية الحياة، وضمن ذلك سلامة النظام السياسي، فغياب المقومات الرئيسة لدولة القانون واستئثار فئة بالسلطة يفتح الباب لاستخدام القوة وسيلة للتغيير، وهو يبدأ فكرة ذات قبول مجتمعي قبل أن تتحول لعمل منظم.

مصادر الدراسة:

- موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي – إشراف: دكتور عبد الغني عماد – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الأولى – يناير 2013
- الجهاد في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب – توماس هيغهامر – ترجمة: أمين الأيوبي – مراجعة: سعود السويدا – الشبكة العربية للأبحاث والنشر – بيروت – الطبعة الأولى – 2013.
- ما بعد بن لادن: القاعدة، الجيل التالي – عبد الباري عطوان – ترجمة: سعيد العظم – الطبعة العربية – دار الساقي – بيروت – الطبعة الأولى 2013.
- الوجوه المتعددة للإرهاب: وجهات نظر وقضايا مختلفة – تحرير: ديفيد كانتر – ترجمة وتقديم: جيهان الحكيم – المركز القومي للترجمة – مصر – العدد: 2233 – الطبعة الأولى 2014.
- الهوية والعنف: وهم القدر – أمارتيا سين – ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني – جداول للنشر والتوزيع – الكويت – الطبعة الأولى – فبراير 2012.
- Urban poverty and support for Islamist terror: Survey results of Muslims in fourteen countries – Micheal Mousseau – Journal of Peace Research – 48(1).
- "الداعشية" ... إعادة إنتاج نمط ما قبل المدينة – ممدوح الشيخ – موقع مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة. الرابط:

http://www.futurecenter.ae/analys.php?analys=152

- موقع الدكتور عبد الوهاب المسيري – نص: موسوعة اليهودية واليهودية والصهيونية – الرابط:

http://www.elmessiri.com/encyclopedia/JEWISH/ENCYCLOPID/MG2/GZ1/BA2/MD22.HTM

- أفغانستان: حرمان الغالبية البشتونية يمهد لحرب عصابات – احمد موفق زيدان – جريدة الحياة اللندنية – 8/ 4/ 2002 – رقم العدد: 14263 – ص 16.
- القبائل: الصندوق الأسود لباكستان – دكتور أحمد موفق زيدان – موقع مركز الجزيرة للدراسات – 19/ 3/ 2014. الرابط:

http://studies.aljazeera.net/reports/2014/03/201431955156673745.htm

- البيئة الحاضنة للإرهاب – دكتور عمرو الشوبكي – مقال – جريدة المصري اليوم – 2/ 2/ 2015.
- في نقد مقولة "محاضن الإرهاب" – منير شفيق – مقال – الحياة – 21/ 12/ 2003 – رقم العدد: 14880 – 14 – تيارات.
- في تجفيف حواضن الإرهاب – دكتور حازم قشوع – مقال = جريدة الرأي الأردنية – 24/ 12/ 2014 – بتصرف واختصار.
- الحواضن الاجتماعية للإرهاب – الدكتور عبد الحميد الأنصاري – مقال – جريدة الجريدة الكويتية – 1/ 9/ 2014 – بتصرف واختصار.
- الحاضنة الاجتماعية للجماعة السلفية – دكتور باقر النجار – مقال – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 28/ 8/ 2014 – رقم العدد: 13057 – باختصار وتصرف.
- ما هو مستقبل تنظيم الدولة في أفغانستان وباكستان؟ – دكتور احمد موفق زيدان – موقع مركز الجزيرة للدراسات – 28 / 1/ 2015. الرابط:

http://studies.aljazeera.net/reports/2015/01/20151281014263449
94.htm

الفتاوى السياسية:

أجوبة بلا أسئلة... واستدلالات بلا أدلة![43]

تملك الفتوى تأثيرًا كبيرًا في عقل المجتمع ووجدانه، ومن ثم سلوكه، وبخاصة في مجتمع يغلب على شرائح واسعة منه الانقياد لكل ما يعتقد أنه مؤسس على "**مقدس**"، وكذلك كل ما يتصور أنه تعبير عن "**الإجماع**". وفي حقيقة الأمر فإن الدور الذي تقوم به الفتوى في المجتمع مسئولية مشتركة بين المفتي والمستفتي، ولا شك في أن كثرة السؤال – فضلاً عن أنها ظاهرة حذَّر منها الرسول ﷺ – إلا أنها مؤشر على حالة عقلية عامة ينبغي التوقف عندها بالدراسة والتحليل، ذلك أنها من أسباب لجوء أطراف معينة إلى استخدام سلاح الفتوى لعلمها بحجم الظاهرة الكبير. فحسب إحصاء رسمي يمثل مؤشرًا عمليًا، أصدرت دار الإفتاء المصرية 471808 فتاوى خلال عام 2012، وبلغت الفتاوى الشفهية منها أكثر من 116115، والهاتفية حوالي 203938، إضافة الى

(43) نشرت في دورية: "أحوال مصر" – المركز الإقليمي للدراسات – مصر – نشرت على الموقع الإليكتروني للمركز في 8/ 8/ 2014.

150213 فتوى عن طريق الإنترنت، في حين بلغت الفتاوى الموثقة حوالي 1542.([44])

ومن السلبيات المرتبطة بدور الفتوى – الفعلي – غياب بعض القواعد الرئيسة الحاكمة لنطاق الإفتاء ومعنى الفتوى والشروط الوجب توافرها في المفتي. ومن هذه القواعد ولعلها من أهمها، قاعدة ذهبية في علم أصول الفقه نصها أن **"الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره"**، والتصور هنا يقصد به ما يسمى في مناهج البحث **"التعريف الجامع المانع"**، إذا لا قيمة لأحكام تصدر على **"الشيء"** إلا بعد تصوره!

في معنى الفتوى وحدودها:

أحد الآفات الخطيرة في فوضى الإفتاء التي يشهدها العالم الإسلامي – بدرجات متفاوتة طبعًا – إصدار أحكام بحق أشياء لم تدخل دائرة التصور بشكل صحيح، وفي الوقت نفسه تعرض معنى الإفتاء نفسه إلى فساد بيّن تظهره الممارسات المتكررة التي أدخلت قاموس حياتنا تعبيرات مثل: **"فوضى الفتاوى"** و**"الفتاوى المسيسة"** ....وغيرها.

([44]) دار الإفتاء تُصدر 471 ألف فتوى خلال 2012 – المصري اليوم – 29/ 12/ 2012

– الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/268111

وفي قصة نبي الله يوسف ما يشير إلى أول وجوه الخلل في تصور معنى الإفتاء، على نحوٍ يبدو جليًا في الفتاوى المثيرة للجدل خلال السنوات القليلة الماضية. فالفتوى لا يكون لها نصيب من اسمها إلا بأن يكون هناك "**سائل**"، قال تعالى على لسان رفاق نبي الله في محبسه: "**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**"([45]). واتساقًا مع هذه الحقيقة فإن أحد أقرب تعريفات الفتوى إلى الدقة هي أنها: "**تبيين الحكم الشرعي لسائل**". وهذه الملاحظة التي قد تبدو لكثيرين شكلية هي في الحقيقة قيد على ظاهرتين أسهمتا إلى حد بعيد في المشهد العبثي الذي تشهده ساحة الإفتاء، فمُصدِر الفتوى لا يجوز له أن ينشئها إنشاءً لحاجة يقدرها هو، إلا بشروط منها، أن يكون موضوع الفتوى "**مما عمت به البلوى**"، وأهمية هذا القيد أن يغلق الباب أمام محاولة البعض "**اقتياد**" الجماهير بسيف القداسة إلى اختيارات سياسية أو اجتماعية أو .... لا تدخل أصلاً ضمن نطاق "**التصور الصحيح**" لمعنى الفتوى. والفتوى فضلاً عن ذلك – صح اجتهاد صاحبها أو لم يصح – جواب عن سؤال وليست "**حكمًا شرعيًا**"، وعليه فلا يجوز التعامل معها بمنطق التعميم الكاسح الذي تشهده مجتمعاتنا، وإبداء الرأي فيما هو عام أمر أكثر تعقيدًا من أن يضطلع به فرد، وبخاصة في ظل التعقد الواضح في الظواهر التي يتعرض لها المفتون.

---

(45) سورة يوسف – الآية 46.

وضرورة وجود السائل تجعل الفتوى ترجمة لحاجة حقيقية في مجتمع "**السائلين**"، وقسم لا يستهان به من الفتاوى المثيرة للجدل مؤخرًا هي فتاوى جاءت بذرتها من "**خيال المفتي**" لا من "**حاجة المستفتي**". وهي بالتالي "**مقولة**" وليست فتوى، وغالبًا تكون مسعى منظمًا لتحديد جدول أولويات المجتمع وليس الاستجابة لاحتياجاته، وهذا بالضد تمامًا مما ينبغي أن يكون. ومن السمات الملفتة **أيضًا** في حالة فوضى الفتاوى – وفي القلب منها الفتاوى السياسية – أنها تناقض تناقضًا تامًا مع التاريخ الطويل لتقاليد الإفتاء في التاريخ الإسلامي حيث كان الصحابة والتابعون وكبار علماء الأمة يتمهلون في الإفتاء ويضيقون دائرته ما استطاعوا، وتاريخ الفقه مليء بالوقائع التي تجسد هذه الحقيقة التي انقلبت في العصر الحالي إلى الضد تمامًا. وإلى جانب الوقائع – أو ربما استقاءً من تلك الوقائع – صاغ الفقهاء المقولة الذائعة الصيت: "**لا أدري ثلث العلم**".

الإشكالية المزمنة:

وتحوُّل الإفتاء إلى نوع من "**التبشير السياسي**" مرده إلى الإشكالية المزمنة في ثقافتنا المعاصرة "**إشكالية علاقة الديني بالسياسي**"، وهي ليست إشكالية محسومة كما يتخيل كثير من الإسلاميين، ولا متوهمة كما يتخيل كثير من خصوم الإسلاميين، بل واحدة من أكثر مشكلات التاريخ الإنساني تعقيدًا،

وما لم ينضج حل خلاق للوصول إلى نقطة توازن بشأنها، فستظل الفتوى سلاحًا سياسيًا. ومن العوامل التي تجعل مهمة ضبط هذه العلاقة أكثر صعوبة أن أنصار "**الوصل بين الدين والسياسة بإطلاق**" وأنصار "**الفصل بين الدين والسياسة بإطلاق**" هما الأعلى صوتًا وهما فعليًا يشكلان "**فسطاطي**" قصف أيديولوجي متبادل في صراع صفري لا يبدو – حتى الآن على الأقل – أنه أدى إلى بلورة "**نقطة توازن**" بين نقيضين، يتم تصويرهما بإلحاح بوصفهما كذلك. وإذا كان لكاتب هذه الورقة من إسهام متواضع في هذا الجدل فإنه يرى البدء من قاعدة إجرائية يرجح أن تسهم في الكشف عن حدود اللقاء والفراق بين الظاهرتين، والقاعدة المقترحة أن من المقبول "**تأسيس السياسة على الدين**"، وغني عن البيان هنا أن التجربة الإنجلو سكسونية في العلاقة بين الدين والسياسة (وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية) قامت على "**الوصل المشروط**" – في افتراق رئيس عن تجربة "**الفصل بإطلاق**" التي تأسست في أوروبا على ميراث الثور الفرنسية – أما المحظور فهو "**إدارة السياسة بالدين**". ذلك أن اعتماد سلاح الفتاوى لإدارة الشأن السياسي هو "**الثيوقراطية الإسلامية**"، فإصدار ما يفترض أنه "**فتاوى**" لتوجيه السلوك السياسي انحراف خطير بالدين والفتوى عن المعنى الدقيق والدور الصحيح لكلٍ منهما.

ومن نماذج المناقشات الجيدة لظلال هذه الإشكالية على الفتاوى المتصلة بها ما كتبه الشيخ جمال قطب تحت عنوان: **"رأي" لا فتوى"**([46])، يقول قطب: **"لا يختلف عاقلان على رفض أى إجراء غير دستورى، والرفض الشديد للحكم العسكرى، والتبرى من الاستهتار الدموى، وعلاج أوضاع "متوقعة الخطر" بأدوية "مؤكدة الخطر". كذلك.. لا خلاف على مساوئ الحكم المعزول سواء بما أهمله من ضرورات، وما تناساه من أولويات، وما ارتكبه من سقطات، وما أصر عليه بالعناد والتعقيدات. فتصرفات الحكم الحالى سلسلة أزمات يستحيل التمادى فيها، كما أن تصرفات الحكم المعزول سلسلة أضرار صعب السكوت عليها. فلماذا يكابر من يفتى بأن أحداث 30 يونيو وما بعدها تعتبر خروجًا وخيانة؟! وأنها مسئولية دينية تدور بين "الحرام والكفر"؟!**

ويضيف قطب: **"فلو توقف صاحب "الفتوى" أمام "تعاقد الرياسة"، لوجد طرفى العقد: "الشعب والرئيس" يتعاقدان على غير بينة، حيث لا دستور تستمد منه الصلاحيات والالتزامات... ولو بحث عن "الشروط الشرعية للعقود" كشروط الوجوب، والصحة، واللزوم والنفاذ، والخيار، والجزاء، سواء ذكرت فى العقد أم لم تذكر لأدرك أن الرئيس لم يف**

([46]) ""رأي" لا فتوى" – مقال – الشيخ جمال قطب – جريدة الشروق المصرية – 20/ 9/ 2013. الرابط:

http://www.shorouknews.com/columns/print.aspx?cdate=20092013&id=9a3da092-4b34-44c7-9c47-d312b6bd3c30

بالتزاماته سواء لعجز أو لتعجيز، وفى ضوء ذلك، يصبح التعاقد معلقًا غير صالح للنفاذ". ويكمل قطب: "أما الإفتاء المضاد الذى استباح الدماء، بتلك الحجة الواهية حجة "مشروعية التغلب"، والتحريف المتعمد لمعنى الحديث النبوى: (إذا كنتم جميعاً..)، فأين هذا الجميع ؟! فلا الذين كانوا مع الرئيس السابق جميع، ولا الذين خرجوا مع التغيير جميع. ..... ويبدو أن الإمام ابن تيمية قد رأى فتاوى متضادة محيرة كهذين النموذجين فقال قولته المشهورة "عمائمهم أبراج وأكمامهم أخراج والعلم عند الله تعالى". وهو يختم مقاله قائلاً: "فهذا رأى فى المناخ السياسى لا ينتسب لمصطلحات الإيمان والكفر ولا الحلال والحرام، بل المناخ كله فى إطار الصواب والخطأ".([47])

من فتاوى الفوضى:

شهدت السنوات القليلة الماضية معارك سياسية وإعلامية – وأحيانًا قضائية – فتاوى تتصل بالشأن العام كانت السياسة في قلبها. وقد بلغت من الكثرة والتنوع حد أنها قد تصعب معالجتها في هذا السياق، لكن بعضها له دلالات تجعل التوقف معها لازمًا. ومن هذه الفتاوى فتوى "الهيئة الشرعية

([47]) ""راي" لا فتوى" – مقال – الشيخ جمال قطب – جريدة الشروق المصرية – 20/ 9/ 2013. الرابط:

http://www.shorouknews.com/columns/print.aspx?cdate=20092013&id=9a3da092-4b34-44c7-9c47-d312b6bd3c30

للحقوق والإصلاح" بعدم جواز تهنئة المسيحيين بأعياد الميلاد، وأصدرت الهيئة بيانًا قالت فيه إن "**الأصل في الأعياد الدينية أنها من خصوصيات كل ملّةٍ ونحلةٍ،.... فلا تحل المشاركة، ولا التهنئة في هذه المناسبات الدينية.....باتفاق**".([48]) وأول ما يلفت النظر هنا مناط التحريم وهو "**المخالفة**" مفهوم مرتبط بـ "**الهوية**" الذي هو تاريخيًا مفهوم حديث نشأ مع فكرة الدولة/ الأمة وإدخاله ضمن فضاء ما هو "**معتبر شرعًا**" كمبرر للتحريم أغفل الكثير من الاختيارات المضمرة فيه، وهو – على الأرجح – تعصب بحث عن مبرر وصيغ في خطاب فقهي. وقد كشفت فتوى تالية لمفتي جماعة الإخوان الدكتور عبد الرحم البر هذا التناقض عندما أفتى بحرمة تهنئة الأقباط بعيد القيامة قائلاً إنه "**غير جائز شرعًا لأن القيامة تتعارض مع العقيدة الإسلامية التي لا تعترف بصلب المسيح وقيامته من الموت**"،([49]) لو صح "**مناط التحريم**" في الفتوى الأولى لكان في الأمر تناقض منهجي واضح بين الفتويين.

([48]) "الشرعية للحقوق والإصلاح" تصدر فتوى بعدم جواز تهنئة الأقباط بأعياد الميلاد – جريدة المصري اليوم – 26/ 12/ 2012 –كتب: أسامة المهدي. الرابط:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/267631

([49]) "الرئاسة" تؤكد مشاركتها في قداس القيامة: الرئيس لا ينتظر فتوى – المصري اليوم – 30 /4 /2013 –كتب: صفاء سرور. الرابط:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/310610

وقد تحول الإفتاء إلى سلاح للتكفير والتحريض على القتل والعنف أطراف عديدة، فمثلاً، أعلن ما يسمى **"مجلس علماء الشريعة"**، خروج جماعة الإخوان المسلمين عن "**الملة والطريقة الحنفية**"، معتبرا أنها أصبحت جماعة "**مرتدة**" عن الإسلام. وقال أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر، أحمد كريمة، في بيان له، إنه "**يجب أن يؤخذ من أموال جماعة الإخوان وأشياعهم، ما يكفل بإصلاح المتلفات التي أتلفوها**". واستند إلى حديث نبوي جاء فيه: "**من حمل علينا السلاح فليس منا**"، مشيرا إلى أن مقتضى دلالة الحديث أنه "**خرج عن الملة الإسلامية، وأصبح فقط ليس من الخوارج، بل من المرتدين**".([50]) وفي المقابل ألقى الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي قبلة يوم الرابع عشر من أغسطس 2013 من على شاشة "**الجزيرة مباشر مصر**" يشجع فيها المصريين على "**الخروج إلى الشوارع**" ومواجهة الجيش. واصفًا ذلك بأنه "**فرض عين**" على كل مصري مسلم قادر. هذا فضلاً عن استخدامه وصف "**الخوارج**" بحق الخصوم.

أيديولوجيا "الإنسان الكامل":

([50]) "علماء الشريعة": الإخوان جماعة مرتدة.. ويجب أن يؤخذ من أموالهم لإصلاح التلفيات – جريدة الشروق المصرية – 17/ 8/ 2013. الرابط:
http://www.shorouknews.com/news/print.aspx?cdate=17082013&id=185a9cfd-af77-4013-9225-563583181390

ومن القضايا المركزية في ما يمكن اعتباره منظومة "**إدارة السياسة بالدين**" التصور الذي ينطلق منه أنصار هذه المنظومة للإنسان، فالقرآن الكريم يتحدث بوضوح لا لبس فيه عن إنسان "**مركب**" فيه قوة وضعف وفيه فجور وتقوى، فالنفس الإنسانية كما يقول رب العزة: "**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**" هذا التصور القرآني للإنسان الذي تؤكده أيات وأحاديث كثيرة حل محله عند كثير من الإسلاميين مفهوم للإنسان يمكن وصفه بـ "**الإنسان الكامل**"، وهو تعبير لها معناه في تاريخ التصوف، لكنه هنا نوع من الفصل اللاشعوري بين المتدينين وغير المتدينين، وتاليًا التعامل مع المتدينين انطلاقًا من مفهوم "**الكمال**" المشار إليه. وبناء على هذا التصور المضمر "**يوجب**" البعض على غير المتدينين – مع التجاوز الشديد في هذه التفرقة – أن يكونوا على درجة كمال المتدينين أو يكونون موضع إدانة قد تصل عند البعض إلى الاستباحة والتكفير. ورغم أن أقوال أي متهم في تحقيق رسمي تظل مصدرًا للحقيقة القابلة للبناء عليها منهجيًا وفقًا لشروط، إلا أن النموذج الذي ستناوله هنا سيكون "**عينة افتراضية**" كما سنتجاهل كل التفاصيل التي يمكن أن تشير إلى أشخاص، وبخاصة أن المفهوم الوارد في الفتوى له نظائره. ففي تحقيقات قضية كشف متهمون أثناء التحقيق معهم في اتهامهم بإطلاق النار على مواطنين أهالي أنهم حملوا السلاح بناء على فتوى صادرة من الداعية محمد حسان بضرورة نصرة إخوانهم من مؤيدي الرئيس المعزول محمد مرسي، معتبرين أن "**كل الجالسين في بيوتهم يجب قتالهم باعتبارهم كفرة لم ينصروا الدين والشريعة الإسلامية**". وقالوا: "**نحن كنا نجاهد القتلة،**

في سبيل الله، وخرجنا .... عقب فتوى الشيخ محمد حسان بمساندة إخواننا".([51])

فتاوى الصراع الاجتماعي:

من الفتاوى السياسية التي أثارت جدلاً مؤخرًا فتوى تعتبر نموذجًا لـ "الصراع الاجتماعي" بسلاح الفتاوى فتوى بتطليق الزوجة الإخوانية باعتبارها "قنبلة موقوتة"([52])، وقد ردت دار الإفتاء المصرية بأن مثل هذه الفتاوى "تثير البلبلة والجدل والفرقة في المجتمع المصرى". و"ما صدر من قول بتطليق الرجل زوجته لانتمائها لجماعة أو حزب سياسي هي رأي شخصي، وليس بفتوى شرعية، قد شابه نوع من المزايدة بالمتغيرات السياسية، وليس أسباب الطلاق الواردة في كتب الشريعة، خاصة مع التحذير الشديد من التطليق، بغير موجب، حيث قال النبي (إن أبغض الحلال عند الله الطلاق)".([53]) مظهر شاهين رد على منتقديه بمنطق في التحريم يستحق

([51]) المتهمون بإطلاق النار ببولاق: نستند إلى فتوى "حسان".. ونسعى لقتل "السيسي" – جريدة المصري اليوم – 19/ 8/ 2013 – كتب: محمد القماش. الرابط:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/251383

([52]) حول "الإفتاء": فتوى مظهر شاهين بتطليق "الزوجة الإخوانية" مزايدة سياسية – جريدة المصري اليوم – 2/ 2/ 2014 – كتب: أحمد البحيري. الرابط:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/387068

([53]) حول "الإفتاء": فتوى مظهر شاهين بتطليق "الزوجة الإخوانية" مزايدة سياسية – جريدة المصري اليوم – 2/ 2/ 2014 – كتب: أحمد البحيري. الرابط:

التحقق من حيث "مناط التحريم" قائلاً: "الزوجة الإخوانية ذنب يجب التخلص منه بالتطليق، ومن الممكن أن نكتشف وجود خلايا نائمة في مؤسسة ما، أو زميل يتضح لنا أنه كذلك، لكنه من غير المعقول أن تكتشف أن زوجتك التي تنام بجوارك هي تابعة للجماعة الإرهابية وأنت لا تعلم، فمن الأفضل أن أضحي بالزوجة الإخوانية، ولكن ليس من المقبول أن نضحي بالوطن".([54]) ومن ردود الفعل المهمة على هذه الفتوى موقف "الدعوة السلفية" حيث قال الشيخ على حاتم، عضو مجلس إدارة الدعوة السلفية، إن هذه الفتوى: "الهدف منها تفكيك المجتمع، وأنها لا تمت للدين أو الشريعة بأية صلة، مطالبًا صاحب الفتوى بمراجعة نفسه والعودة إلى الله عز وجل". و"الدين واضح ولا يحتاج إلى تأويل حتى مع من يخالفهم في الرأي".([55])

خاتمة:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/387068

([54]) حول "الإفتاء": فتوى مظهر شاهين بتطليق "الزوجة الإخوانية" مزايدة سياسية – جريدة المصري اليوم – 2/ 2/ 2014 – كتب: أحمد البحيري. الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/387068

([55]) الدعوة السلفية: "فتوى تطليق الإخوانية" الهدف منها تفكيك المجتمع – جريدة المصري اليوم – 2/ 2/ 2014 – كتب: بسام رمضان. الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/387362

وتبقى فتاوى كثيرة مسيسة بعضها مرآة لرجة البراجماتية لدى بعض الحركات الإسلامية وأخرى تستهدف "**احتكار المشروع الإسلامي**"، وثالثة تعيد إنتاج خطاب التكفير والاستحلال الذي تفاءل كثيرون بأنه صفحة طويت من تاريخ الحركة الإسلامية مرتين، حيث شكلت "**مبادرة وقف العنف**" وما تلاها من مراجعات لحظة تصحيح مسار كان المأمول ألا يعود بعدها التغيير بالعنف – خطابًا وسلوكًا – ضمن خيارات الحركة الإسلامية. وفي الثانية جاء "**الربيع العربي**" بثوراته السلمية ليعزز هذا التفاؤل بأن العنف أصبح جزءًا من ماضي الحركة الإسلامية. وتبقى أسباب المشكلة أعمق وأقدم من شجارات ما بعد الخامس والعشرين من يناير.

"الأمة" بين إحياء واكتشاف وبناء؟([56])

تشكل الثورات دائمًا لحظة انقطاع بقدرٍ ما، وبالتالي لحظة إعادة تأسيس. وليست إعادة التأسيس دائمًا طريقًا إلى هدم القائم، فقد تكون العلاقات بين الأشياء هي ما يبني ما بعد الانقطاع وليس التخلص منها. ومن الحقائق التي تؤكدها صراعات الرؤى التي شهدها العالم خلال العصر الحديث أن النسبة الأكبر من "**المفاهيم المؤسسة**"، (وبالتالي المَنظِّمة) للاجتماع الإنساني، هي محل خلاف يبدأ من التعريف ويمتد إلى الممارسة، ونعني بذلك مفاهيم مثل: الثقافة، النظام، الدولة، الشرعية، .... وطبعًا "**الأمة**". ومن المحاولات الشائع استدعاؤها لبناء حدود – تبدو واضحة – لمفهوم الأمة التفرقة عند البعض بين مفهومي: "**الأمة**" و"**الشعب**"، حيث المفهوم الأول يشير إلى حقيقة ثقافية في المقام الأول، وتشير إلى جماعة تربطها مشتركات عامة واضحة، بينما المفهوم الثاني يشير إلى جماعة سياسية في المقام الأول تربطها مصالح هي أكثر وضوحًا من المشتركات العامة. وعلى امتداد التاريخ الحديث حظي كل من: اللغة والعرق

([56]) نشرت بمجلة المجلة اللندنية.

بالاهتمام الأكبر بين كل المشتركات الأخرى التي يمكن أن يبنى عليها "**مفهوم الأمة**".

بين المعنى والمفهوم:

وكما هو شأن معظم المفاهيم المؤسِّسة لا يشكل المعنى اللغوي للمفهوم إلا جانبًا واحدًا من مبناه، حيث البحث اللغوي التقليدي رافد واحد للمفهوم، وفي مثل هذه الحالة غالبًا ما يغلب اللفظ "**المعنى الاصطلاحي**" الذي ينشأ وينمو وتتحدد حدوده وملامحه خارج أسوار معاجم اللغة!

على أن تاريخ اللفظ – أحيانًا – (وبخاصة في حالة مفهوم الأمة) يشكل زاوية نظر لا يمكن تجاهلها ولا طي صفحتها حتى لو توهم البعض ذلك، وبعض التجارب التاريخية التي تتخذ معيارًا تغري بتضخم هذا الوهم. وفي الحالة المصرية فإن حقيقة مثل الاستخدام القرآني لهذا اللفظ أحد أهم روافد "**المعنى**"، وغني عن البيان هنا أن اللفظ ورد في القرآن الكريم أكثر من أربعين مرة بمعانٍ مختلفة، وأنه في تاريخ الثقافة الإسلامية الطويل خضع لنوع من "**إعادة التعريف**" في كتابات ذات مناحٍ متباينة: دعوية، تاريخية، وسياسية. ومما يصعب تجاهله أيضًا، في الحالة نفسها، أن المفهوم ولد مرة أخرى في حلة جديدة على يد "**نخبة الأفندية**" التي ولدت في مصر في عهد خلفاء محمد علي ضمن مشروع "**الدولة الحديثة**" التي ما تزال في نظر كثيرين شكل التنظيم السياسي الذي قضى على "**مفهوم الأمة الإسلامية**"، حتى قبل أن تسقط الخلافة. ومن ناحية أخرى لعب "**خطاب الحد الأقصى**" عند بعض من نقلوا المفهوم الأوروبي

ارتكبوا خطيئة توهم أن "**الدولة/ الأمة**" التي يتم بناؤها ستكون نفيًا لكل ما سبقها على طريقة "**العام رقم صفر**" في تجربة الثورة الفرنسية!

ولو تابع هؤلاء ما شهدته فرنسا نفسها في الذكرى المائتين للثورة الفرنسية، وهي مسقط رأس الدولة/ الأمة في التقليد الغربي، لاختلف موقفهم وخطابهم. فقد شهد الاحتفال صدور أدبيات عديدة تنتقد بحد دور الدولة التي أنشأتها الثورة الفرنسية وصولاً إلى اتهامها بإبادة ما يقارب ربع المليون من معارضيها في منطقة فاندي شمال البلاد، لتحقق التناغم الذي كانت شروطه معدة مسبقًا، ولأدركوا أن ما يبشر به بعضهم أصبح موضع إنكار واستنكار في مسقط رأسه!

ومن ثمار هذا التباين في الفهم – وبخاصة عند المقارنة بين خطاب الحد الأقصى في المعسكرين – بعض ما تشهده مصر من تدافعات كادت تصل إلى صراعات تهدد المستقبل. وقد مرت مصر بفترة تمتد من العام **1805** إلى العام **1952** تتحرك شيئًا فشيئًا نحو مفهوم جديد لـ "**الأمة**"، إلى الإعلان الرسمي القانوني عن ميلاد "**الجمهورية**" كثمرة قانونية لتغيرات اجتماعية وثقافية واقتصادية جرت وقائعها في الحقبة المشار إليها، وهي فترة أرجح أنها "**فترة انتقالية**"، طويلة بمعايير السياسة، لكنها قصيرة جدًا في عمر الأمم!

الإحياء لا البناء:

كانت هذه العملية في الحقيقة عملية "**بناء**" للأمة الجديدة وفق شروط مسبقة انحاز إليها مؤسس الدولة الحديثة "**محمد علي باشا**" وخلفاؤه. وقد كانت

هذه الشروط المسبقة مستقاة في المقام الأول من تجربة الاجتماع السياسي الأوروبية خلال بناء الأوروبيين نموذج "**الدولة/ الأمة**" تأسيسًا على التحول المفصلي الذي دشنه الثورة الفرنسية. وخلال حكم هذه الدولة شكلت الثقافة الفرنسية المعين الذي نهلت منه النخبة الجديدة حتى التخمة، وكانت العلاقات الرسمية الوثيقة مع الدولة الفرنسية الوجه الآخر لهذه العملية، إذ لعبت العلاقات معها حجر الزاوية في بناء الدولة حتى الاحتلال البريطاني. وهذه العلاقة بالتالي لا يجوز اختصارها في نقل التشريع الفرنسي، ولا يليق تقزيمها لتصبح مجرد ملابسات تاريخية ليس وراءها اختيار ولا قرار!

وفي النموذج الفرنسي المشار إليه كان "**البناء**" يستهدف في المقام الأول تحقيق الاندماج بين المكونات الثقافية بحيث تكون الثمرة بناء كيانٍ سياسي جديد يتمايز عن الكيانات والجماعات المكوِّنة له. لكن الأهم هنا أن الدولة هي مَنْ يعمل على توليد الشعور لدى أعضائها بكونها: "**مشتركٌ عام**" يقتضي الحفاظ على استمراريتهِ بغية دوام المجتمع. وهنا أصبحت العلاقة بين الدولة والمجتمع معكوسة، وتلك أحد أهم القضايا التي انتبه إليها بعض من ساهموا في ثورات الربيع العربي وحاولوا الدفع باتجاه تقوية المجتمع (وأيضًا الفرد في مواجهة الدولة). ومن ناحية الممارسة التاريخية الفعلية تواكب مع هذا التحول في مصر تحولات مماثلة في العالم العربي جعلت مفهوم الأمة يتحول ليصبح مفهومًا متمحورًا حول العروبة. وقد غلب على هذه التحولات التمركز حول اللغة أو الثقافة، وفي حالة استثنائية كانت عرقية بشكل أحمق كتجربة صدام حسين. لكن الأهم هنا أن الشيوع الواسع لمفهوم الأمة العربية منح مصر مكانة خاصة ومكّنها من لعب دور ربما لم ينافسها فيه شعب عربي آخر.

لكن مشروع بناء "**الأمة الجديدة**" كان في مواجهة شبه دائمة تفاوتت حدتها، مع مفهوم آخر هو مفهوم "**إحياء الأمة**" الذي تبناه الخطاب الإسلامي طوال القرنين الماضيين – تقريبًا – دون الانتباه إلى حقائق شديدة الأهمية. أولها أن تأسيس هذه الأمة المراد إحياؤها تم في شروط تاريخية وجغرافية مغايرة تمامًا، وثانيها: أن "**وثيقة المدينة**" التي كانت شهادة ميلاد هذه الأمة قامت على التراضي، لا على الإملاء ولا القسر، وثالثها: أن هذه "**الوثيقة المؤسِّسة**" استندت إلى حقائق موضوعية، لا إلى الاكتفاء بقناعة طرف من أطراف التعاقد بأن مصدر المفهوم مقدس!

وفي هذه القناعة ما يستحق المراجعة العميقة!

وبالإضافة إلى حقيقة أن هذه الوثيقة تعاقد مدني طوعي وليس فعلاً مقدسًا، فإن إغفال حقيقة أن هذا التعاقد لم يتم تجديده بأية صيغة منذ سقوط الخلافة العثمانية، والقفز على حقيقة أن الاجتماع السياسي اختلفت أسسه جذريًا بعد هذا المنعطف أحد أوجه الخلل الكبيرة في خطاب: "**إحياء الأمة**".

الإحياء والاكتشاف:

ومن الأمور الملفتة في واقع ما بعد الثورة، أن مسارًا فرعيًا جديدًا طرأ بين المسارين الكبيرين يسعى أصحابه لطرح رؤية ثالثة للمفهوم يقوم على الاكتشاف لا البناء والإحياء. وأعني بذلك ظاهرة ليبرالية جديدة كشفت عنها السنوات الأخيرة وما زال حجمها أصغر من أن يحول الصراع إلى صراع ثلاثي الأطراف. واللاعب الجديد الذي لم يتبلور خطابه بعد يرفض منطقي "البناء"

و"**الإحياء**" ويدعو إلى نوع من الاكتشاف نذهب فيه إلى التأسيس دون أجوبة جاهزة لا دينية ولا تنويرية، ويلخص هذا الموقف رفضًا لفكرة الأمة في مجاليها الأوسع (الإسلامي) والواسع (العربي) ويرون ضرورة بناء الدولة الأمة انطلاقًا من ضدين: المصرية وهي دائرة ضيقة قياسًا بسابقتيها، والعالم وهو دائرة أوسع منهما!

واكتشاف الأمة يبدو أقرب – نوعًا ما – إلى الإجابة الإنجلوسكسونية على سؤال: ما الأمة؟ ففي هذه الإجابة تتراجع مرتكزات مثل: الدين والعرق واللغة، لحساب منظومة قيم ذات أفق إنساني تؤسس لتعددية شاملة. وفيما يغترف دعاة الإحياء من نهر التراث الديني الفياض ويغترف دعاة البناء من بحر التراث الفكري الغربي الكلاسيكي (الفرنسي في المقام الأول) يجتهد دعاة الاكتشاف لتحويل القليل من الأدبيات الحديثة لثقافة حقوق الإنسان ومواثيقها ومشاريع العولمة التي ما زالت هي نفسها في طور التشكل لبناء إطار فضفاض لا تشكل الدائرتان الإسلامية والعربية إلا تعبيرًا عن حنين عام مكانه عالم الوجدان لا عالم السياسة.

غواية التنظير في الفراغ:

أحد الآفات الكبيرة للسجال (القائم على التنافي) بين المفاهيم المشار إليها للأمة أنها مغرقة في التنظير في الفراغ، فلا مفهوم "**الأمة الإسلامية**" تسانده الوقائع القانونية والسياسية والثقافية التي تجعله خيارًا للمستقبل المنظور، ولا "**الأمة العربية**" كمفهوم يتجاوز حدود الدولة ويحمل بذور العدوان على سيادتها (بشكل مضمر أو ظاهر) يملك أسباب الحياة. هذا فضلاً عن أن

النطاق الجغرافي للمفهوم يضم مجموعات سكانية لا تمت إلى العروبة بصلة، سواء أشرنا هنا إلى الأكراد أو الأمازيغ أو البلوش أو الزنوج أو معظم النوبيين، بالإضافة إلى أقليات أخرى أصغر. والنقاش النظري هنا حول دور الأغلبية في حماية الأقلية وإمكان قيام العلاقة بينهما على التعايش تكذبه تجارب تاريخية قريبة في هذا البلد أو ذاك. و"**الأمة**" في واقع مصر الآن مفهوم حدوده التاريخية أكثر وضوحًا بكثير من حدوده الفكرية النظرية، وهذا مما يمكن البناء عليه، إذا شكلت اللحظة الراهنة لحظة التقاط أنفاس بين كل الأطراف. والتنافي الذي يصر البعض على الاحتكام إليه ليس الخيار الوحيد في العلاقة بين مفاهيم الأمة المشار إليها، ومصر المتصالحة مع ذاتها ليست حلمًا بعيد المنال، شريطة أن تصبح "**الدولة/ الأمة**" دولة مواطنيها، لا دولة هذا التصور المسبق المعلب أيًا كان.

وضبط العلاقة المضطربة – نظريًا – بين الدولة والمجتمع في مصر، وقد أشرت إليها سلفًا، قد تكون بداية بناء الجسور بين المسارات الثلاثة: البناء، الاكتشاف، الإحياء، بحيث يتبلور مشترك عام ليس من الصعب إنجازه، يستهدف في المقام الأول طي صفحة الدولة التي تصنع مجتمعها، لتفتح صفحة الدولة التي تترجم – من خلال البنية والسلوك – حقيقة ما هو قائم بالفعل في مجتمعها. وعندئذٍ ستكون "**الدولة/ الأمة**" للمرة الأولى في تاريخ مصر الحديث ثمرة التفاعل الاجتماعي الحقيقي، لا ثمرة أي نوع فوقي من الهندسة المفروضة من أعلى. والفرض من أعلى أحد النتائج التي تترتب حتمًا على التنظير في الفراغ سواء كانت نقطة انطلاق هذا التنظير دينية أو قومية، أو حتى وطنية. والذي لا شك فيه عندي أن الحب السوي للأوطان، وكذلك الاقتداء الحقيقي بسنة

الرسول ﷺ في تأسيس الاجتماع السياسي، والاستيعاب الحقيقي لسنن السابقين – وهو مما دعا إليه القرآن الكريم مرارًا – يوجب على الأطراف كافة (أنصار بناء الدولة الأمة وأنصار اكتشاف الدولة وأنصار إحياء الدولة الأمة) أن يدركوا الواقع كما هو لا كما يتمنى أيٌّ منهم، فالتفكير بالتمني فخ للأفراد .... وللأمم كذلك!

الخطاب الديني والفكر الديني... والشغب الأيديولوجي[57]

أصبح تعبير: "**تجديد الخطاب الديني**" أحد التعبيرات الأكثر رواجًا في الخطاب الثقافي العربي – ربما منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 – وكان قبلها يظهر على قائمة أولويات الخطاب العام (الثقافي والسياسي والإعلامي) على وقع الأزمات. وبسبب الغموض الشديد في دلالات المصطلح فإنه أصبح – أو يكاد – واحدًا من مفاهيم كثيرة تستخدم لتدل على الفكرة ونقيضها مما يجوز وصفه بـ "**السر المعلن**"!

وفي مقال له تعرض الأكاديمي (المفكر المعروف) الدكتور جلال أمين لزاوية نظر في التعامل مع الموضوع لا جدال في أنها تحمل جديدًا، فضلاً عن أنها يمكن أن تحل جملة إشكاليات، وهي إشكاليات تجعل الحوار حول هذا المفهوم أقرب إلى حوار الطرشان!

([57]) نشرت بدورية: "حالة مصر" – المركز الإقليمي للدراسات – بعنوان: "بين عقبة الأيديولوجيا وغموض الأهداف: كيف يمكن تجديد الخطاب الديني في مصر؟".

ففي مقال له في الأهرام القاهرية (1 سبتمبر 2014) عنوانه: "عن الشرط الضرورى لتجديد الخطاب الدينى" يقول عن الدعوة لتجديد الخطاب الديني إننا نقرأ أو نسمع لمن يقول "إن هذا ليس هو الإسلام الصحيح، أو ليس هكذا يكون التدين، أو أن هذا التفسير الشائع أو ذاك للإسلام، لا يمكن أن يحقق ما نصبو اليه من نهضة وتقدم، وأنه كان لدينا من الشيوخ الأفاضل طوال المائة عام الماضية أو أكثر من عبر بصراحة عن رفضه مثل هذه التفسيرات.. الخ." وهو يشير إلى أنه عندما يقرأ الكتابات التي يراها "مستنيرة" "يثور فى ذهنى التساؤل عما إذا كان لكل هذا الجهد طائل رغم نبل هدفه، ومهما تكن بلاغة الكاتب وقوة حجته"، ويضيف: "أشعر دائمًا كلما قرأت أو سمعت مثل هذه الأراء والكتابات، أن هذه ليست الوسيلة الفعالة لاحداث النتيجة المطلوبة. المشكلة لن يحلها بيان التفسير الصحيح للدين، مهما نستخدم من أسانيد عقلية وفقهية وتاريخية تعضد وجهة نظرنا، بل يكمن علاجها فى ميدان آخر، لا نرى للأسف أى تقدم فيه يقربنا من الهدف المنشود". و"هذا الموقف ...... يرجع إلى ما أعتقده عن العلاقة بين عالم الفكر وبين واقع الحياة اليومية. إن ميول الإنسان النفسية تتحكم إلى حد كبير فى أفكاره، وهذه الميول النفسية تتأثر بدورها تأثرًا كبيرًا، ليس فقط بطبيعة مزاجه الذى ولد به، ولكن أيضًا بمدى نجاحه فى إشباع حاجاته الضرورية، المادية وغير المادية. لهذا السبب لا أشعر عادة بأى حماسة لما يلقى من "مواعظ" إذا لم تقترن الموعظة بعمل إيجابى لتغيير

الظروف التى أدت إلى ما نعتقد أنه تفكير خاطئ". ويضيف جلال أمين: "**إن هذا الرأى تؤيده الملاحظة كما تؤيده قراءة التاريخ، ما أكثر الأمثلة التى صادفتها لفساد الرأى أو الخلق بسبب حرمان يزيد على الحد (خاصة فى سن صغيرة) أو بسبب ظلم شديد أو قهر لا يجد من يتعرض له مفرا منه أو طريقة لمواجهته إلا بتغيير نوع تفكيره، أسباب فساد الرأى كثيرة بالطبع ويصعب حصرها ولكن نادرا ما وجدت أن فساد الرأى يعود إلى مجرد التعرض لرأى فاسد، إذا لم يقترن هذا بظروف حياتية صعبة، بعبارة أخرى: الرأى الفاسد لا يكون مصدرا للعدوى إلا فى ظروف حياتية سيئة، كما أن الميكروب يندر أن يصيب المرء بالمرض إذا تعرض له فى الهواء الطلق. علينا إذن أن نهيئ الهواء الطلق، ولا نكتفى ببيان فساد الرأى الشائع"**.

وهذا التقييم جديد من زاويتين: الأولى أنه اعتراف مهم بأن التخلف هو ما يخلق الاستعداد لقبول خطاب ديني غير رشيد وليس العكس، أي أن الخطاب والاستجابة له نتيجة لـ "**التخلف**" وليس سببًا. الزاوية الثانية أنه تقيم بـ "**اعتبار حال المتلقي**"، وهو نادر في الكتابات الكثيرة التي لا تعدو أن تكون في معظمها "**سجالات أيديولوجية**" بين منتجي الخطاب وناقديه، والقسم الأكبر منها يحاول تصوير "**تجديد الخطاب الديني**" كما لو كان "**عملية آلية**" تأتي ثمارها على نحو حتمي يشبه معادلات الكيمياء، وكأن عملية التحول المنشودة مقطوعة الصلة بـ "**نوعية الحياة**" التي تتوفر للمتلقي!

ثم أما بعد!

فمع كل أزمة كبيرة تستخدم فيها **"الديباجات الدينية"** لتبرير صراع مسلح أو صراع جذري بين الإسلاميين وخصومهم وبينهم وبين الدولة (وبعد داعش) أصبحت المصيبة عابرة لحدود الدولة في مسرح وقائعها، وعابرة للمحيطات فيما تثيره من ردود أفعال. ورغم أن الخطاب الديني كقضية مصرية يظل مساراً له درجة كبيرة من الاستقلالية النسبية، إلا أن عوامل التفاعل مع **"الخارج الجغرافي"** تزداد بوتيرة غير مسبوقة. والخطاب الديني في مصر مفهوم واسع يضم مسارات رئيسة:

الخطاب الديني "الرسمي".

الخطاب الديني الإصلاحي.

الخطاب الديني الثويري (خطاب التغيير الجذري).

الخطاب الديني الصوفي.

وباعتبار المضمون يرى الدكتور عبد الوهاب المسيري في أطروحته المؤسِّسة: **"معالم الخطاب الإسلامي الجديد"** (مجلة المسلم المعاصر – بيروت – العدد 86 – 1998 – الصفحات:49 – 68). أن الخطاب الإسلامي يمكن تصنيفه إلى المستويات التالية:

1 – "الخطاب الإسلامي القديم": ظهر مع الاستعمار وحاول تقديم استجابة إسلامية لظاهرتي التحديث والاستعمار، وهو ظل المهيمن حتى منتصف الستينيات.

2 – "الخطاب الإسلامي الجديد": بدأت معالمه تتحدد تدريجيًا في منتصف الستينيات وأهم ملامحه الموقف من الحداثة الغربية.

ويضيف المسيري إلى ذلك جهة تصنيف أخرى مكملة على أساس حملة الخطاب:

1 – "الخطاب الجماهيري" (أو الاستغاثي أو الشعبوي): هو خطاب القاعدة العريضة من الجماهير الإسلامية التي شعرت بفطرتها ورفضت التحديث والعولمة والعلمنة، لكنها لا تقدم فكرًا ولا حركة سياسية منظمة.

2 – "الخطاب السياسي": هو خطاب بعض أعضاء الطبقة المتوسطة من المهنيين والأكاديميين وطلبة الجامعات والتجار ممن شعروا أيضًا بالحاجة إلى العمل السياسي فقاموا بتنظيم انفسهم على هيئة تنظيمات سياسية لا تلجأ للعنف. وبعد عام 1965 ظهر اتجاه عام نحو العمل من خلال القنوات الشرعية.

3 – "الخطاب الفكري": يتعامل أساسًا مع الجانب التنظيري والفكري داخل الحركة الإسلامية. وهذا التقسيم لا يعني انفصال مستويات الخطاب الثلاث، فالخطابان الجماهيرى والسياسي متداخلان، وقل الشئ نفسه عن الخطابين السياسي والفكري.

هكذا حاول المسيري بناء إطار عام للتصنيف لكن ما آلت إليه الأمور بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير وتوابعها، وحقيقة ما جري أن استقطابًا ثنائيًا هو صدى لصراع أيديولوجي قديم: إسلامي /علماني عمره يتجاوز المائة عام حل محل هذا التصنيف الذي ينطوي على نوع من التركيب، وهذا الاستقطاب هو في حالة تجدد دائم، تارة يجذب إلى ميدانه كل منتجي الخطاب الإسلامي تقريبًا – وأحيانًا يضطر الخطاب الرسمي إلى الاقتراب منهم خوفًا من اتهامه بالتفريط في ثوابت دينية لا تقبل الاجتهاد – وأحيانًا يطلق السجال الأيديولوجي شرارة المعركة ويختمها الصدام الفعلي بمختلف أشكاله (اغتيال فرج فودة – محاولة اغتيال نجيب محفوظ – مظاهرات الاحتجاج على رواية "**وليمة لأعشاب البحر**").

غموض النطاق والأهداف... والمدلول:

أحد العوامل الرئيسة في أزمة الخطاب الديني: "**غموض النطاق**"، فهناك خلاف مبدئي جذوره في الصراع المشار إليه، حيث تتوزع النخبة الثقافية المصرية بين رؤيتين لعلاقة الدين بالشأن العام يؤسس كل منهما، بناءً عليه، رؤيته لحدود "**نطاق الخطاب الديني**"، وبالتالي تصبح هناك مساحات "**رمادية**" لا يوجد اتفاق أساسًا على مشروعية أن يتناولها الخطاب الديني، بغض النظر عن أن يكون محتوى الخطاب – في حال إنتاجه محل رضا من أي من الفريقين.

وبالإضافة إلى غموض النطاق هناك مشكلة في غموض الأهداف، فالنسبة لمن يرون الدين أداة للنهوض المجتمعي والسياسي، فإن على الخطاب الديني أن يخدم أهدافًا مسبقة تكشف عند تحليلها عن اختيارات مسبقة حاكمة:

1 – مسار التاريخ خطي ونحن في هذا المسار وراء الغرب، ونسعى للحاق به، و"حسب التوقيت المحلي الأوروبي" نحن في العصور الوسطى.

2 – المرجعية النهائية لـ "الولاء والبراء التنويري" هي: "المصلحة العليا للدولة"، وهو مفهوم مؤسس للرؤية الثقافية الغربية التي تأسست على تجربة "الثورة الفرنسية"، فيما هي في ثقافتنا مفهوم مطاط لا تعريف له يحظى بالإجماع، بل لا معالم محددة له، وبخاصة للفئة التي تتجه.

3 – أن الرابطة السياسية القانونية التي أنشأتها الدولة الوطنية الحديثة هي بمثابة (القاعدة القانونية الآمرة) أي التي تعلو على غيرها، وبالتالي لا يجوز للخطاب الديني إلا أن يعززها.

وعند الفريق الآخر، فإن "**المشروعية العليا**" هي للأحكام الدينية وهي ملزمة للأفراد والدولة على السواء، وبالتالي: "**علينا أن نقول وعليكم أن تغيروا واقعكم ليوافق قولنا**". وهنا نصبح إزاء صراع حقيقي على القواعد الحاكمة للاجتماع الإنساني تختفي وراء النقاش الجزئي حول "**الخطاب الديني**". والخطاب هو في النهاية حامل للفكر، أي أن موضوع الخلاف هو الفكر (الديني والعلماني معًا). لكننا عندما نتجاوز هذا التأصيل إلى عملية إنتاج الخطاب نفسها نجد أنفسنا أمام مشروعين:

أحدهما يرى أن الفكر الديني هو المشكلة وأن المقصود بتجديد الخطاب هو إعادة صياغة الفكر نفسه، وبخاصة فيما يتصل بقضيتي: "**الأحكام الشرعية**" و"**الاختيارات الاجتماعية والثقافية**" التي يرى البعض أنها "**اختيارات دينية ملزمة**". ومدرسة أخرى تطالب بإنتاج خطاب يحل المشكل الآني السياسي، حتى لو كان مخالفًا للفكر، في دعوة صريحة لخداع الذات والعالم!

من مفاصل الأزمة:

مع مرور الزمن وتراكم الأدبيات التي تكرس هذا الخلاف – والتي تحاول حله أيضاً – يبدو أننا أمام عدد من النقاط المفصلية التي يمكن أن يسهم إدراكنا إياها طريقًا إلى حل وفاقي لصداع مزمن. فهناك أولاً بعض القناعات الحاكمة لتصور رافضي دعوات تجديد الخطاب الديني (الإسلاميون المتشددون):

1 – أن الصواب لا يتعدد فهو واحد مثل الحق، وهذه المطابقة بين "الصواب" و"الحق" تجعل وجود وجهات نظر أو أنماط سلوك مغايرة لما يريدونه "جريمة".

2 – إن الأخلاق تقوم على "المنع" لا على "الامتاع"، بالتضاد مع كل ما جاءت به الأديان السماوية من قواعد أخلاقية مؤسِّسة.

3 – إن العلاقة "آلية"، وهي بالتالي بسيطة ومادية، بين التقوى والنهضة، وبالتالي فإن الخيط الفاصل بين عالمي "الغيب" والشهادة يكاد يكون مطموسًا.

4 – إن الإسلام تتحقق غايته من إعادة إنتاج "نمط حياة" سابق بتفاصيله كافة، والصواب أن ذلك يتحقق بإعادة الاعتبار إلى "معايير" هي أوسع دلالة بكثير من الأحكام الشرعية.

من معارك تجديد الخطاب الديني:

في المقابل أصبحت هناك **"مفاصل فكرية"** يخوض دعاة الفريق الآخر على تخومها معارك لم تتوقف تقريبًا منذ نهاية القرن التاسع عشر وبعض أدبياتها لم تزل علامات في مسار هذا الصراع (كتاب "**تحرير المرأة**" لقاسم أمين 1899 – كتاب "**الإسلام وأصول الحكم**" لعلي عبد الرازق 1925 – كتاب "**في الشعر الجاهلي**" 1927 – .....). ومن القضايا المفصلية التي أصبحت تمثل مرتكزات تصور هذا الفريق:

1 – "القرآن حمّال أوجه" وهي عبارة لم تثبت صحتها لعلي ابن أبي طالب رغم اتساع نطاق انتشارها – فضلاً عن أن علي ابن أبي طالب ليس مصدرًا للتشريع – وهي في الحقيقة تعبر عن فكرة ورد ما صحت نسبته لعلي ابن أبي طالب بدلالات مخالفة تمامًا. فقد ورد عنه في "نهج البلاغة" أن "هذا القرآن لا ينطق بنفسه... وإنما ينطق به الرجال". والمعنى

هنا أن النطق الخاطيء (التفسير الخاطيء) هو مصدر المشكلة وليس قابلية القرآن كله للتأويل من "الفاتحة" إلى سورة الناس"، وبهذا المعنى قدم القرآن نفسه للبشر قبل أن يخضع لأي تفسير أو تأويل، قال تعالى: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب". (سورة آل عمران 7) والمشكلة مصدرها المفسر (الذين في قلوبهم مرض)، وهذا التحول الذي يبدو شكليًا بين المنهجين يؤدي إلى نتائج تبلغ الغاية في الخطورة.

2 – العقل حَكَم على النص وليس وسيلة لفهم النص، والنص منتج تاريخي يجب فهمه في ضوء "السياق" لا في ضوء معناه اللغوي ولا الكيفية التي تعامل به معه الرسول أو الصحابة، فضلاً عن القطيعة شبه التامة مع "تاريخ فهم النص".

3 – القرآن وحده هو وحي السماء أما السنة فتراث اختلط فيه الصحيح بالضعيف والموضوع واستخدمت طويلاً في الصراعات السياسية والمذهبي.

4 – الصلة بين الدين والسياسة يجب أن تصاغ على قاعدة الفصل التام.

وتشكل قضايا ومقولات مثل: "**تطبيق الشريعة**" بوصفها جملة لا تتجزأ من الأحكام الفقهية، و"**إقامة المجتمع الإسلامي**" بوصفه نقطة مفاصلة على قاعدة الكفر والإيمان بين فريقين، ومشروعية التغيير بالعنف سواء اعتبره

مستخدموه "**واجبًا**" أم "**حقًا**"، النقاط التي أرى أنه يمكن البدء منها لتجديد حقيقي للخطاب الديني يتجاوز "**الشغب الأيديولوجي**" الذي طغى على المشهد من "**رضاع الكبير**" إلى "**نكاح الوداع**"، وبينهما طابور طويل من النكايات الصغيرة التي تثير غبارًا، ولا تنير مظلمًا.

خارطة طريق محتملة:

قد يكون مشروعًا البحث عن نقطة بداية يمكن الاتكاء عليها لإنجاز شيء ما عملي لأجل خطاب ديني أكثر تعبيرًا عن هذا الدين، بغض النظر عن أن يكون محققاً لما يراه صناع القرار السياسي "**المصلحة العليا للدولة**"، وبغض النظر عن أن يكون متوافقًا مع مقولات "**المسار الخطي للتاريخ**" التي أسهمت بقوة في تعميق الفجوة بين الإسلاميين والعلمانيين. وغني عن البيان طبعًا أن هذا الخطاب المأمول لا يستهدف – بأي شكل – الانتصار لمقولات الأسلمة والمفاصلة و"قتال الطائفة الممتنعة" سواء امتنعت بشوكة أو بغير شوكة!

والمسار يمكن أن يستند إلى عدة مرتكزات أهمها:

1 – الإجابة الواضحة الحاسمة (بموقف فقهي معلن) عما إذا كنا في مصر الآن (2014) امتدادًا تاريخيًا (والأهم قانونيًا) وسياسيًا للتاريخ الممتد من الفتح الإسلامي لمصر، أم "امتداد قيمي"؟

والمقصود أن الحقوق القانونية والسياسية المترتبة على "انتهت"، أولاً بالاحتلال البريطاني لمصر (1882) وتأكدت بقرار فصل مصر عن الدولة العثمانية وإعلانها سلطنة (1914) وطويت صفحتها تمامًا بإلغاء رابطة الخلافة (1924). وبالتالي نحن أمام "**اجتماع سياسي جديد**"، وهذا سيطوي صفحة نقاشات لا معنى لها ولا مردود منها سوى خلط الأوراق وفتح الباب لخطرين كبيرين: "**الإرهاب**" و"**الإقصاء**". وفي إطار "**الاستمرار القيمي**" لا يوجد ما يمنع أي جماعة من بناء الرؤية القيمية التي ترى أنها تعبير عن انحيازاتها.

2 – التفرقة الصارمة بين: "الإعلام الديني" و"الإفتاء" و"الدعوة"، فالأول يكون بما هو مجمع عليه من الحقائق كالغيبيات والأمور المستندة إلى أحكام قطعية الثبوت والدلالة. أما الإفتاء فليس إلا ردًا على سؤال سائل، ولا يجوز أن يتخذه البعض سندًا لما يعتبره هو أو غيره "حكمًا شرعيًا"، فليس لأحد كائناً من كان أن "ينشيء" أحكامًا بعد الرسول ﷺ. وكذلك الإجماع لا ينشيء حكمًا بالتحليل أو التحريم. أما الدعوة فتكون إلى الفضائل (وليست ملزمة) وإلى ما يجوز فيه دون دعوة إلى تمذهب أو تحزب. وعندئذ يتحدد بشكل واضح "نطاق الخطاب".

3 – الفصل التام بين "الدعوي" و"السياسي" فالأول يدور حول الفضائل والثاني مداره المصالح، ومن ثم (وهذا اجتهاد أحاول الإسهام به في وضع قاعدة لتنظيم العلاقة بين الدين والسياسة) فقد يكون المقبول: "تأسيس السياسة على الدين" ويكون المحظور بالتالي: "إدارة السياسة بالدين"، وعندئذ تختفي خطابات المساندة (أو المناوأة) السياسية للأفراد

والجماعات بالفتاوى ودعوات الحشد للتصويت كوسيلة للصراع الأيديولوجي والديني، بينما التصويت وسيلة للتنافس السياسي.

ويبقى أن القناعة بالحاجة الدائمة للاجتهاد لا تعني أبدًا فتح الباب للتعامل باستخفاف وبمنطق دعائي تشنيعي مع قضايا تم دراستها وفقًا لـ "**مناهج علمية**" منذ قرون، فالتجديد لا يعني أبدًا الرد على "**تقديس صحيح البخاري**" بتدنيسه!

و"**الشغب الأيديولوجي**" في النهاية ليس طريقًا للتجديد.

أموال الإرهاب: الدوافع والمنابع والكوابح([58])

ولدت الاتفاقية الدولية لمكافحة تمويل الإرهاب بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 54/ 109، المؤرخ في 9 ديسمبر 1999 لتتوج جهودًا دولية بدأت بمساعٍ ثنائية وجماعية افتقرت إلى معايير دولية تحظى بإجماع يحولها إلى **"اتفاقية دولية"**. ورغم أن قضية **"مكافحة تمويل الإرهاب"** تعد – في المقام الأول – قضية سياسية / أمنية، إلا أنها تظل من النواحي الإجرائية أحد القضايا التي يتصاعد الاهتمام بها في المؤسسات المصرفية. وفي أكتوبر 2014 ناقش **"الملتقى السنوي لرؤساء وحدات مكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب في المصارف والمؤسسات المالية العربية"** الذي عقده **اتحاد المصارف العربية** في بيروت التدقيق أكثر من قبل المصارف في معاملات العملاء وترسيخ التعاون بين المصارف والقوى الأمنية الموكلة بمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب عبر تحديث التشريعات. ولأن الفصل يبدو افتراضيًا لا أكثر فإن الملتقى – وهو بنكي – أشار في ختام جلساته إلى ضرورة مكافحة الموجبات التي تؤدي إلى

([58]) قدمت في حلقة نقاش عنوانها: هل ينجح الشرق الأوسط في مكافحة الجماعات الإرهابية؟ – وحدة الدراسات الاقتصادية بالمركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية بالقاهرة – 5/ 11/ 2014.

تنامي الإرهاب وعلى رأسها البطالة في العالم العربي التي بلغت حسب الأمين العام لـ "**اتحاد المصارف العربية**" 20 مليونًا. وهو لفت إلى أن البطالة تشكل "**بيئة حاضنة**" للإرهاب.([59])

تمويل الإرهاب في بيئة جديدة:

ومن القضايا المهمة المتصلة بإشكالية تمويل الإرهاب ما يشهده الاقتصاد الدولي من تعقيدات، وثغرات، تجعل السيطرة على التدفقات المالية عملية أكثر تعقيدًا، ومما "**يتضح أمامنا الآن أن جميع السندات المالية المعقدة، إضافة إلى التدفقات الاستثمارية الدولية المستمرة، خلقت نظامًا ماليًا عالميًا "سري للغاية لدرجة جعلت عددًا قليلاً من الأفراد قادرين على تفهُّم كيفية عمله**"، تبعًا لما أكده ديفيد سميك في كتابه "**العالم آخذ في التقوس: الأخطار الخفية أمام الاقتصاد العالمي**"، فإن "**الاختلاف بين الوضع الراهن وما كان عليه الحال منذ عامين أن المديرين الماليين آنذاك كان لديهم اعتقاد بأنهم متفهمون لطبيعة النظام، أما الآن فهم يعلمون أنهم لا يعلمون**".([60])

وقد أصبح هذا الاقتصاد "**الغامض**" أحد أهم البيئات المساعدة على استمرار تدفق التمويل للجماعات الإرهابية، وهو ترابط تؤكده الرؤية الأمريكية

([59]) http://www.aljazeera.net/home/print/97bf4c0c-b160-4c00-8a8b-af44bc2d88ac/b1c2db92-7a37-49c6-8bca-3d4c07a434f2

([60]) مقال: حي بولسون – روبرت جيه. سامولسون – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 28 سبتمبر 2008 – الرابط:
http://classic.aawsat.com/details.asp?issueno=10626&article=488586#.VFgLQ8mGjIs

الرسمية التي تقوم على ترابط القطاع المالي في العالم. وكان اتحاد المصارف العربية عقد لقاءات عدة في نيويورك على هامش أعمال "**القمة المصرفية العربية /الأميركية**" في دورتها الخامسة التي شهدت الإعلان عن تشكيل "**مجموعة العمل العربي لمدراء الالتزام**". ومن أهم مهامها التواصل مع الجانب الأميركي للوصول إلى أفضل العلاقات المصرفية العربية – الأميركية ضمن برنامج فعّال لمكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب.([61])

ومع ظهور العملة الافتراضية "**البيتكوين**" ونظامها الشبكي اللامركزي من الصعوبة بمكان على المحققين تتبع عمليات الشراء والبيع التي تتم عبرها، وقد أدركت أطراف عديدة – بينها الجماعات الإرهابية – ما توفره من إمكانات للهرب من سلطات التتبع التي تراقب حركة الأموال، ومؤخرًا أصدر أحد مناصري "**داعش**" (تقي الدين المنذر) وثيقة بعنوان: "**بيتكوين وصدقة الجهاد**" حدد فيها الأحكام الشرعية لاستعمال "**البيتكوين**"، مشددًا على ضرورة استعمالها لتمويل الأنشطة الجهادية. وجاء في الوثيقة أن البيتكوين تمثل حلاً عمليًا للتغلب على الأنظمة المالية للحكومات "**الكافرة**"، وشرحت كيفية استخدام هذه العملة الافتراضية وإنشاء الحسابات المالية على الإنترنت، ونقل الأموال دون أي لفت انتباه أحد، على اعتبار أن المتبرع لا يستطيع تحويل أموال لشخص مشتبه به أو موضوع على لائحة الإرهاب، ولكنه يستطيع التحويل إلى حساب رقمي لا يعلم أحد من يملكه. وعكست الوثيقة خبرة كبيرة لدى كاتبها

([61]) http://www.aljazeera.net/home/print/97bf4c0c-b160-4c00-8a8b-af44bc2d88ac/b1c2db92-7a37-49c6-8bca-3d4c07a434f2

في المعاملات المصرفية والإجراءات القانونية، وحتى بالمنظومة الهيكلية للبيتكوين وكيفية عملها.([62])

من القاعدة إلى داعش:

قد مرت عمليات تمويل الإرهاب بمراحل/ نماذج بدأت بجماعات محلية تعتمد – بشكل رئيس – على موارد محلية (مثال: حالة استحلال أموال غير المسلمين كوسيلة للتمويل)، وتاليًا، جماعات متعددة الجنسيات تعمل في بيئة خارج حدودها وتعتمد على مصادر تمويل متعددة (مثال: تمويل القاعدة في أفغانستان قبل زوال الاحتلال السوفيتي، واعتمادها مصادر بعضها رسمي شبه علني)، وفي مرحلة تالية نماذج تمويل تجمع بين استثمار المشاعر الدينية (استغلال أموال الصدقات والزكوات) والأنشطة الإجرامية (تهريب السلع والمخدرات وأموال الفدية). وفي نهاية الشوط جاء تمويل داعش كنموذج – ربما غير مسبوق – لما يشبه الدولة، مع احتفاظها ببقية ليست قليلة من النماذج التي سبقتها.

وتعد وثائق تنظيم القاعدة التي أمكن الحصول عليها عام 2007 واحدة من المصادر الغنية بالتفاصيل عن كيفية تمويل **"تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين"**، وبعض ما تتضمنه هذه الوثائق من معلومات وخبرات تعكس التحولات، كما تكشف في الوقت نفسه، عن الأنماط المتصفة بالاستمرار والثبات. وتضمنت الوثائق أوراق تمويل وتقارير مصروفات أظهرت أن تنظيم **"الدولة الإسلامية في العراق"** الذي انبثق منه تنظيم داعش اعتمد اعتمادًا كبيرًا

([62]) هل تمول "بيتكوين" داعش وحركات الإرهاب الأخرى؟: أول ضحية لداعش في أميركا.. شركة تطبيقات للهواتف الذكية – تقرير – غسان بو دياب – 10/ 7/ 2014 – الرابط:
http://www.radiosawa.com/content/bitcoin-terrorism-isis-/253183.html

على التبرعات الاختيارية، حسبما أوضح تقرير أعده **"مركز مكافحة الإرهاب في وست بوينت"**. وقال التقرير الذي صدر بعنوان: **"مفجرون وحسابات مصرفية ونزف مستمر"** إن التقارير المالية والإيصالات الموجودة ضمن **"وثائق سنجار"** تظهر أنها اعتمدت على 3 مصادر للتمويل، هي التحويلات من قادة آخرين في تنظيم القاعدة في العراق، والأموال التي كان يجلبها الانتحاريون الأجانب معهم، وجمع الأموال من العراقيين.([63])

وقالت الدراسة إنه غير الواضح من الوثائق إن كانت الأموال التي يجري جمعها من السكان المحليين تجمع اختياريًا. وكان حرص التنظيم على إمساك الدفاتر والاحتفاظ بالمستندات مفارقة؛ فقد ساعد ذلك التنظيم على جمع الأموال، لكن الوثائق ساعدت واشنطن أيضًا عندما وقعت في أيدي قواتها في تفهم كيفية تمويل التنظيم وإنفاق الأموال. وقال كيتنغ إن من الدروس المستفادة، كما تظهر وثائق سنجار، ضرورة توفر تمويل من مصادر موثوقة بدرجة أكبر، خاصة من الدول التي تحاول بشدة تعطيل تدفق الأموال. وأضاف: **"إذا كان لديك فهم متطور للإدارة المالية مثل الدولة الإسلامية أو حركة الشباب في الصومال، فأنت تدرك جيدًا أن الاعتماد على الشتات أو التبرعات الخاصة أو الأموال التي يمكن للمجتمع الدولي أن يعطلها يمثل أسلوبًا محفوفًا بالمخاطر"**. وتدرك واشنطن باعترافها أن أموال المتبرعين من الخارج لا تمثل تهديدًا كبيرًا مثل وسائل التمويل الذاتي، لكن الولايات المتحدة وحلفاءها تباطأوا

([63]) تمويل "داعش".. إتاوات على التجار والأهالي وأعمال نهب ونفط مهرب: شبكة معقدة من الوسطاء بعضهم في شركة النفط العراقية حتى يصل الخام إلى تركيا – تقرير – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 11/ 9/ 2014 – الرابط:

http://www.aawsat.com/home/article/179731

في التحرك لقطع هذه المصادر. وقال مسؤول كبير بوزارة الخارجية إن تنظيم داعش يحصل على أموال من متبرعين في الخارج، لكن هذا لا يقارن بتمويلهم الذاتي من خلال الأنشطة الإجرامية والإرهابية. ولا يبدو أن دخل الفدى من عمليات الخطف ينافس دخل مبيعات النفط، ولا يعرف الكثير بدرجة موثوقة عن المبالغ التي حصلوا عليها. وقالت مجلة "**فوكوس**" الألمانية في أبريل إن فرنسا دفعت 18 مليون دولار للإفراج عن 4 رهائن فرنسيين كانوا محتجزين لدى "**داعش**" استنادًا إلى مصادر في **حلف شمال الأطلسي** في بروكسل. ويقول مسؤولون فرنسيون إن الدولة لا تدفع فدى للإفراج عن رهائن. ثم تجيء الجريمة؛ فقد أغار التنظيم على البنك المركزي في الموصل وتردد أنه أخذ مبالغ ضخمة من المال. ويسمح التنظيم للعراقيين في الموصل فيما يبدو بسحب 10 % من ودائعهم لدى البنوك، ودفع 5 % من المبلغ المسحوب زكاة.([64])

وقد أصبحت "**داعش**" من أغنى التنظيمات المسلحة في العالم بعد سيطرته على ثلث مساحة سوريا، ونصف مساحة العراق تقريبًا. والتقديرات تختلف حول الإيرادات التي يستطيع أن يجنيها فبينما يقول خبراء ومسؤولون إنه يستطيع أن يتحصل على إيرادات شهريًا تتراوح ما بين 3 إلى 5 ملايين دولار شهريًا. ويقدر عراقي أنه سيطر على حقول تدر نحو مليوني دولار يوميًا، وهو بذلك يستطيع جمع نحو 730 مليون دولار سنويًا، وهذا كافٍ للإنفاق على عملياته. كما أنه "**تمكن من السيطرة أيضًا على ما يقارب خمس المساحات**

([64]) تمويل "داعش".. إتاوات على التجار والأهالي وأعمال نهب ونفط مهرب: شبكة معقدة من الوسطاء بعضهم في شركة النفط العراقية حتى يصل الخام إلى تركيا – تقرير – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 11/ 9/ 2014 – الرابط:
http://www.aawsat.com/home/article/179731

المزروعة بمحصول الحنطة (القمح) بالعراق التي تعتبر من المحاصيل الاستراتيجية في العراق، فضلا عن الاستيلاء على عدد كبيرة من الصوامع الحكومية لتخزين تلك الحبوب في مناطق "سهل نينوى" جنوب الموصل .... تمثل أهم مصدر لهذا المحصول في العراق، وتمكن من نقلها إلى عدد من مطاحن الموصل وطحنها وبيعها في الأسواق، بل إن أخبار غير مؤكدة تقول إن التنظيم حاول بيع محصول القمح إلى الحكومة العراقية من خلال تجار ووسطاء، إلا أن تلك العمليات باءت بالفشل".(65)

وفي بابل جنوب بغداد تمكن التنظيم من فرض سيطرته على ما يعرف بمنطقة البحيرات، التي تضم أكبر بحيرات لتربية الأسماك ليجعل عوائدها أحد مصادر تمويله، ولأنه يعتبر نفسه دولة، ويحق له فرض رسوم، فإنه يفرض "**إتاوات**" على كبار رجال الأعمال في الموصل وشركات الهاتف المحمول، كما فرض جزية على المسيحيين الذين رفضوا مغادرة المدينة وأصحاب المحال والتجار، وتقدر تلك الأموال بنحو 850 ألف دولار شهريًا. وقال الباحث المتخصص في شؤون الشرق الأوسط في جامعة جورج تاون في واشنطن بول سوليفان إن التنظيم استطاع أن يجني أموالاً عن طريق "ابتزاز" الشركات المحلية العاملة في نطاق سيطرته، وقدر سوليفان في تصريحات نشرتها صحيفة "**تيليجراف**" البريطانية تلك الأموال بنحو 5 ملايين جنيه استرليني شهريًا،

(65) جماعة داعش الارهابية وإيراداتها وموارد تمويلها – تقرير – الموقع الإخباري لقناة العالم الإخبارية – 1/ 9/ 2014 – الرابط:
http://www.alalam.ir/news/1628374

مضيفًا أن الرهائن الذي يختطفهم التنظيم تعد هي الأخرى مصدر تمويل كبير، فخلال عام تمكنوا من جمع نحو 40 مليون جنيه استرليني من الفدية.([66])

وخلافًا لتنظيم القاعدة الذي اعتمد بشكل شبه حصري على الهبات الخاصة، يسيطر مسلحو "**داعش**" على مناطق شاسعة يفرضون فيها حكمهم، وبالتالي فانه من الصعب للغاية على العقوبات الغربية أن تستهدف مصادر تمويل التنظيم بالمقارنة من تجفيف منابع أموال القاعدة، بحسب ما افاد ايفان يندروك المحلل في "**مكتب جينز للاستشارات**". ولفت المحلل إلى أن نظام عقوبات شاركت فيه أكثر من 160 دولة نجح في نهاية المطاف في الحد من قدرة القاعدة على الحصول على أموال عبر مؤسسات خيرية ومصارف، غير أن هذا لن يكون مجديًا حيال تنظيم "**داعش**" الذي له مصادر تمويل خاصة به في المناطق التي يسيطر عليها. فإن كان "**بوسع عقوبات مشددة الحد، نوعًا ما، من تحويل الأموال إلى تنظيم الدولة الإسلامية من خارج العراق وسوريا، فإنه من الصعب للغاية تقليص مصادر التمويل داخل مناطق سيطرته من حقول نفطية وشبكات إجرامية وعمليات تهريب**". ولا شك أنه التنظيم الجهادي الأكثر ثراء في العالم وهو يستمد جانبًا مهمًا من أمواله من "**ابتزاز التجار المحليين وفرض "ضرائب" على سائقي السيارات والشاحنات الذين يسلكون الطرقات في مناطق سيطرته**"، وفق ما أوضح مسؤول في الاستخبارات الأميركية طلب عدم كشف اسمه. غير أن مصدر الدخل الرئيس للتنظيم الجهادي يبقى الحقول النفطية الأحد عشر التي سيطر عليها في شرق سوريا

([66]) جماعة داعش الارهابية وإيراداتها وموارد تمويلها – تقرير – الموقع الإخباري لقناة العالم الإخبارية – 1/ 9/ 2014 – الرابط:
http://www.alalam.ir/news/1628374

وشمال العراق. وقدر لؤي الخطيب الباحث في معهد بروكينغز في الدوحة مداخيل التنظيم بما يصل إلى مليوني دولار في اليوم بفضل مبيعات النفط. وقال إن الجهاديين يقومون بتكرير النفط في مصاف بدائية ثم ينقلونه في شاحنات أو سفن أو حتى بواسطة حمير إلى تركيا وإيران والأردن، حيث يباع بسعر يتراوح بين 25 و60 دولارًا للبرميل، في حين يبلغ سعر النفط في الأسواق العالمية مئة دولار. وهو يرجح أن التنظيم "نجح في جني ثروة في السوق السوداء بتطويره شبكة واسعة من الوسطاء في الدول والمناطق المجاورة". (67)

ومن التحولات غير المسبوقة في ممارسات الجماعات الإرهابية الانخراط في تجارة الآثار غير المشروعة، وهو ما أدخل مصطلحًا جديدًا في قاموس تمويل الإرهاب هو: "**آثار الدم**"، وتشير تقارير إلى أن ثراء "**داعش**" يعود جزئيًا إلى عمليات نهب الأثار في العراق وسوريا، وحسب **الغارديان** البريطانية، فإنه كسب ملايين الدولارات جراء أعمال النهب التي قام بها، وضمنها الحصول على 36 مليون دولار فقط من نهب أحد البنوك في سوريا. ومع استحواذ التنظيم على قطع أثرية يعود عمرها إلى 8 آلاف سنة، فإنه بذلك ليس بحاجة إلى دولة راعية؛ إنه يعمل على تمويل المذابح التي يرتكبها من خلال ثروة الحضارات القديمة. ووفقا لما ذكره عمرو العظم الأستاذ بجامعة ولاية شوني في أوهايو، الذي عاد مؤخرًا من المنطقة، لم يكتف "**داعش**" بنهب هذه الآثار فحسب، بل سمح لسكان محليين وعصابات منظمة بنهب تلك التحف شريطة

---

(67) كيف يمول تنظيم "داعش" عملياته الارهابية؟ – تقرير – موقع دويتشه فيلله – 18/ 9/ 2014 – الرابط:
https://cutt.us/cluun

حصول التنظيم على نسبة تتراوح بين 20 إلى 50 % من العائدات. ([68])
وفرضت واشنطن منذ العام 2003 عقوبات على أكثر من عشرين شخصًا يتبعون التنظيم أو تنظيم "**القاعدة في العراق**" كما كان يعرف سابقًا، غير ان هاورد شاتز خبير الاقتصاد في مركز راند للأبحاث يشير إلى أن الأموال القادمة من ممولين أفراد لا تشكل سوى جزء ضئيل من موارد تنظيم الدولة الإسلامية، وبالتالي فإن العقوبات المالية ليست فاعلة جدًا في تخفيف مصادر تمويله.([69])

العمل الخيري في دائرة الاتهام:

من القضايا الشائكة المرتبطة بتمويل الإرهاب تلك العلاقة الشائكة بين العمل الخيري وتمويل الإرهاب، فمن ناحية الدوافع لا شك في أن البعد الديني في خطاب الجماعات الإرهابية يجعل – فضلاً عن العلاقات التي قد تربط بعض هذه الجماعات أو بعض أفرادها بجمعيات خيرية – يظل احتمالاً واردًا دائمًا. وعليه فإن توجيه الاتهام لبعض الجمعيات الخيرية الإسلامية بالتورط في هذا التمويل يظل دائمًا محتملاً. ومنذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 والعمل الخيري الإسلامي في كثير من دول العالم يواجه هذا الاتهام.

ومؤخرًا حذرت **مفوضية الأعمال الخيرية البريطانية** من أن ثمة جمعيات خيرية في المملكة المتحدة ربما تكون متورطة عن غير قصد في تمويل "**داعش**"،

([68])"داعش" ينهب الآثار لتمويل مذابحه – مقال – مارك لي فلاسيك – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 22/ 9/ 2014 – خدمة واشنطن بوست – الرابط:
http://www.aawsat.com/home/article/18630

([69]) كيف يمول تنظيم "داعش" عملياته الارهابية؟ – تقرير – موقع دويتشه فيلله – 18/ 9/ 2014 – الرابط:
https://cutt.us/ULzgV

وحسب وليام شوكروس رئيس المفوضية فإن ثمة مخاطر ناجمة عن احتمال استغلال بعض الجماعات بتوزيع الأموال والإمدادات التي يتبرع بها الجمهور العام في بريطانيا من جانب داعش. وذكر التقرير أن المفوضية تعكف في الوقت الراهن على فتح تحقيقات واسعة مع أربعة جماعات خيرية تعمل في المنطقة بينها الجماعة التي كانت تعين ألان هيننج الرهينة البريطاني الذي تم اغتياله على أيدي التنظيم الإرهابي. وحسب شوكروس فإن هذه الممارسات **"تتسبب في تدمير جسور الثقة بين الجمهور العام والجمعيات الخيرية، والخطير أن عددًا كبيرًا من الجمعيات الخيرية الصغيرة التي تأسست منذ بداية الصراع ربما تكون مصدرا للخطورة"**، موضحًا أنه: **"في تقديري أن ثمة 500 جمعية خيرية بريطانية تقول إنها تعمل في سوريا بشكل أو بأخر، من بينها 200 جمعية مشهرة منذ اندلاع الصراع هناك."**([70])

خاتمة:

لا شك في أن التشابك في العلاقات الدولية الذي وجدت بعض الجماعات نفسها جزءًا منه، وكذلك التحولات الإقليمية الدرامية منذ الغزو الأمريكي للعراق قد أدخل متغيرًا جديدًا على تمويل الجماعات الإرهابية، إذ وجدت طريقًا – أكثر من أي وقت مضى – إلى التقاطع مع مصالح أطراف عديدة مولت أو سهلت أو تغاضت أو ..... ومن هنا تأتي الصعوبة الرئيسة في عملية مكافحة تمويل الإرهاب: الأبواب المواربة.!

([70]) التليجراف: بالأسماء.. جمعيات خيرية بريطانية متورطة في تمويل داعش – تقرير – موقع مصر العربية – 3/ 11/ 2014 – محمد البرقوقي – الرابط: https://cutt.us/UGstQ

القاعدة وداعش

صراع الخرائط والأفكار والأجيال([71])

سنوات قليلة مرت منذ انطلاق شرارة الربيع العربي في تونس أواخر العام 2010 تحولت فيها موازين القوى، وتكاد تلحق بها بعض الخرائط، لكن التحول الأهم ربما كان انتقال الحركات الأصولية المسلحة من الهامش إلى قلب المشهد، وبخاصة في "**الهلال الخصيب**" (سوريا والعراق). ورغم تفاؤل كثيرين بأن اختفاء أسامة بن لادن من العالم (مايو 2011) يحمل "**رمزيا**" أملاً بأن يكون "**الربيع العربي**" قد انطوى على عملية تسليم وتسلم هادئة بين قوى التغيير السلمي والعنيف.

لكن التاريخ لا يسير في طريق خطي!

مراحل تطور الظاهرة الأصولية المسلحة:

إذا كان لنا أن نقسم – على نحو مقترح – مراحل تطور الظاهرة الأصولية المسلحة في علاقتها بدوائر الداخل (الوطني)، والخارج (العالمي) إلى

([71]) نشرت بدورية: "حالة الإقليم" – لمركز الإقليمي للدراسات – مصر – ونشر ملخصها على الموقع الإليكتروني للمركز في 24/ 3/ 2015.

مراحل متتابعة (مع الأخذ في الاعتبار أن الخطوط الفاصلة بين أية مرحلة والتي تليها هو افتراضي تمامًا، وأن مرحلة سابقة قد تستمر جزئيًا مع ميلاد التي تليها). ويمكن تقسيم المراحل على النحو إلى قسمين التالي:

أولاً: مراحل متعاقبة تحت شعار: "قتال العدو القريب".

الأولى: مرحلة "**النموذج الانقلابي**" أي حيازة السلطة عبر انقلاب عسكري لفرض "**التصور من أعلى**" بالقوة على المجتمع، ودشنها صالح سرية في مصر بمحاولة انقلاب فاشل 1974. (يمكن الرجوع ببداية هذه المرحلة إلى محاولة انقابية فاشلة شارك فيها القيادي الإخواني الفضيل الورتلاني في اليمن – فبراير 1948).

الثانية: مرحلة "**الثورة الإسلامية المسلحة**" حيث حاول تنظيما "**الجماعة**" و"**الجهاد**" المصريين تنفيذها في أكتوبر 1981.

الثالثة: مرحلة الجهاد في أفغانستان خلال ثمانينات القرن الماضي، وفيها تحولت الرؤية والخبرات الميدانية وجاء: "**العدو البعيد**" (الاتحاد السوفيتي) بنفسه إلى داخل الجغرافيا. وفي هذه التجربة بدأت تتبلور بشكل مبدأي فكرة "**الحركة الجهادية العالمية**".

الرابعة: مرحلة الصراع المسلح الممتد مع السلطة في الدولة الوطنية، وتعد التجربتان المصرية والجزائرية أكثر نماذجها تعبيرًا.

ثانيًا: عدة مراحل متعاقبة في مواجهة "العدو البعيد":

أولاً: مرحلة استهداف أهداف غربية إما لذاتها أو كورقة ضغط على "**العدو القريب**"، ويشار هنا بشكل خاص إلى "**مجزرة معبد الدير البحري**" (الأقصر – نوفمبر 1997).

ثانيًا: مرحلة تأسيس "**الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين**" (1998).

ثالثًا: مرحلة بناء "**حركة جهدية عالمية**" تتبع القاعدة بشكل تام أو تستلهمها. وتمتد حتى "**ثورات الربيع العربي**".

وجاء "**الربيع العربي**" ليطلق – وبخاصة بعد تعثره – مرحلة السيطرة الواسعة القلبلة للستمرار لفترة طويلة على "**أرض**"، ما مهد الطريق – لأول مرة منذ سقوط الخلافة العثمانية 1924 – للإعلان عن تأسيس خلافة إسلامية. وعند هذه النقطة أصبح تنظيم القاعدة الذي ارتبط بأول عملية "**عولمة**" حقيقية لظاهرة العنف الأصولي المسلح، في مواجهة تنظيم نشأ من روافد متعددة محلية وعابرة للحدود ليصبح الرقم الأكبر في معادلات القوة في الهلال الخصيب، وهو لاحقًا، قرر أن يرنو ببصره ودائرة تحركه ليؤسس "**عالمية أصولية جهادية جديدة**" تتقاطع مع النطاقين: الجغرافي والرمزي – الذي ظل تنظيم القاعدة يحتكره لسنوات طويلة، بلا منافس تقريبًا.

داعش من النشأة حتى مواجهة القاعدة:

ظهر تنظيم "**الدولة الاسلامية في العراق والشام**" (داعش) في إبريل 2013، ثمرة اندماج تنظيمي "**دولة العراق الاسلامية**" التابع لـ "**القاعدة**"

و"**جبهة النصرة**" السورية، إلا أن الجبهة رفضت الاندماج، لتندلع معارك بينهما (يناير 2014) لا تزال مستمرة. وقد اعترض "**داعش**" آنذاك – علنًا – على سلطة زعيم "**القاعدة**" ورفض الاستجابة لدعوته إلى التركيز على العراق وترك سورية لـ "**النصرة**". و"**داعش**" كان يعمل في العراق تحت اسم "**جماعة التوحيد والجهاد**" ثم تحوَّل إلى تنظيم "**القاعدة في بلاد الرافدين**" بعد تولي أبي مصعب الزرقاوي قيادته (2004) ومبايعته بن لادن. وبعد مقتل الزرقاوي (يونيو 2006) انتخب التنظيم أبا حمزة المهاجر زعيماً له. وبعد أشهر أعلن ميلاد "**دولة العراق الاسلامية**" بزعامة أبي عمر البغدادي، وبمقتله (إبريل 2010) تم اختيار أبي بكر البغدادي خليفة له.([72])

والمسميات العديدة التي اتخذها "**داعش**" خلال مراحل تطوره تشي بالقلق بحثًا عن دور أكبر وطموح باعد بينه وبين الجماعات الاسلامية المنافسة، وهي: "**حركة التوحيد والجهاد** – "**القاعدة في بلاد الرافدين**" – "**دولة العراق الاسلامية**" – "**الدولة الاسلامية في العراق والشام**" – "**الدولة الاسلامية**".([73])

إعلان الخلافة: معارك وتداعيات:

([72]) ما هو تنظيم "داعش"؟ مسيرته منذ الإنشقاق عن "القاعدة" وحتى إعلان "دولة الخلافة" – تقرير – جريدة الحياة اللندنية – ١١ / 6/ ٢٠١٤ – الرابط:
https://cutt.us/C3PjL

([73]) تنظيم الدولة الاسلامية يشق القاعدة – أحمد سليمان – الموقع العربي لهيئة الإذاعة البريطانية – بي بي سي – 20 أغسطس 2014 – الرابط
http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2014/08/140816_iraq

شكلت التداعيات السياسية والعسكرية في الهلال الخصيب وتشابكاتها المعقدة في إطلاق شرارة مواجهة بين: **"القاعدة"** و**"داعش"**. فالاستقطاب الطائفي في العراق وعسكرة الثورة السورية والغياب الواسع للدولة في الشرق السوري والمثلث السني في العراق كان **"فراغًا استراتيجيًا"** نجح داعش في تحويله إلى مشروع دولة لم يسبق لحركة إسلامية مسلحة أن امتلكت المسوغات الواقعية لإعلانها. وقد بدأ التدافع بمحاولاة احتواء (إبريل 2013)، عندما أعلن البغدادي أن **"النصرة"** امتداد لتنظيمه وأن التنظيمين اندمجا في: **"الدولة الاسلامية في العراق والشام"**. لكن **"النصرة"** رفضت الاندماج. وبعد الإعلان والرفض قرر البغدادي نقل نشاط تنظيمه إلى سورية، وسيطر على مناطق واسعة، واستعاد أسلوب الزرقاوي بتنفيذ اعدامات بحق عناصر من جماعات أخرى منافسة وقطع رؤوسهم في الساحات العامة. وفي فبراير 2014، تمكن مقاتلو **"داعش"** من اغتيال ممثل الظواهري في سورية المدعو (أبو خالد السوري) بتفجير في حلب. وبعد سيطرة **"داعش"** على مناطق واسعة من العراق أعلن في 29 يونيو 2014 قيام **"دولة الخلافة الاسلامية"** بقيادته، ومبايعة زعيمه أبي بكر البغدادي **"خليفة"** للمسلمين، وتغيير اسم التنظيم إلى **"الدولة الاسلامية"** فقط. وتطرق بيان **"داعش"** إلى **"الغاء الحدود"** بين العراق وسورية، ودعا المسلمين إلى الهجرة إلى **"دولة الخلافة"**.([74])

أصوليون يأكل بعضهم بعضًا:

([74]) **ما هو تنظيم "داعش"؟ مسيرته منذ الإنشقاق عن "القاعدة" وحتى إعلان "دولة الخلافة" – تقرير – جريدة الحياة اللندنية – مصدر سبق ذكره.**

وقد كان التقاطع الحتمي بين مساري: "**القاعدة**" و"**داعش**" موضوع تحليلات كثيرة خلال الأشهر القليلة الماضية، وحسب أحد هذه القراءات فإن داعش على الأرجح "**يطمح إلى ما هو أكثر من الاستيلاء على بعض المناطق هنا أو هناك، بل إنه يسعى لحل محل تنظيم القاعدة وانتزاع قيادة حركة الجهاد في جميع أرجاء العالم**". وفكرة توحد كل جهاديي العالم تحت لواء قائد واحد فكرة جديدة بل تبدو غير مألوفة؛ فما حدث بين الثمانينيات والتسعينيات من اتحاد عدد من الجماعات الإقليمية تحت إمارة بن لادن كان مجرد توافق في الأيدلوجيات عند بعض هذه الجماعات، وعند البعض الآخر كان احتياجًا للتمويل، لكن بن لادن – في النهاية – لم يتول راية القيادة فعليًا. وعقب 11/ 9 انقسم التيار الجهادي في العالم لقسمين رئيسين؛ الأول "**القاعدة**"، والثاني فروعه التي أعلنت استقلالها عن التنظيم الأم، مع التبعية تمويليًا ولوجستيًا. ومؤخرًا، حقق "**داعش**" انتصارًا حيث أعلنت جماعات كانت منتمية للقاعدة مبايعتها له. وبعد أن كسب ولاء جماعات في عدة دول، كان انتصارها الأكبر ضمها لمنظمات غربية مثل جماعة "**المهاجرون**" بقيادة البريطاني أنجم شودري. ورغم تلك المكاسب فإن عددًا كبيرًا من أبرز جهاديي العالم ما زال ولاؤهم للقاعدة.([75])

ومنذ إعلان الخلافة جذب التنظيم آلاف المقاتلين الأجانب من أكثر من 80 دولة، كما وطّد علاقته بتنظيمات في مختلف أنحاء العالم. (بوكو حرام/ نيجيريا، أنصار بيت المقدس/ مصر، جماعة أبو سياف/ الفلبين، جماعة أنصار

([75]) ف. بوليسي تكشف الصراع بين داعش والقاعدة – موقع مفكرة الإسلام – 3/ 9/ 2014 – الرابط:

http://www.islammemo.cc/akhbar/arab/2014/09/03/206635.html

الإسلام/ العراق، حركة مقاتلي بانجسمورو الإسلاميين من أجل الحرية/ الفلبين، شبكة مجاهدي شرقي اندونيسيا/ إندونيسيا، حركة أنصار الشريعة/ تونس، كتيبة عقبة بن نافع/ تونس، دعوة التوحيد والجهاد/ الأردن، جماعة الاعتصام بالكتاب والسنة السلفية/ السودان، جماعة خراسان/ سوريا، وجماعة تحريك الخلافة/ باكستان، كتيبة أبي محجن/ ليبيا).

"المقاتل" من القاعدة إلى داعش:

شهد عام 2014 خلطًا للأوراق وتراجعًا كبيرًا لزعامة **"القاعدة"** عالميًا، خصوصًا في العراق وسورية، لكنها ظلت قوية وخطيرة في اليمن. ويرى مختصون أن هجوم "**شارلي إيدو**" يهدف، ضمن ما يهدف، إلى أن تستعيد "**القاعدة**" زمام المبادرة، وبحسب ماتيو غيدير أستاذ العلوم الإسلامية في **جامعة تولوز** فإن هدف "**القاعدة**" أن **"يرد بعمليات شبيهة بتلك التي نفذها بين 2001 و2011"**، لكن **"الإمكانات التي يملكها تنظيم داعش تبقى أكبر من إمكانات القاعدة"**. من جانبها، اعتبرت إبريل لونغلي المختصة في شؤون اليمن العاملة في **مجموعة الأزمات الدولية (إنترناشنال كرايسس غروب)**، أن **"ضعف الدولة اليمنية.... يمنح تنظيم القاعدة فرصًا جديدة"**، وأنه يريد تصدُّر جبهة المواجهة مع الحوثيين، ما يتيح له ترويج خطاب **"طائفي"**

و"اكتساب حلفاء جدد"، وذلك "ليس بدافع إيديولوجي بل في مواجهة عدو مشترك".([76])

الأستاذ جان بيان فيليو في جامعة العلوم السياسية في باريس يرى أن هجمات باريس وقعت في إطار المنافسة بين الجهاديين. و"الرجل المحوري في هذه المؤامرة الكبيرة": بوبكر الحكيم، جهادي فرنسي تونسي الأصل كان يقاتل مع "القاعدة" منذ 2004، وهو "الشخصية المرجعية" للأخوين كواشي اللذين نفذا الهجوم، وقد تدربا لدى "القاعدة" في اليمن، و"من الطبيعي إذن أن يعمل تنظيم قاعدة الجهاد في جزيرة العرب على ضم عملهما إلى رصيده"، إلا أن بوبكر الحكيم المعروف باسم: "المقاتل"، بات في الأثناء "كادرًا محوريًا في تنظيم داعش..... نحن نشهد مزايدة" بين القاعدة التاريخي وداعش.. وقد ظهر الشريك الثالث في العملية أحمدي كوليالي في فيديو وهو يبايع زعيم "داعش".([77]) وقد رأت مجلة أتلانتك الأمريكية أن العملية كشفت أن خلافات "القاعدة" و"داعش" سياسية وشخصية لحد كبير، فبينما أعلن البغدادي رغبته في تأسيس الخلافة، كان الظواهري يريد إعلانها إمارة، ورفض الاعتراف بالبغدادي، وهناك ارتباك مبير في علاقتهما، فبينما تهنئ الأولى الثانية على نجاحاتها في سوريا والعراق، تدين أيضًا مواقفها وتوجهاتها

([76]) القاعدة وداعش.. مزايدة وتسابق في الساحة الباريسية الموقع الإليكتروني لقناة العربية (العربية نت) – 15/ 1/ 2015 – الرابط:
https://cutt.us/ZdzoN

([77]) القاعدة وداعش.. مزايدة وتسابق في الساحة الباريسية الموقع الإليكتروني لقناة العربية (العربية نت) – مصدر سبق ذكره.

الدينية.([78]) من ناحية أخرى، تخوض القاعدة حرباً جيوسياسية تسعى لرفع هيمنة الدول التي تسعى للحصول على دعم الخارج، بينما تخوض "**داعش**" حربًا "**هوياتية**"، ما يعطي أولوية للهوية النقية كممثل لأهل السنة، في مواجهة الهويات الاخرى. من هنا يقفان على طرفي نقيض من العلاقة مع إيران.([79])

جهاديو أفريقيا يودعون القاعدة:

بعض التحليلات تذهب إلى أن تأثير "**داعش**" فاق تأثير القاعدة "**الذي أصبح من الماضي**"، وبخاصة في إفريقيا، فمثلاً، "**بوكو حرام**" النيجيرية، وبحسب مدير **مركز إفريقيا** لدى "**المجلس الأطلسي للدراسات في واشنطن**" شجعته "**سيطرة التنظيم على مساحة شاسعة .... على القيام بالمثل في شمال نيجيريا**"، (يسيطر على حوالي 30 ألف كم). ويرى مايكل شوركين، الخبير بـ "**مؤسسة راند**"، أن "**داعش**" يمكن أن يشكل حافزًا وملهمًا لامتداد أكبر من "**القاعدة**"، فأجندته التي "**تركز على بناء دولة يمكن أن تحظى بدعم أكبر في إفريقيا، مقارنة بحملة التفجيرات التي تقوم بها القاعدة**". وهو يخلص إلى أن هذا مكمن "**النفوذ الفعلي لتنظيم داعش، إنه مصدر إلهام.. فكره هو**

([78]) "اتلانتك": عناصر "داعش" و"القاعدة" يكرهون الحداثة ونظرتهم "سوداوية" للعالم – علا عبد الله – جريدة المصري اليوم – 15/ 1/ 2015 – الرابط:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/630947

([79]) تنظيم الدولة الاسلامية يشق القاعدة – أحمد سليمان – الموقع العربي لهيئة الإذاعة البريطانية – بي بي سي – 20 اغسطس 2014 – الرابط
http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2014/08/140816_iraq

سلاحه الأقوى".([80]) وفي الجزائر مثلاً، توقّع قيادي في "**داعش**" أن إعلانها ولاية تابعة للتنظيم سيتبعه تكفير قيادي "**القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي**" إذا رفضوا المبايعة، وردت "**القاعدة**" بتوجيهات لفروعها لمقاطعة بيانات "**داعش**". وأوردت مواقع جهادية داعشية تصريحات للقيادي البارز فيه أبو محمد المقدسي، جاء فيه أن داعش "**يتجه إلى إصدار فتوى لتوحيد جميع الفصائل الجهادية وتكفير الرافضين لمبايعة أمير التنظيم البغدادي**"، وعلى أرسهم عبد المالك دروكدال وأيمن الظواهري،. وينذر هذا التصادم الجديد بتحول الجزائر لـ "**حلبة صراع**" بين "**القاعدة**" و"**داعش**".([81])

البحث عن انتصار عالمي:

وحسب تحليل لموقع **سي إن إن** العربي، يقول براين فيشمن، المحلل لدى "**مجلة مركز مكافحة الإرهاب**": "**داعش**" حازت ثقة سمحت له بإعلان معارضته أوامر "**القاعدة**"، وهو يرصد اختلافًا في الرؤى بين "**داعش**" و"**النصرة**" رغم تعاونهما الميداني، إذ تمثل النصرة ما وصفه المحلل الأمريكي بـ "**النموذج الأحدث لفروع القاعدة التي تميل إلى المزج بين الأهداف الدينية والدعوات الوطنية**" بينما تمثل "**داعش**" الوريث التقليدي لما كان يمثله قياديون

---

(80) كيف يسحب داعش البساط من القاعدة بإفريقيا؟ – تقرير – الموقع الإليكتروني لقناة سكاي نيوز عربية – 13/ 12/ 2014 – الرابط:
https://cutt.us/D4bEJ

(81) الجزائر قد تتحوّل إلى "حلبة صراع" بين "داعش" و"القاعدة": البغدادي "يكفّر" دروكدال –جريدة الخبر الجزائرية – 18 /11/ 2014 – الرابط:
http://www.elkhabar.com/ar/politique/434675.html

مثل أبو مصعب الزرقاوي، والنصرة تريد انتصارًا في سوريا، بينما تبحث داعش عن "**انتصار عالمي**".([82])

وقد تعددت ساحات الصراع لتشمل أفغانستان وباكستان – منطقة النفوذ التاريخية لتنظيم القاعدة – كما اتسع نطاقها لتشمل الهند والصين. ومؤخرًا خصصت "**القاعدة**" عددًا بالكامل من مجلتها "**ريسرجينس**" عن آسيا وبالتركيز على الصين. في المقابل قال البغدادي في تصريح له: "**إن حقوق المسلمين بالصين، والهند وفلسطين يتم انتهاكها ليلا ونهارًا**"، في إشارة إلى القمع الذى تمارسه الحكومة الصينية ضد الإيغور المسلمين،. القاعدة من جانبها ركزت على القضية نفسها بإفراد مقال لها بعنوان: "**10 حقائق غائبة عن تركستان**" في المجلة المشار إليها. ووفق دراسة لمعهد "**جايمس تاون**" فإن متطوعين صينيين مسلمين ومسلمين يقاتلون في صفوف داعش. وحسب الدراسة فإن بعضهم انضموا إلى داعش احتجاجًا على الدعم الرسمي الصيني لنظام بشار الأسد.([83])

([82]) تحليل: "داعش" و"النصرة" وصراع الرؤى داخل القاعدة – موقع سي إن إن العربي – 25 /11/ 2013 – الرابط:
http://archive.arabic.cnn.com/2013/middle_east/11/25/syria.al-qaeda-advance/

([83]) صراع الديوك بين "القاعدة" و"داعش" بالصين! – إيمان عمر فاروق – مجلة الأهرام العربي المصرية– 8/ 11/ 2014 – الرابط:
http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=1718631&eid=138

استخلاص:

الأرجح أن تأخذ العلاقة مسارها على النحو التالي:

- **اصطفاف حديد في التنظيمات الجهادية المحلية وفروع القاعدة تتسع فيها دائرة من يبايعون داعش.**
- **صراع إعلامي قد يصل إلى حد التبادل الواسع لفتاوى التكفير ودعوات المقاطعة المتبادلة بين الطرفين.**
- **نزوح لأفراد ومجموعات من القاعدة والتنظيمات المتحالفة معها للانضمام إلى داعش.**
- **عمليات عنف تخطط لها القاعدة – غالباً في الغرب – لاستعادة بريق الأسطورة الذي خبا بشكل ملموس بسبب نجاحات داعش.**
- **مساحة مناورة جزئية قد تراهن عليها القاعدة مع أطراف إقليمية بوصفها "الأقل وحشية".**
- **ازدهار مرجح بقوة لتنظيم القاعدة في اليمن دون غيرها من ساحات تحرك التنظيم، حيث ترى شرائح من "السنة في اليمن" أن القاعدة هي وحدها القادرة على مواجهة التمدد الحوثي.**
- **اهتمام متزايد من جانب داعش ببلورة أدبيات تستثمر ما حققته على الأرض و"تشرعنه" في مواجهة الخطاب الشرعي لخصومها.**

أجيال العنف: الاستمرار والتغير([84])

مدخل:

يشكل "**العنف**" ظاهرة متنامية في الحركة الإسلامية على المستويين النظري والعملي (عنف خطاب سقفه التكفير والاستباحة وعنف فعلي مسلح)، وهذه الظاهرة في الحقيقة ليست وليدة ظهور الجماعات التي ارتبطت بما يسمى: "**جماعات الإسلام السياسي**" التي درج الباحثون على اعتبار التنظيم السري المسلح لجماعة الإخوان "**النظام الخاص**" الذي أنشيء عام 1940 أول تنظيماتها. فمن ناحية الحقيقة التاريخية، فإن جمال الدين الأفغاني (1839 – 1897) أول من صك "**عملة الإرهاب**" بشكلها الحالي في الثقافة الإسلامية الحديثة، بوجهيها: العمل السري والتغيير بالعنف.([85]) وتعد التجربة المصرية –

([84]) نشرت بمجلة السياسة الدولية – مؤسسة الأهرام – مصر – العدد: 198 – أكتوبر 2014 – ص 72 – 77.

([85]) يشكل جمال الدين الأفغاني في تقديرنا واحدًا من أعقد إشكاليات الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، وقد أحدث تأثيرات نوعية لم تتم دراستها بشكل كافٍ، وبخاصة لجهة خطابه المراوغ الذي جمع بين: ديباجات دينية وسمات ثورية جذرية وأخرى تنويرية، فضلاً عن دوره في شيوع

إلى حد كبير – المرآة الأكثر قدرة على عكس صورة مسار الحركات الإسلامية في العالم كله، مع الإقرار بحقيقة أن انتقال الظاهرة إلى من مناطق أخرى من العالم خلق مسارات فرعية أو موازية. وفي مسار تاريخ مصر الوطني الحديث، **"يعود تشكيل أول جهاز فدائي أو سري خاص إلى حزب الوفد أثناء ثورة 1919. وقد تشكّل هذا الجهاز لاغتيال الجنود والضباط الإنكليز، فاغتال السير لي ستاك سردار الجيش المصري والحاكم العام للسودان. إلا أن الوفد استخدمه أيضًا ضد المنشقين عنه، فاتهم باغتيال حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدي في 17 تشرين الثاني /نوفمبر 1922، اللذين كانا ينتميان إلى حزب الأحرار الدستوريين المنشق عن حزب الوفد. وقد شكل الوفد في كانون الثاني يناير 1936 منظمة القمصان الزرقاء شبه العسكرية التي اضطلعت بأداء مهام الردع السياسي، وكان بإمكانها أن تحاصر بيوت قادة المعارضة وأن تطلق الرصاص عليها. إلا أن أول محاولة اغتيال سياسي سترتبط بمنظمة "القمصان الخضراء" التابعة لحركة مصر الفتاة، حيث حاول**

ثقافة "التنظيمات السرية" والتغيير بالعنف. ولمعلومات عن دوره في أول محاولة اغتيال سياسي في تاريخ الحركات الإسلامية، يمكن الرجوع إلى:

- من قضايا العلاقات الفارسية العثمانية: دور جمال الدين الأفغاني في حادث اغتيال شاه إيران عام 1896 – حسين أحمد أمين – جريدة الحياة اللندنية – 15/ 11/ 2002 – ص 15. وفيه – للمرة الأولى بالعربية – نصوص مقتطفات من التحقيقات الرسمية الإيرانية مع القاتل (ميرزا محمد رضا الكرماني).
- ذكرى أول اغتيال للإسلام السياسي قبل 118 عاماً بإيران – الموقع الإليكتروني لقناة العربية على الانترنت – 1/ 5/ 2014 – سعود الزاهد. الرابط: https://cutt.us/2PmWC

عز الدين عامر في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1937 أن يغتال النحاس باشا رئيس الحكومة الوفدية".([86])

و"تشكلت في فترة 1940 – 1942 عدة كتل إرهابية وطنية منظمة، استهدفت الجنود الإنكليز ومعسكراتهم، غير أن أول ظهور لجهاز سري في النصف الأول من الأربعينات ارتبط بالجهاز الخاص للمنظمة الصهيونية المصرية التي أعيد تشكيلها عام 1943. وقد قام جهازها بمحاولة تفجير قصر "أنطونياس" أثناء توقيع ميثاق تأسيس الجامعة العربية عام 1944، وباغتيال اللورد موين الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط. وفي النصف الثاني من الأربعينات الذي تميز بكثافة العنف السياسي وشدة مظاهره المختلفة .... ظهر نشاط الأجهزة السرية لكل من جماعة الإخوان المسلمين وحركة مصر الفتاة والحزب الوطني".([87])

وللوقوف عند هذه الحقائق أهمية منهجية تتمثل فيما يلي:

أولاً: أن الوصول إلى "خلاصات" (نتائج) تتصف بقدر كافٍ من العلمية لا يمكن فصله عن التعريف الدقيق للظاهرة، والتحديد الصحيح لسياقاتها التاريخية. ويغلب على قدر كبير من الكتابات التي تتناول "الظاهرة

([86]) الإخوان المسلمون: النشأة والتطور – مرحلة التأسيس – محمد جمال باروت – منشور في: موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الأولى – 2013 – إشراف: دكتور عبد الغني عماد – المجلد الأول – ص 198 – 199.

([87]) الإخوان المسلمون: النشأة والتطور – مرحلة التأسيس – محمد جمال باروت – منشور في: موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الأولى – 2013 – إشراف: دكتور عبد الغني عماد – المجلد الأول – ص 199.

الإسلامية" وبخاصة الجماعات العنيفة منها قدر كبير من "الشيطنة" بل أحيانًا "الغرائبية"، وفي الأولى يتم نزع الأفراد المنتمين إليها من إنسانيتهم وتصويرهم كشياطين، وفي الثانية يتم نزع الظاهرة من السياق التاريخي وتصويرها كما لو كانت عالماً لا تحكمه قوانين الاجتماع الإنساني.

ثانيًا: أن من الخطأ المنهجي تحييد البعد الأخلاقي في فهم الظاهرة، وبخاصة لجهة التفرقة أو التسوية بين "العنف المبرر وطنيًا" و"العنف المبرر دينيًا" وهي قضية شائكة في العديد من الثقافات في مختلف أنحاء العالم.

ثالثًا: أن رصد الثابت والمتغير في الظاهرة وهي قيد التشكل من المنزلقات المنهجية المعروفة، وبخاصة إذا كانت الظاهرة – ومنذ تأسيس ما يسمى: "الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين" عام 1998 – تمتد خريطة وجودها في قارات العالم كلها تقريبًا.

رابعًا: أن ظاهرة دراسة الجيل الحالي من تنظيمات العنف دونه أزمة حقيقية في "المصادر" التي هي ما بين: راويات أجهزة الأمن، وكتابات سيارة تفتقر إلى التحليل – وفي أحيان ليست بالقليلة تفتقر إلى الأمانة – وشهادات شخصية هي إما قاصرة أو محكومة بانحيازات أصحابها، وعليه فإن مثل هذه الدراسات تعتمد على جهد كبير للبناء على القليل المتاح.

خامسًا: أن بعضًا من المصطلحات التي يتم التعامل معها بوصفها "مفاهيم" ذات حدود واضحة هي في الحقيقة "أيقونات لغوية" في المقام الأول، وشيوعها لا يعني – بالضرورة – قابليتها للتداول كمفاهيم تحليلية.

العنف الإسلامي ميلادًا ومسارًا:

وقعت في مايو 1896 أول عملية اغتيال بأمر من زعيم ديني في تاريخ إيران وربما الشرق الأوسط، حيث قام ميرزا رضا كرماني، من طلاب العلوم الدينية بتاريخ الأول من مايو 1896 باغتيال أشهر ملوك السلالة القاجارية الحاكمة في إيران، ناصر الدين الشاه، وذلك بأمر من سيد جمال الدين الأفغاني الذي كان يرابط في اسطنبول حينها. وحسب هيلاري باركر، الخبيرة في الشؤون الإيرانية والأستاذة بـ "**جامعة كامبريدج**" البريطانية في كتابها: "**تاريخ إيران**"، فإن **"اغتيال ناصر الدين شاه القاجاري كان "سياسيًا" بامتياز لو قارناه بالملوك الذين سبقوه في التعرض للقتل في تاريخ إيران، حيث سقط هؤلاء ضحايا للصراع على السلطة بين الأسر الحاكمة أو الأسر التواقة للحكم، وليس بفتوى من مرجع ديني كجمال الدين الأفغاني، الذي كان ينشط بهدف إيجاد تغيير في العالم الإسلامي بأسره، ويئس من جعل الملك في خدمة مشروعه".**
وتقول باركر بخصوص الهدف من وراء الاغتيال: "**إنه كان اغتيالاً ثوريًا، ..... بدوافع سياسية عقائدية ..... وتم على يد رجل ثوري سبق أن تتلمذ على يد رجل عقائدي – سياسي"، "وفي التحقيقات التي قامت بها شرطة طهران، التي كانت تسمى حينها "نظمية"، حصل المحققون على إثباتات مادية تؤكد ارتباط ميرزا رضا كرماني، منفذ الاغتيال بمجموعة منظمة كان يقودها سيد جمال الدين الأفغاني من اسطنبول".**([88])

وفي هذه الواقعة المبكرة تبلور بشكل مبدئي السمات الأكثر ثباتًا حتى اليوم في فكر أجيال العنف وجماعاته المختلفة (حتى العام 1998):

([88]) ذكرى أول اغتيال للإسلام السياسي قبل 118 عاماً بإيران – الموقع الإليكتروني لقناة العربية على الانترنت – 1/ 5/ 2014 – سعود الزاهد. الرابط:
https://cutt.us/5jizk

1 – تنظيم سري أو تنظيم علني له جناح عسكري سري.

2 – مشروع يرى أصحابه أنه "الإسلام" وليس رؤية جماعة ولا اجتهاد فرد أو حتى فصيل اجتمع سراً على فكرة.

3 – هذه النوعية من الأفكار غالبًا يكون لدى أصحابها قناعة بفكرة ضرورة – ومشروعية – فرض قناعاتهم "من أعلى" بقوة السلطة، وبالتالي يصبح الوصول إلى السلطة (وصول تنظيم بعينه) الطريق الوحيد لنصرة الإسلام أو المشروع الإسلامي أو إقامة الدولة الإسلامية .... أو

4 – تشترك كل تنظيمات العنف المسلح الإسلامية في أنها تصنف كل من هو خارجها من الأفراد والجماعات (وطبعًا النظم السياسية) عقائديًا، وفقًا لما يخدم مشروعها.

وقد شكل "**الجهاد**" (وفق تصور كل جماعة أو تنظيم) حجر الزاوية في التصور النظري والفعل على الأرض، فالبعدان: الدعوي والإصلاحي أصبحا هامشيين في خطاب هذه الحركات والتنظيمات، وبخاصة ما نشأ منها بعد الحادي عشر من سبتمبر، حيث كانت الموجة الأولى منها حركات دعوية تحولت إلى العنف (كجماعة الإخوان المسلمين في تجربة النظام الخاص) أو حركات نشأت علنية وأنشأت لاحقًا جناحًا عسكريًا (كالجماعة الإسلامية المصرية)، أو رد الفعل المسلح على إلغاء نتائج الانتخابات البرلمانية الجزائرية مطلع تسعينات القرن الماضي. ومنذ وضع الدكتور صالح سرية: "**رسالة الإيمان**" عام 1973 والأدبيات المؤسسة للعنف التي تصدرها جماعات قائمة بالفعل لا تتوقف، وهو بنى رؤيته على نواة صلبة يمكن تلخيصها في أن "**الجهاد هو طريق**

إقامة الدولة الإسلامية، وأنه لا يجوز موالاة الكفار والأنظمة الكافرة، ومن فعل ذلك فهو كافر، وأن من مات دفاعًا عن حكومة كافرة ضد من قاموا لإقامة الدولة الإسلامية فهو كافر، إلا إذا كان مكرهًا".([89]) وقد جاء بعده منظرون كثيرون منهم: شكري مصطفى، ومحمد عبد السلام فرج، وصولاً إلى سيد إمام الشريف.

لكن هذه الأدبيات تكاد تكون إعادة إنتاج لما وضع نواته الأولى سيد قطب، وهو بالفعل صاحب أول تصور متكامل لفكرة الصراع الشامل بين تصور بعينه هو وحده المستحق وصف: "**الإسلام**" وبين ما عداه، وجميعه "**جاهلية**". ولأن الإسلام حسب تصور سيد قطب مهمته "**تغيير الواقع**"، فإن التوحيد يعني الثورة ضد الطغاة، واعتبار الخضوع للاستبداد شركًا في الله، وكلمة التوحيد هي الثورة ضد السلطات الدنيوية التي ما فتئت تغتصب أولى خصائص الحاكمية وثورة ضد اغتصاب التي تحكم بقوانينها الخاصة. لهذا فإن مهمة النبي ﷺ هي إقامة النظام الاجتماعي الإسلامي على أساسه الفلسفي، مما يتطلب استعمال القوة.([90])

وهنا تتضح سمة أخرى من الثوابت الفكرية لدى الحركات الإسلامية العنيفة هي تصور أن الإسلام مشروع ينتصر لـ "**الجماعية**" على "**الفردية**". وهذا الانحياز، الذي لا يدرك كثير من منظري جماعات العنف الإسلامي أنه

([89]) الحركات والتنظيمات الإسلامية في مصر – دكتور رفعت سيد احمد – منشور في موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الأولى – 2013 – إشراف: دكتور عبد الغني عماد – المجلد الثاني – ص 1619.

([90]) موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا – الدكتور أحمد الموصللي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الثانية 2005 – ص 77.

"**حاكم**" لمعظم تنظيراتهم، جزء من منظومة قيم هي في الحقيقة الجزء الأكثر تماسكًا في فكر هذا الفصيل من الحركات والتنظيمات، وإن كان كامنًا غير ظاهر، وهو في الحقيقة يبرر نظرة البعض إليهم بوصفهم "**حركات اجتماعية**" ذات ديباجات دينية. فبناء على مقولة "**بناء المجتمع الإسلامي**" التي صكها سيد قطب وهيمنت على العقل "**الجهادي**" (مع التجاوز) هي أحد الثوابت، وأيضًا أحد أهم أوجه تأزم هذا المسار برمته. وسواء أدركت هذه التنظيمات أو لم تدرك فإنهم يهدفون إلى القيام بعملية "**هندسة اجتماعية**" وفقًا لشروط مسبقة، بالضبط كما فعلت كل التجارب الشمولية (البائسة) التي حدثت على يد ستالين وهتلر وماو تسي تونج وعصابات الخمير الحمر في كمبوديا، وغيرها. وتبقى الديباجات الإسلامية قشرة تخفي تحتها: رؤية للذات، والآخر، والصواب، والحق، والمجتمع، والفرد، والحرية، والنظام، والدين، والأخلاق.... ، تستمد من ثقافة مادية مفرطة في غريزيتها وواحديتها، وهي بالتالي مرشحة لأن تكون مفرطة في العنف إلى حد الجنون.

ويمكننا دون عناء كبير أن نشير إلى أن رؤيتهم ترتكز على أسس أهمها:

1 – أن الصواب لا يتعدد فهو واحد مثل الحق، وهذه المطابقة بين "الصواب" و"الحق" تجعل وجود وجهات نظر أو أنماط سلوك مغايرة لما يريدونه "جريمة".

2 – إن الأخلاق تقوم على "المنع" لا على "الامتناع"، بالتضاد مع كل ما جاءت به الأديان السماوية من قواعد أخلاقية مؤسِّسة.

3 – إن العلاقة "آلية"، وهي بالتالي بسيطة ومادية، بين التقوى والنهضة، وبالتالي فإن الخيط الفاصل بين عالمي "الغيب" والشهادة يكاد يكون مطموساً.

4 – إن الإسلام تتحقق غايته من إعادة إنتاج "نمط حياة" سابق بتفاصيله كافة، والصواب أن ذلك يتحقق بإعادة الاعتبار إلى "معايير" هي أوسع دلالة بكثير من الأحكام الشرعية.

5 – إن العدو الرئيس هو في الخارج، غير المسلمين، العلمانيين، الغرب، الحكومات غير الإسلامية، وهؤلاء جميعًا قد يكونون خصوماً بدرجة أو بأخرى، (وبعضهم قد لا يكون). لكن العدو الحقيقي هو الشيطان، بالمعنى الحرفي للكلمة، فالأمة الإسلامية دفعت ثمنًا للتردي "الإنساني" الشامل في العالم الإسلامي أكبر بكثير من الثمن الذي دفعته نتيجة الاحتلال العسكري الغربي، أو التغريب، وهذا التردي مهد الأرض للعدو الأكبر وهو الاستبداد!

6 – إن الحياة كلها "ميدان حرب"، وبالتالي يجوز الاحتكام إلى قاعدة "الحرب خدعة"، وهو حديث صحيح للرسول ﷺ يتم اقتطاعه من سياقه لتبرير الغدر والاستباحة إزاء كل الأطراف. والحديث أقرب ما يكون إلى القاعدة العسكرية التكتيكية التي يتم الاحتكام إليها في "ميدان الحرب" لا في حالة الخصومة. والقرآن الكريم نهى النبي ﷺ عن الغدر، وأمره إذا شن حرباً على قوم أن ينبذ إليهم "على سواء".

7 – إن غياب الوحدة بين شعوب الأمة المسلمة يجيز لجماعة أن تنتدب نفسها (دون مبرر معتبر شرعاً أو عقلاً) لإعادة الأمة إلى حالة

الوحدة بالقوة. وفكرة أن تنتدب جماعة من الأمة نفسها للحرب نيابة عن الأمة دونما تفويض (بيعة) واضحة، هو في حد ذاته إنكار لفكرة "الأمة"، فالرسول ﷺ نفسه أقام تفرقة واضحة بين إيمان الأنصار به كـ "نبي" معصوم فأخذ منهم بيعتي العقبة الأولى والثانية، ومع وجود البيعة والعصمة والتأييد من السماء، ومع ثبوت إيمان الأنصار بالوحي وبالشواهد العملية المحسوسة، وبعد نزول الإذن من السماء للمسلمين بالقتال: "أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا"، مع كل هذه الحقائق، استشار النبي الأنصار في الحرب قبل غزوة بدر.([91])

الثابت والمتغير: مقولة الجيل الثالث (نموذجًا):

وفي إطار ما شهدته السنوات التي تلت حوادث الحادي عشر من سبتمبر من توسُّع خارطة الجماعات الإسلامية المسلحة وتعدُّد خطاباتها وترامي خرائط وجودها الفعلي وتداخل قوائم أهدافها على نحو غير مسبوق ظهرت محاولة لتصنيف الجماعات في فئات، وهي محاولات لها سوابق كثيرة قبل هذا التاريخ، لكنها أصبحت ضرورة أكثر إلحاحًا مع التغيرات المتسارعة على التحولات في هذه التنظيمات التي توالدت من انشقاقات تنظيمية وخلافات فكرية متعددة. وعلى الأرجح فإن مقولة "**الجيل الثالث**" استخدمت للمرة الأولى في العام 2005، وقصد بها الإشارة إلى "**المجموعات الجديدة التي بدأت في الظهور في مصر وارتكاب عدة تفجيرات في أواخر العام الماضي، في**

(91)"الداعشية": إعادة إنتاج نمط "ما قبل المدينة" – ممدوح الشيخ – 29/ 6/ 2014 – الموقع الإليكتروني لمركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة بالإمارات:

الرابط: http://www.futurecenter.ae/analys.php?analys=152

سيناء، ثم تفجيرين في القاهرة في أهم ميادينها السياحية والتاريخية، وهجوم انتحاري قامت به فتاتان منقبتان في ميدان السيدة عائشة بمصر القديمة مؤخرًا".([92]) وقد ظهر اتجاه عام في "**الخطاب الإعلامي**" آنذاك يعتبر أن هناك تغير نوعي خطير في عمليات العنف التي كان يقوم بها الجيلان، الأول والثاني، فلأول مرة يواجه الأمن عمليات انتحارية صريحة، ولأول مرة أيضًا تشترك النساء في تلك العمليات الانتحارية، بل حمل السلاح واستهداف حافلات سياحية كما فعلت فتاتا السيدة عائشة، ثم الانتحار قبل أن تقعا في قبضة الأمن. وقد انطلق هذا "**الخطاب الإعلامي**" من تقسيم جيلي متسرع استمد معطياته من نظرة الأمن إلى هذه الجماعات.

- **الجيل الأول يمثله الاخوان المسلمون.**
- **الجيل الثاني يتمثل في جماعات: الجماعة الإسلامية والجهاد والتكفير والهجرة وطلائع الفتح.([93])**

والتقسيم – كما أسلفنا – يعكس رؤية أجهزة الأمن ولا يتأسس على رؤية موضوعية لثوابت رؤية هذه الجماعات التي قدمت "إجاباتها" المختلفة إلى

([92]) الجيل الثالث من الإرهابيين: ...خلايا جديدة أم خلايا كامنة للجماعات الإسلامية؟ (ملف) – فراج إسماعيل – مجلة المجلة اللندنية. نقلاً عن: موقع إيلاف الإخباري – 24/ 5/ 2005. الرابط:

http://www.elaph.com/NewsPapers/2005/5/64287.htm?sectionarchive=NewsPapers

([93]) الجيل الثالث من الإرهابيين: ...خلايا جديدة أم خلايا كامنة للجماعات الإسلامية؟ (ملف) – فراج إسماعيل – مجلة المجلة اللندنية. نقلاً عن: موقع إيلاف الإخباري – 24/ 5/ 2005. الرابط:

http://www.elaph.com/NewsPapers/2005/5/64287.htm?sectionarchive=NewsPapers

حد كبير على قضايا مثل: أولوية "**العدو القريب**" أم "**العدو البعيد**"؟ كفر المجتمعات أم كفر الأنظمة السياسية (قضية العذر بالجهل)؟ كما أن مبرراتها لاستخدام العنف تراوح بين "**وجوب العنف**" بوصفه "**جهاد طلب**" وبين اللجوء الاضطراري إليه بوصفه نوعاً من "**دفع الصائل**"، كما تأرجح موقفها من قضية نسخ أحكام المرحلة المكية بـ "**آية السيف**": "**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**"([94]) وغيرها من القضايا التي شكل الموقف منها تحولات في مسار الظاهرة. الباحث عمرو الشوبكي قدم اجتهادًا أكثر تماسكًا في إطار مفهوم هذا التقسيم الجيلي، معتبرًا أن: "**تنظيم داعش (الدولة الإسلامية فى العراق والشام) يمكن وصفه بأنه الجيل الثالث من سلسلة التنظيمات الجهادية التى عرفها العالم العربى منذ بداية السبعينيات، فالخبرة الأولى كانت فى مصر مع تنظيمات العنف الدينى الجهادية التى مارست عمليات إرهابية منذ عصر السادات وحتى نهاية الألفية الماضية. والحقيقة أنه حين ظهر تنظيم الجهاد والجماعة الإسلامية بصورة كاملة في السبعينيات، كان لكل منهما مشروع عقائدي وسياسي استند على أسس فقهية وتفسيرات دينية منحرفة، كفروا من خلالها السلطة الحاكمة باعتبارها لا تطبق شرع الله، وطالبوا بمحاربتها، ولم يكفروا المجتمع كما فعلت جماعة المسلمين – التى عُرِفت إعلاميًا بالتكفير والهجرة**".([95])

([94]) سورة التوبة: 36.

([95]) "داعش" الطبعة الجديدة من الجماعات المسلحة – مقال – دكتور عمرو الشوبكي – جريدة المصري اليوم – 18/ 6/ 2014. الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/466605

وظهر كتاب: "**الفريضة الغائبة**" الذى اعتبر الجهاد فريضة غائبة لا يطبقها المسلمون، ويجب استعادتها مرة أخرى، كما قدم قادة "**تنظيم الجهاد**" عشرات من الأفكار التى تدعو إلى قتال الحاكم الذى لا يطبق شرع الله، وكذلك فعل تنظيم "**الجماعة الإسلامية**" الذى قدم وثيقته الشهيرة: "**ميثاق العمل الإسلامي**"، وتبنى التوجه نفسه، أى ضرورة محاربة الحكام الذين لا يطبقون شرع الله، لكنه كان أكثر مرونة من الناحية التنظيمية والعقائدية من تنظيم الجهاد، فضم أعدادًا أكبر وحقق انتشارًا أوسع من تنظيم الجهاد. وقامت هذه التنظيمات بتجنيد آلاف العناصر فى بنية تنظيمية محكمة، يقودها مستوى قيادى مركزى وعناصر وسيطة وقواعد منتشرة، وتم تكوينهم عقائديًا من أجل خوض مواجهة مسلحة مع كل خصومهم فى الدين (الأقباط)، والسياسة (الدولة والعلمانيين)، بالإضافة إلى الأبرياء من المواطنين العاديين الذين سقطوا ضحية هذا العنف الآثم. الأمر نفسه حدث، وإن كان بصورة أكثر حدة ودموية فى الجزائر، حين نجحت الدولة فى كسر شوكة الجماعة الإسلامية المسلحة التى مارست إرهابًا غير مسبوق فى تاريخ الجزائر والعالم العربى طوال سنوات التسعينيات، أو ما عرف بـ "**العشرية السوداء**"، وراح ضحيته ما يقرب من 100 ألف قتيل.([96])

من التغيير إلى الانتقام:

([96]) "داعش" الطبعة الجديدة من الجماعات المسلحة – مقال – دكتور عمرو الشوبكي – جريدة المصري اليوم – 18/ 6/ 2014. الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/466605

على خلاف التقسيم الأمني سالف الذكر يرى الشوبكي أن بداية الموجة الثانية من الإرهاب فى مصر بدأت مع حادث طابا الذى جرى فى 6 أكتوبر 2004، وأعقبه اعتداء الأزهر وميدان عبد المنعم رياض العام الماضى، وجاء بعدهما اعتداء سيناء الثانى فى شرم الشيخ فى 23 يوليو 2005، وأخيرًا، اعتداء دهب فى ذكرى عيد تحرير سيناء فى 2006، وهو ما أكد تغير شكل الإرهاب ودوافعه، فهو أولا يغلب عليه الطابع الفردي لأشخاص لا ينتمون إلى أى من التنظيمات الجهادية الكبرى، وليس لهم أى رغبة أو حتى حرص على صياغة مشروع فكري أو عقائدي يوضح الهدف النهائي من ممارسة هذا العنف، وهم لا يتحملون البقاء لفترة طويلة في تنظيم محكم بهيراركية صارمة، وشاهدنا عملية انتقال من مرحلة "**الفكر الجهادي**" إلى عصر "**الفعل الجهادي**"، وأصبح "**الجهاد**" في الحالة الجديدة "**مهمة فردية**" تمثل نوعًا من الخلاص الفردي الذي يصنع – أو يبرر – حادثة فردية، ولا يحمل أى رؤية جماعية أو مشاريع عامة لتغيير المجتمع أو إسقاط النظام كما فعل أعضاء التنظيمات الجهادية فى الثمانينيات، أو "**تنظيمات الانتقام**" مع أنصار بيت المقدس في مصر، أو "**داعش**" في العراق. وهذه الخلايا الإرهابية التي عرفتها مصر طوال العقد الماضي محدودة الأهداف، لا تعمل – ولا تقدر – على إسقاط النظام القائم، إنما هي ترغب أساسًا في إيذائه أو الانتقام منه. وهي خلايا متحركة تؤسس للقيام بعملية أو أكثر ولا يوجد لها أي أدبيات عميقة، إلا تلك العموميات التى تطرحها شبكات القاعدة عبر النت. ويرى الشوبكي أنه، مع بدايات الألفية الثالثة، ظهرت الطبعة الجديدة للإرهاب في العالم عقب اعتداءات 11 سبتمبر، فقد اتضحت قوة "**الإرهاب المتعولم**" العابر للحدود والقارات، والذي نجح في ضرب قلب الولايات المتحدة الأمريكية، وانتشر في

كل بقاع الأرض، وبخاصة العالم العربي، وجاء إلى العراق مع الغزو الأمريكي، وإلى مصر مع الحكم الإخواني، وتحولت الحرب الأمريكية على الإرهاب في أفغانستان والعراق إلى أحد أهم مصادر الإرهاب في العالم كله.([97])

أما الطبعة الثالثة، حسب الشوبكي، فتمثلت في ظهور تنظيمات جهادية مسلحة، امتلكت حاضنة اجتماعية وسياسية دعمتها بدرجات متفاوتة، ففي مصر تواطأ عدد من قادة جماعة الإخوان المسلمين مع أنصار بيت المقدس، وتركوا لهم سيناء يمرحون فيها ويبنون حاضنة اجتماعية، سرعان ما تراجعت (دون أن تختفي) بعد سقوط حكم الإخوان وقيام الجماعة بعمليات إرهابية داخل سيناء وخارجها. أما في العراق، فتعمقت الحاضنة الاجتماعية لـ "**داعش**" نتيجة الحكم الطائفي هناك، وتحالفهم مع ثوار العشائر الذين اضطهدهم المالكي طوال السنوات الماضية.([98])

العنف العشوائي والعالم الافتراضي:

الباحث المتخصص في شئون الحركات الإسلامية الدكتور ناجح إبراهيم يعيد التقسيم الجيلي إلى سياقه المصري، ويقدم اجتهادًا لمفهوم: "**الجيل الثالث**" من أجيال العنف الإسلامي ("**جيل العنف المسلح الفردي والعشوائي**") **من**

([97]) "داعش" الطبعة الجديدة من الجماعات المسلحة – مقال – دكتور عمرو الشوبكي – جريدة المصري اليوم – 18/ 6/ 2014. الرابط:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/466605

([98]) "داعش" الطبعة الجديدة من الجماعات المسلحة – مقال – دكتور عمرو الشوبكي – جريدة المصري اليوم – 18/ 6/ 2014. الرابط:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/466605

خلال "حالة" (أحمد عبد الرحمن)، الذي قتل بيده 14 ضابطًا وأمين شرطة.. وأصاب 6 ضباط وجنود من الجيش.. وكان يهوى قتل هؤلاء برصاصات فى الرأس.. وهو لا يعرف شيئًا عن الذين قتلهم أو أصابهم ولم يجالسهم من قبل أو يناقشهم فى شيء ولا يعرف عن دينهم أو أخلاقهم شيئًا .. وكان يكفيه فقط أن يرتدى أحدهم الزى الميرى للشرطة أو الجيش ليكون مبررًا لديه بقتله مباشرة".([99]) ويستخلص الدكتور ناجح إبراهيم من هذه الحالة سمات هذا الجيل، فهو جامعي (أزهري) عاطل فقير مكث في معسكرات التدريب في رفح بسيناء بعد ثورة 25 يناير عامًا كاملاً يتلقى على مهل فقه التكفير مغموساً بعلم التفجير والقتل فى معسكرات لا يقربها أحد من الجيش والشرطة لمدة 3 سنوات كاملة.. وأول دروسها التكفير بالجملة للجيش والشرطة والأحزاب السياسية فى كل الدول العربية وليس مصر. وهو أيضًا ذهب إلى سوريا ومكث هناك عامًا ونصف العام. وأستاذه في التكفير والاغتيال، الذي كان يقود له الموتوسيكل (في عمليات الاغتيال)، لم يحصل إلا على دبلوم تجارة.. وأستاذه الآخر، خال زوجته، هو الذى قتل المجندين البسطاء فى كمين بني سويف.([100])

الباحث الأردني محمد أبو رمان يستخدم تعبير "**الجيل الثالث**"، في إطار تطور تنظيم القاعدة، وهو يعتبر الدور الكبير لشبكة الانترنت في ظهور هذا

([99]) احمد عبد الرحمن.. أين الخلل؟! – مقال – دكتور ناجح إبراهيم – جريدة المصري اليوم – 9/ 4/ 2014. الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/426131

([100]) احمد عبد الرحمن.. أين الخلل؟! – مقال – دكتور ناجح إبراهيم – جريدة المصري اليوم – 9/ 4/ 2014. الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/426131

الجيل مرتكزًا من المرتكزات الرئيسة للمفهوم، حيث تشكل الشبكة ركنًا رئيسًا من أركان عمل القاعدة ونشاطها وخطابها الإعلامى، وقدرتها على التجنيد، والتعبئة، وتبادل الخبرات، والتواصل الحواري بين أتباعها عبر المنتديات والمشاركات بأسماء وهمية، والتواصل المشفر فى التخطيط لعمليات، والتنسيق التنظيمي. ووفرت شبكة الإنترنت، عقب الحرب على أفغانستان، منبرًا بديلاً لأتباعها وأنصارها لتبادل المعلومات والروايات وخوض الحرب النفسية، فى مواجهة المؤسسات الإعلامية الضخمة التى تنحاز إلى الطرف الأمريكى وقوانين مكافحة الإرهاب، التي تحد من نشر مواد القاعدة ودعايتها على الفضائيات العربية والعالمية. وقد تجاوزت القاعدة التنافس الإلكتروني والنجاح في خوض الحرب الإعلامية – النفسية مع أكثر الأجهزة الأمنية والإعلامية مهنية وتقنية في العالم، بل تمكنت من تطوير قدراتها الأمنية على الشبكة العنكبوتية، وأدواتها التقنية، وتنويع استخداماتها للفضاء "**الإلكتروني**" ليصبح في مرحلة لاحقة أحد أهم أركان عمل القاعدة، وأصبح مفهوم: "**الجهاد الإلكتروني**" راسخًا فى أدبياتها الإعلامية. وقد عملت السلفية الجهادية (وهى الفضاء الأيديولوجي لتنظيم القاعدة) على عولمة حركيتها وفعاليتها فى سياق الاستجابة والرد على عولمة سياسة "**الحرب على الإرهاب**"، وأظهرت قدرة فائقة على التكيف والنمو والتجدد بعد تعرضها لضربات عسكرية وأمنية أسفرت عن مقتل واعتقال عدد من قياداتها البارزة فى شتى أنحاء المعمورة (بعد دخول القوات الأمريكية وقوات حلف الناتو إلى أفغانستان عقب هجمات الحادى عشر من سبتمبر 2001). إلا أن فقدان القاعدة ملاذها الآمن ومركزيتها فى أفغانستان عمل على إحياء الجدل بين منظريها حول موضوع مركزية التنظيم الذى كان يدافع عنه أبو بكر الناجي في كتابه: "**إدارة التوحش**"، ولا مركزيته الذي تبناه "**أبو مصعب**

السوري" في كتابه: "**دعوة المقاومة الإسلامية العالمية**". ويبدو أن تنظيم القاعدة قد زاوج بين الأطروحتين، إذ سرعان ما تبنى استراتيجية تعدد الملاذات، وبدأ بإنشاء فروع متعددة في العراق والمغرب العربي وجزيرة العرب.([101])

وبيت القصيد هنا – حسب أبي رمان – أن "**فقدان الملاذات**" في العالم الواقعي منح أهمية استثنائية وحيوية للملاذات الآمنة في العالم الافتراضي. وتحتوى هذه المراكز والمواقع والمنتديات على مكتبة هائلة وواسعة وديناميكية تختص بالأيديولوجيا والخطاب، وآليات التجنيد، والتمويل، والتدريب، والتخفى، والتكيكات القتالية، وصنع المتفجرات، وكل ما يلزم الجهاديين فى عمليات المواجهة فى إطار حرب العصابات وسياسات الاستنزاف. إلا أن نقطة التحول النوعية الجديدة تتمثل في تزامن عدة عمليات نوعية للقاعدة ترتبط جميعها بصورة أساسية بدور جديد لشبكة الإنترنت، يتجاوز التوظيف والتعبئة إلى صناعة ملامح لجيل ثالث ينتمي بصورة أساسية في بداياته وتطوره وصياغة شخصيته إلى مواقع القاعدة والمنتديات الجهادية.([102]) وقد أثارت ثلاث عمليات منفصلة استهدفت الولايات المتحدة، عشية أعياد الميلاد ورأس السنة نهاية عام 2009، تساؤلات كثيرة حول طبيعة التحولات العميقة التي طرأت على استراتيجيات وتكتيكات تنظيم القاعدة القتالية. وهي أكدت التحولات العميقة في بنائها ومدى جاذبيتها الأيديولوجية وقدرتها على خلق نماذج مبتكرة غير

([101]) تنظيم "القاعدة" والإنترنت. تدشين "الجيل الثالث" من الجهاديين – محمد أبو رمان – مجلة السياسة الدولية – مصر – إبريل 2010. الرابط:

http://www.ahramdigital.org.eg/articles.aspx?Serial=147976&eid=6738

([102]) تنظيم "القاعدة" والإنترنت. تدشين "الجيل الثالث" من الجهاديين – محمد أبو رمان – مجلة السياسة الدولية – مصر – إبريل 2010. الرابط:

http://www.ahramdigital.org.eg/articles.aspx?Serial=147976&eid=6738

مألوفة، قادرة على التجدد والتخفى، وابتداع طرائق وممارسات هجومية فائقة الدقة والقوة. وقد تصبح العمليات التى نفذها نضال حسن، وعمر الفاروق، وهمام البلوي([103])، دالة على نموذج إرشادي يتسم بالجدة والفرادة في التجنيد والتنفيذ والأهداف. وتفضى قراءة هذه النماذج التفسيرية إلى التعرف على مدى التطور والقدرة على إبداع وسائل وتقنيات مبتكرة لدى **"جهاديي المستقبل"** ضمن شبكة القاعدة العالمية الهلامية. فالعامل المشترك الذى يجمع بينها هو الدخول فى أفق الفضاء السيبيري. وكرست تلك العمليات ولادة نموذج جديد غير تقليدى يرهق أعتى الأجهزة الاستخبارية العالمية، إذ اعتادت على التعامل مع عدو واضح المعالم، وتنظيمات لديها هيراركية هيكلية، وقيادات ورموز واقعية معروفة في أماكن جغرافية محددة. إلا أن النموذج الجديد (الذى أصبح إرشاديًا) لا يقوم على الجماعات المنظمة في العالم الواقعى، وإنما على الأفراد في العالم الافتراضي. وتتميز ظاهرة **"الجهاد الفردي"** بأنها لا تخضع للتنميط، وأعضاؤها ينحدرون من خلفيات اجتماعية متنوعة غير مهمشة اقتصاديًا. ولا تتوافر لدى الأجهزة الاستخبارية قاعدة معلومات خاصة بها، فأعضاؤها ربما يكونون خاملين في العالم الواقعي، وناشطين في العالم الافتراضى، ويتمتعون بقدرات علمية وتقنية عالية فى مجال الاتصالات. ويشهد العالم الافتراضى ظهور موجات من القيادات الافتراضية، ومنهم: أبو بكر الناجى، وأبو عبيد القرشى، وحسين بن محمود، وعطية الله وعبد الرحمن الفقير، ويمان مخضب، وأسد الجهاد 2. وتكشف النماذج التفسيرية لجهاديي المستقبل في العالم الافتراضى، الذي وفرته العولمة والثورة الاتصالية، عن تحولات عميقة فى بنية القاعدة والسلفية الجهادية

([103]) اسهمت هذه العمليات في صك مصطلح: "الذئاب المنفردة".

على صعيد الوعي الأيديولوجي والعمليات الحركية. فـ "**الشهيد المفترض**" مكلف في العالم الافتراضي، ويصبح مسئولاً عن العالم الواقعي.([104])

خاتمة:

لقد ضاعت محددات التقسيم الجيلي لجماعات العنف ما بين: "**الفقهي**" و"**التنظيمي**"، وما بين تحولات الاهداف وتطور الوسائل، وما بين اعتبارات التوسع الكبير في نطاق انتشار الظاهرة/ الظواهر. ويبقى أن الجماعات المسلحة قد مرت بتطورات في سياقها العالمي (وسياقاتها المحلية)، فمقولة "**الأسلمة**" أثمرت ظهور تنظيم الجهاد المصري في التأسيس الأول (1958) والثاني (1966). وفقه التكفير في كتابات سيد قطب وشكري مصطفى (فضلاً عن التعذيب الوحشي في سجون عبد الناصر) أثمرا خليطًا من المقولات تم استدعاؤها انتقائياً من تاريخ الفقه الإسلامي وإسقاطها على الواقع دون تدقيق، منها: "**دفع الصائل**" و"**قتال الطائفة الممتنعة**" أثمرت المواجهة الطويلة مع "**العدو القريب**" في مصر (1990 – 1997). ومع انتقال قسم لا يستهان به من كوادر تنظيم الجهاد إلى أفغانستان وتحالفهم مع تنظيم القاعدة (1998) وتأسيس ما سمي: "**الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبين**"، حلّ "**العدو البعيد**" محل "**العدو القريب**"، في انتقال يعكس الانتقائية بأكثر مما يعكس تحولاً موضوعيًا. ومع الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق تشابكت أوراق العدوين: القريب والبعيد، ليظهر عنف أوسع انتشارًا وأشد ضراوة تتلوه التبريرات، ولا تسبقه التصورات.

([104]) تنظيم "القاعدة" والإنترنت. تدشين "الجيل الثالث" من الجهاديين – محمد أبو رمان – مجلة السياسة الدولية – مصر – إبريل 2010. الرابط:

http://www.ahramdigital.org.eg/articles.aspx?Serial=147976&eid=6738

وتمثل تجربة أبي مصعب الزرقاوي وموقف القاعدة المعلن منه نموذجًا للتناقضات داخل الجيل الواحد والجماعة الواحدة، وهو ما تكرر بتفاصيل مختلفة بين القاعدة وداعش وجبهة النصرة، حيث الواقع هو الفاعل الحقيقي والخطاب الفقهي مجرد ديباجات، وأحيانًا **"ورقة توت"** لا تكاد تستر العورة. وقد شهدت جماعات العنف الإسلامي تحولات أسهمت فيها الجغرافيا بشكل رئيس: أفغانستان – العراق – البلقان – سوريا ...... حيث الأوراق مختلطة بين العدو القريب والدو البعيد، بين العقائدي والمذهبي، وفي بعض الحالات بين العقيدي والمذهبي، وبقي الخطاب الفقهي بين هذه العوامل واحدًا من المؤثرات بعد أن كان يبدو **"المعيار الحاكم"**.

لعل التحول من الواقعي إلى الافتراضي يكون أحد السمات المهمة التي تشير إلى تحول نوعي، فهو من ناحية منح التنظيمات ذات البنى التنظيمية وسائل أكثر فعالية، فيما أصبح عند أجيال تالية من ممارسي العنف عالما بديلاً عن التنظيم.

المصادر:

1 – من قضايا العلاقات الفارسية العثمانية: دور جمال الدين الأفغاني في حادث اغتيال شاه إيران عام 1896 – حسين أحمد أمين – جريدة الحياة اللندنية – 15/ 11/ 2002 – ص 15. وفيه – للمرة الأولى بالعربية – نصوص مقتطفات من التحقيقات الرسمية الإيرانية مع القاتل (ميرزا محمد رضا الكرماني).

2 – ذكرى أول اغتيال للإسلام السياسي قبل 118 عاماً بإيران – الموقع الإليكتروني لقناة العربية على الانترنت – 1/ 5/ 2014 – سعود الزاهد.
الرابط:
https://cutt.us/uR9t8

3 – الإخوان المسلمون: النشأة والتطور – مرحلة التأسيس – محمد جمال باروت – منشور في: موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الأولى – 2013 – إشراف: دكتور عبد الغني عماد.

4 – الحركات والتنظيمات الإسلامية في مصر – دكتور رفعت سيد أحمد – منشور في موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الأولى – 2013 – إشراف: دكتور عبد الغني عماد.

5 – موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا – الدكتور أحمد الموصللي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الثانية 2005.

6 – "الداعشية": إعادة إنتاج نمط "ما قبل المدينة" – ممدوح الشيخ – 29/ 6/ 2014 – الموقع الإليكتروني لمركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة بالإمارات.
الرابط:
http://www.futurecenter.ae/analys.php?analys=152

7 – الجيل الثالث من الإرهابيين: ...خلايا جديدة أم خلايا كامنة للجماعات الإسلامية؟ (ملف) – فراج إسماعيل – مجلة المجلة اللندنية. نقلاً عن: موقع إيلاف الإخباري – 24/ 5/ 2005. الرابط:

http://www.elaph.com/NewsPapers/2005/5/64287.htm?sectionarchive=NewsPapers

8 – الجيل الثالث من الإرهابيين: ...خلايا جديدة أم خلايا كامنة للجماعات الإسلامية؟ (ملف) – فراج إسماعيل – مجلة المجلة اللندنية. نقلاً عن: موقع إيلاف الإخباري – 24/ 5/ 2005. الرابط:

http://www.elaph.com/NewsPapers/2005/5/64287.htm?sectionarchive=NewsPapers

9 – "داعش" الطبعة الجديدة من الجماعات المسلحة – مقال – دكتور عمرو الشوبكي – جريدة المصري اليوم – 18/ 6/ 2014. الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/466605

10 – أحمد عبدالرحمن.. أين الخلل؟! – مقال – دكتور ناجح إبراهيم – جريدة المصري اليوم – 9/ 4/ 2014. الرابط:

http://www.almasryalyoum.com/news/details/426131

12 – تنظيم "القاعدة" والإنترنت. تدشين "الجيل الثالث" من الجهاديين – محمد أبو رمان – مجلة السياسة الدولية – مصر – إبريل 2010. الرابط:

http://www.ahramdigital.org.eg/articles.aspx?Serial=147976&eid=6738

المقدس والحرية:

سؤال الحداثة ومعارك العصر الحجري![105]

قبل نهاية التسعينات بقليل قامت إحدى الجمعيات الثقافية المصرية بتنظيم مؤتمر حول "التعبير"، وخلال التحضير ثار نقاش محتدم حول الاسم، واستقر الرأي على أن يكون "**مؤتمر الحق في التعبير**" وليس "**حرية التعبير**". وفي مداخلة له أوضح المستشار طارق البشري الفروق الدقيقة بين دلالة كل من التعبيرين قائلاً إن "**الحق في التعبير**" مقصود به السماح والاجازة. الحق لا بد أن يقابله واجب. وإذا كانت الحرية رخصة يستخدمها من يريد كيفما يشاء فلا بد أن يكون لها حدود وأن تقف عند الحقوق والعصم الخاص بالآخرين ولذلك فلا وجود للحرية المطلقة بلا حدود.[106]

---

(105) نشر في: مجلة اتجاهات الأحداث – دولة الإمارات العربية المتحدة – مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة.

(106) جدل حول الإبداع بين الحرية والمصادرة – تقرير – جريدة الجزيرة السعودية – 18/ 5/ 2001 – العدد: 10459 – الرابط:
http://www.al-jazirah.com/2001/20010518/wn7.htm

الصراع على حدود الأشياء:

والنقاش القديم/ الجديد الذي أثارته جريمة الاعتداء على "**شارلي إبدو**"، يطرح قضيتين مهمتين لا يستقيم – في تقديري – جعل العلاقة بين "**المقدس**" و"**الحرية**" موضوعًا للاجتهاد دون التوقف أمامهما، الأولى:

1 – الصراع الذي تشهده الثقافة المعاصرة حول "**حدود الأشياء**".

والقصة الواردة في السطور السابقة "**عينة**" لسجالات أخرى مماثلة متفاوتة الحجم بتعريف الأشياء وحدودها. ولأن الواقعة بحكم حقائق الجغرافيا وقعت "**هناك**" في الشمال/ الغرب فإننا "**هنا**" في الجنوب/ الشرق ننظر إليها وفقاً لمنظور مغاير، صحيح أن رفض الإرهاب أمر متصل بالفطرة والمعايير الأخلاقية التي يمكن القول بأنها "**كونية**"، لكن التفسير دائمًا يدقق في التفاصيل لا يتوقف أمامها يقف موقف "**التقييم**" بما يتصف به عادة من تجريد وعمومية. من ناحية أخرى فإن ما أسميه: "**الجغرافيا الجديدة للأديان**" قد جعلت ظواهر الاجتماع الديني أكثر تعقيداً لأسباب يأتي في مقدمتها حضور "**الآخر الديني**" على المستويين الحقيقي والافتراضي على نحو غير مسبوق.

الانقلاب التنويري:

ومن ناحية التاريخية/ المعرفية يى الدكتور فهمي جدعان أن يرى الأكاديمي المعروف الدكتور فهمي جدعان أن "**الحداثة**" التي اقترنت بـ "**الأنوار**"

(أي التنوير) قلبت حدود العلاقة بين "**المقدس**" و"**الحرية**" على نحو بيّن.([107])
فهي في حقيقة الأمر أحدثت وقائع جديدة قامت بإقصاء "**الديني**" ونصبت العقل إمامًا وحاكمًا وأقرت حقوقاً للإنسان، وجعلت حق الحرية في الاعتقاد والتعبير حقاً "**مقدسًا**". وفي مواطن الحداثة، أي في الغرب، استخدم "**الفكر الحر**" هذا الحق استخدامًا مطلقًا. وفي مجراه المرتبط بسلطة "**الوحي**" وبمؤسسة "**الكنيسة**"، تصد هذا الفكر، مع فولتير، إلى القضاء على "**الدجال**"، ونعت المقدس الديني وأهله بأقذع النعوت وأعنف الأقوال، وأذيعت المصنفات التي "**تؤنسن**" المسيح أو تضعه في موضع الشك أو الازدراء أو السخرية، وحفلت الأدبيات الغربية بما لا عدَّ له ولا حصر من الكتابات المضادة للألوهية وللدين وللمقدس.([108]) و"**المقدس وجه جوهري للدين وعماد أساسي من أعمدته. والمؤمن يتمثل هذا المعنى تمثلاً دقيقاً شاملاً، ويخضع له على وجه التبجيل والاحترام والمحبة والخوف والرهبة والتسليم. وفي الإيمان الإسلامي – الذي هو موضوع القول هنا – يدخل في باب المقدس: الموجود الأول، الله السامي، الجليل، العليّ أو المفارق، وجملة من الموجودات "الوسيطة" – الملائكة والأنبياء – وما ينقلونه عن الموجود الأول، الله، من أقوال أو "نصوص" أو "وحي"، ويدخل في الباب نفسه أمكنة يجي احترامها وعدم خرق طهارتها ونقائها وقدسيتها كبيت المقدس، والكعبة والبيت الحرام ....
ومن أحكام المقدس ومنطقه أنه يتعين احترامه بإطلاق والانحصار عن**

([107]) المقدس والحرية وأبحاث ومقالات أخرى من أطياف الحداثة ومقاصد التحديث – فهمي جدعان – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – الطبعة الأولى – 2009 – ص 19.

([108]) المقدس والحرية وأبحاث ومقالات أخرى من أطياف الحداثة ومقاصد التحديث – مصدر سبق ذكره – ص 21 – بتصرف يسير.

مساءلته أو مناقشته أو الدخول معه في سجال – وهو ما خرقه بإرادته وحريته، إبليس على سبيل المثال – أي أن الإجلال والخضوع والصمت هي المظاهر والمواقف التي ينبغي أن تحكم علاقة "الدنيائي" وأهله بالمقدس. فلا "فسق" ولا "فجور" ولا "جدال" ولا تعدٍّ أو تطاول بالقول أو بالفعل أو الانفعال على المقدس."([109])

جدل العام والخاص:

ويستطرد جدعان: "ذلك هو المثال والأصل. أما الواقع فإنه يتردد بين هذا المثال وبين نقائضه ومضاداته. إذ هو ليس خالصًا للتسليم والتصديق والصمت والخضوع والإيمان..... أما الأزمنة الحديثة، بنت (الحداثة) و(الأنوار)، فقد أنجبت "حقوق الأنسان برؤوس عدة، في مقدمتها "الحريات الأساسية". وعلى رأس هذه الحريات "حرية التعبير" بأشكالها الوادعة الآمنة وبأشكالها الخارقة لكل الحدود".([110]) وما يلخصه الدكتور جدعان بشكل دقيق وواضح هو عملة، أحد وجهيها انقلاب جذري في الموقف من "المقدس"، والوجه الآخر اختلاف يصل حد التناقض في رؤية المقدس بين "مكة" و"باريس". وكلا الوجهين معاً يشكلان أحد أهم أسباب المواجهة المستمرة التي لا تكاد تتوقف فصولها حتى اليوم. والتحول المشار إليه

([109]) المقدس والحرية وأبحاث ومقالات أخرى من أطياف الحداثة ومقاصد التحديث – فهمي جدعان – سبق ذكره – ص 22 – 23 .

([110]) المقدس والحرية وأبحاث ومقالات أخرى من أطياف الحداثة ومقاصد التحديث – فهمي جدعان – سبق ذكره – ص 23 – 24 .

يشير إلى انتقال من "**حالة خاصة**" هي: "**الصراع مع الكنيسة والمسيحية الكاثوليكية**" بالتحديد إلى صراع مع كل المقدسات الدينية، وهنا تنتقل إلى قلب "**الدوجما التنويرية**"، ما يتنافى مع مقولة "**عقلانية الحداثة**"، إذ هي في طبعتها الفرنسية تنطوي على رافد "**أصولي سلفي**" بكل ما يحمله التعبير من معانٍ صادمة!.

وهذا الانتقال من خصوصية التجربة الأوروبية المتعينة زمانًا ومكانًا إلى تعميم كوني كاسح لفت نظر الدكتور إبراهيم البحراوي فكتب معقبًا: "**إنني أفهم أن المناداة بحرية التعبير على لسان فولتير وفلاسفة الثورة الفرنسية على الملكية المستبدة كانت موجهة ضد الخماسية الشيطانية، وهي: الاستبداد والقهر والفساد والانحطاط وانحطاط الفكر الكنسي والتحالف بين الكهنة والملوك ضد الشعب ...... ترتيبًا على هذا، فإنني أعتقد أن بين المثقفين الفرنسيين والمثقفين العرب والمسلمين مهمة مشتركة، وهي مهمة بلورة إدراك أمرين في الشرق وفي الغرب معًا، الأمر الأول أن الاعتداء على معتقدات الآخرين ومقدساتهم باسم حرية التعبير والعلمانية أمر لا يندرج بأي حال من الأحوال ضمن نطاق الخماسية الشيطانية المذكورة سلفًا، بأي حال وبأي درجة**".([111])

ونحن هنا بإزاء "**حقيقة مضمرة**" هي القناعة بأن التجربة الغربية الأوربية (الأزمة والحل معًا)، نافية لما سواها من التجارب والرؤى، بمعنى أنها المعيار الوحيد والنموذج الوحيد، وتلك "**امبريالية ثقافية**" مدانة أخلاقيًا ومتهافتة

---

(111) نداء للفرنسيين: احترموا عقائدنا يا أحفاد فولتير – د. إبراهيم البحراوي – مقال – جريدة المصري اليوم المصرية – 20/ 1/ 2015 – ص 13.

منطقيًا، بمعيار العقل الذي جعلوه هم أنفسهم "**حاكمًا**". وكما هو اجتهاد كاتب المقال، يضع الدكتور فهمي جدعان القضية في باب "**الصراع على حدود الأشياء**"، فبعد أن يورد أمثلة عديدة من كتب ومواد إعلامية وفنية يقول: "**ما سقت يكفي يكون شاهداً للسؤال الذي أقصد إثارته وعرضه في هذا القول: في حدود التسليم بحق التعبير لجميع أفراد المجتمع، ما هي طبيعة المشكل الذي تثيره هذه الحرية حين تخرق حواجز "المقدس الديني" بأداة اللغة العنيفة، أو اللوحة التصويرية المسيئة .....**"([112])

غياب التوافق العقلاني:

وقد لخص برايان كينج عضو كلية الفلسفة بجامعة أوكسفورد البريطانية في مقال يشير عنوانه إلى "**الهيستريا الأخلاقية**" في شعار "**أنا شارلي**". وقد طرح برايان سؤالاً افتراضيًا حول رد الفعل المحتمل لظهور شخص في قلب الحشد المهيب الذي تصدَّره الرئيس الفرنسي ملوحًا – فجأة – بـ "**مسدس لعبة**" وحاملاً لافتة كتب عليها: "**أنا شريف**" (نسبة إلى أحد القتلة)، ويتساءل كينج: "**هل كان سيضحك المتظاهرون و"يستظرفونه" عندئذٍ .. فيعتبرون أن "دمه خفيف" أو على الأقل يمارس بشكل لائق حقه المكفول في حرية التعبير؟**"([113])

([112]) المقدس والحرية وأبحاث ومقالات اخرى من أطياف الحداثة ومقاصد التحديث – مصدر سبق ذكره – ص 27.

([113]) بين شارلي وداعش والعقلانية الكونية – مقال – د. عمرو الزنط – جريدة المصري اليوم المصرية – 24/ 1/ 2015 – ص 15.

وما يريد أن يصل إليه كينج هو أن من تظاهروا من أجل "**شارلي**" لا يؤمنون فعلاً بحرية التعبير المطلقة.. لكنهم لا يدركون ذلك، لأنهم "**لا يعرفون أنفسهم جيدًا**"، ولذلك تدفعهم عواطف نابعة عن تخيُّل أنهم يدافعون عن قيم الحرية بشجاعة، في حين أن كل ما يفعلونه هو تأجيج صراع دون داعٍ. ويعقب الباحث المصري الدكتور عمرو الزنط على هذا التحليل قائلاً: "**حجة كينج قوية، لكني أعتقد أن الأمر لا يتعلق بعواطف شعورية هدامة تحرك فريق "شارلي" بقدر ما يتعلق بتناقض جذري بين القيم والمعايير الأخلاقية التي يتبناها ذلك الفريق وبين تلك التي يتشبث بها من قام بالعمليات الدموية ومن أيده. لذلك فما يعتبره أحد الأطراف من الممنوعات التي تتطلب العقاب، يعتبره الآخر حرية رأي. وفي غياب إمكانية التوافق العقلاني يؤدي هذا التناقض إلى المأساة**".([114])

وغني عن البيان أن هذا يعني القراءة المركبة للواقعة لا الاكتفاء بتفسيرها بمنطق "**أمني**"، فالإرهاب مدان وهذا واجب أخلاقي، وتقصي أسباب الصدام واجب معرفي.

حضارة غربية أم تشكيلات حضارية غربية؟

القضية الثانية التي تثيرها واقعة شارلي إيبدو وما تبعها من تداعيات وما أثارته من سجالات: التباين الثقافي الذي أصبح واضحًا إلى حدٍ كبير بين

([114]) بين شارلي وداعش والعقلانية الكونية – مقال – د. عمرو الزنط – مصدر سبق ذكره.

تشكيلين حضاريين كبيرين يشكل كلٌّ منها جناحًا من جناحي طائر كبير هو الغرب. فالمحيط الأطلسي يتكرس وضعه كحاجز فاصل بين: **"التشكيل الحضاري الإنجلوسكوني"** و**"التشكيل الحضاري الأوروبي"**. ووسط السيل الهادر من الأدبيات التي أطلقتها الحادثة ثمة مؤشرات تقطع بأن الحق في التعبير، وفقًا للرؤية والممارسة، تشهد تنطوي على تباين بين شرق الأطلنطي وغربه، ففي قلب موجة التضامن الهادرة مع المجلة الفرنسية كان هناك أصوات غربية تعتبرها شريكاً في المسئولية عما حدث. فعلى سبيل المثال، ومع انتشار الشعارين المتشابهين: **"أنا شارلي إبدو"** و**"كلنا شارلي إبدو"** كتب ديفيد بروكس مقالاً في صحيفة **نيورك تايمز** الأمريكية عنوانه: **"أنا لست شارلى إبدو"** أكد فى بدايته، على أحقية ما يحظى به صحفيو أسبوعية **"شارلى ابدو"**، من حفاوة واحتفال بوصفهم **"ضحايا حرية التعبير"**، لكنه اعتبر ذلك ينطوى على قدر من النفاق بالنسبة للأمريكيين الذين لا يعملون هذا القدر من التسامح تجاه حرية التعبير المطلقة. وفي سياق المقارنة بين شرق الأطلسي وغربه قال إن هؤلاء الصحفيين إذا حاولوا نشر صحيفتهم الساخرة فى الحرم الجامعى لأى جامعة أمريكية خلال العقدين الأخيرين، فإنها **"لن تستمر لمدة 30 ثانية"**، مستطردًا: **"كانوا سيواجهون اتهامات من قبل الطلاب وأعضاء هيئة التدريس بالترويج لخطاب يحض على الكراهية، ومن ثم ستوقف الإدارة تمويل الصحيفة وتغلقها"**. وأضاف: **"الأمريكيون قد يمدحون شارلى إبدو لكونها امتلكت شجاعة كافية لنشر رسوم كاريكاتورية تسخر من النبى محمد، ولكن، إذا دعيت أيان علي (صومالية ارتدت عن الإسلام وتسيء له) إلى الحرم الجامعى فى أمريكا، غالبا ستعلو الأصوات التى تستنكر وجودها على**

المنصة". وتوجه بروكس للقارىء الأمريكي بالقول: "**إن كنت وضعت على صفحتك بالفيسبوك، أمس، عبارة (انا شارلى إبدو)، فإنى أرى أنها لم تكن دقيقة بالنسبة لمعظمنا، لأننا لا نشارك فعلياً فى هذا النوع من السخرية الهجومية التى تتخصص فيها تلك الصحيفة**".([115])

العلمانية حل أم مشكلة؟:

التليجراف البريطانية كانت أكثر ميلاً للتأصيل متوجهة بالنقد المباشر إلى "**العلمانية**" كشريك في المسئولية، تحت عنوان: "**شارلي إيبدو: العلمانية ليست الحل، بل المشكلة**"، معتبر أن نبذ الغرب للمؤمنين بوجود إله يجعل الأمر صعبًا أمام إمكانية الانسجام مع الإسلام، اللازم لتماسك النسيج الاجتماعي. ونقلت عن يعقوب ويسبرج، رئيس تحرير **صحيفة سليت** الأمريكية قوله إن "**أفضل رد على هجوم شارلي إبدو – خلاف مطاردة ومعاقبة القتلة – هو انتقاد الكفر**". وشددت **تليجراف** على ضرورة الموازنة بين حرية التعبير والحاجة للتماسك الاجتماعي في أوروبا، التي تعتبر الإله "**متوفيًا**" و"**تقدس**" الكفر منذ عقود طويلة، لاسيما أن العداء للإيمان هو بالتأكيد أحد الأسباب التي تجعل من المستحيل الاندماج مع المجتمع الإسلامي.([116])

([115]) كاتب أمريكي: انا لست شارلى – جريدة الشروق المصرية – 11/ 1/ 2015.

([116]) تليجراف: العلمانية وراء الهجوم على "شارلي إبدو" – موقع مصر العربية الإخباري – 9/ 1/ 2015 – حمزة صلاح – الرابط:

https://cutt.us/YYGUu

وأشارت الصحيفة إلى محاضرة شهيرة – أثارت جدلاً كبيرًا - للبابا بنديكت السادس عشر ألقاها في جامعة ريغنسبورغ الألمانية (عام 2006) عن التوترات بين الإيمان والعقل، اعتبرها اليساريون والإسلاميون تشويهًا عنصريًا للإسلام، لكنها أظهرت حقيقتين مفيدتين جدًا لأوروبا التي تسعى لتحقيق الانسجام بين المجتمعات، هما:

1. الفرق الرئيس بين المسيحية والإسلام هو أن المسيحية في أوروبا قائمة على الاتجاهات الفلسفية الإغريقية المعتمدة على العقلانية، التي تحابي السلطة العلمانية، بينما يؤكد الإسلام أن إرادة الله تعالى نافذة، ولا تتوقف على عقلانية الناس، مع وجوب عدم انتقاد الذات الإلهية.

2. يتخذ المجتمع الأوروبي العلم حقيقة أكثر حسمًا من الإيمان، مع ضرورة تهميش الإيمان وفصله عن الفكر، بما يعني أن أوروبا لم تعد تتفهم الحركات الدينية – مثل الإسلام – التي تؤمن بحزم بوجود إله، وفي الواقع تمثل العلمانية المتشددة في أوروبا إهانة، حيث تعتبر الثقافات الدينية في العالم استبعاد الإله من شمولية العقل هجوماً على قناعاتها العميقة. والمسلمون ليسوا وحدهم من يجدون أنفسهم في صراع من النظام الجديد في أوروبا، وإنما يعاني الكاثوليك أيضًا نتيجة هذا النظام من حين لآخر.(117)

الأزمة في مرآة إنجلوسكسونية:

(117) تليجراف: العلمانية وراء الهجوم على "شارلي إبدو" – موقع مصر العربية الإخباري – مصدر سبق ذكره.

وفي إشارات واضحة إلى ما نعتبره تمايزًا واضحًا بين الرؤيتين الأوروبية والإنجلوسكسونية، نتوقف أمام ما يلي:

- **أصدرت جامعة "أوكسفورد" البريطانية المرموقة بياناً تمنع فيه المؤلفين من الكتابة عن أي شيء ذي صلة بالخنزير أو لحمه في كتبهم واضعة "الثقافات الأخرى" في عين الاعتبار. وذلك بهدف تفادي أي هجوم سياسي من اليهود أو المسلمين.([118])**
- **وجهت الكاتبة البريطانية الشهيرة جي كاي رولينج مؤلفة سلسلة "هاري بوتر" واسعة الانتشار انتقادات حادة لقطب الإعلام روبرت ميردوخ على خلفية تغريدات له على موقع "تويتر" للتواصل الاجتماعي اتهم فيها المسلمين جميعًا بالإرهاب. ومما ردت به على ميردوخ قولها: "إذا كانت غالبية المسلمين تتحمل مسئولية أفعال قلة متطرفة، فالمسيحية تتحمل وزر محاكم التفتيش الإسبانية وعنف المتشددين المسيحيين".([119])**
- **قرر ناشر صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية، دين باكي، عدم نشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للإسلام والمسلمين حول الرسول الكريم التي سبق أن نشرتها الأسبوعية الفرنسية "شارلي**

([118]) أوكسفورد تحظر الكتابة عن الخنازير – جريدة الأهرام المصرية – 18/ 1/ 2015 – ص 8.

([119]) مؤلفة "هاري بوتر" توبخ ميردوخ – جريدة الأهرام المصرية – 13/ 1/ 2015 – ص 8.

إيبدو". وأوضحت الصحيفة موقفها هذا بأن الامتناع جاء بالنظر إلى طابعها المسيء للمسلمين، وبطرق لا تخلو من قذف وقدح مجانين. وحسب الموقع الإلكتروني للصحيفة الأمريكية المشهورة قال الناشر: "إننا نعمل منذ مدة انطلاقًا من المبدأ التالي: هناك فرق بين السبّ المجاني والسخرية. وأغلب هذه الرسوم (الكاريكاتورية) سبّ وقذف".([120])

- وتحت عنوان: "الحساسية الدينية والصواب السياسي يحكمان خطاب الصحافة البريطانية" أجملت جريدة العرب اللندنية التوجه الغالب على موقف الإعلام البريطاني من إعادة نشر رسوم شارلي إبدو كموقف تضامني قائلة: "الصحف البريطانية تتجنب إعادة نشر صور مستفزة للمسلمين منتهجة بذلك سياسة التنوع الثقافي، رافعة شعار "عش ودع غيرك يعيش". فبعد إدانة الهجوم على المجلة الفرنسية الساخرة، اتخذت غالبية الصحف البريطانية قرارها بعدم إعادة نشر صور شارلي إيبدو، موضحة أن سياستها التحريرية ترفض استفزاز مشاعر أصحاب الديانات. وفي إشارة إلى الفارق المذكور سلفًا بين جانبي الأطلنطي في ما يتصل بحرية التعبير تصف المسافة بين الرؤيتين قائلة: "ما بين الشجب المطلق للعنف والتجنب المحسوب لدعم موقف مجلة شارلي إيبدو من نشر رسوم الرسول محمد هوة

([120]) "نيويورك تايمز" ترفض نشر رسوم "شارلي إيبدو" احتراما للمسلمين – جريدة النهار المغربية – 11/ 1/ 2015.

عظيمة". وتتوخى فرنسا – رغم فشلها الذريع – "التكامل" الثقافي بين الأديان والأعراق على حين تنتهج بريطانيا سياسة أقل طموحًا، هي سياسة "التنوع" ولا يعبأ واضعو السياسيات إن عاش الطرفان في دائرتين منغلقتين لا تَواصل لإحداهما مع الأخرى. وقد حاولت الجرائد القومية، ذا إنديبيندنت وذا صن وذا ميرور وذا أوبزرفر، ألا تستفز أي فريق. وسارت على الحبل في توازن، أدانت العنف، وفي الوقت ذاته أوحت برفضها لاستثارة العنف من قِبل صحفيين يثيرون استياء العالم الإسلامي. ووصمت ذا تايمز الجريمة بأنها "هجوم على الحرية"، لكنها وصفت رسوم شارلي إيبدو بـ "الاستفزازية"، "مع كامل رفضهم للعنف". جريدة الغارديان بدورها علقت على الحدث بكارتون خاص بها، يحمل الصحيفة المسؤولية عن سفك الدماء، وفيه يوحي الفنان بأن رسامي الكاريكاتير جلبوا لأنفسهم الخطر، وكذا لزملائهم، "إن الرسوم مثلها مثل المتفجرات" على حد تعبير ستيف بيل فنان الكاريكاتير بجريدة الغارديان.([121])

وتبقى المعايير، والصراع على "حدود الأشياء" ساحة الصراع الحقيقي، وإن غلبت قراءات القراءات أخرى على الخطاب السائد.

([121]) الحساسية الدينية والصواب السياسي يحكمان خطاب الصحافة البريطانية – تقرير – جريدة العرب اللندنية – 14/ 1/ 2015 – الرابط:
http://alarab.co.uk/m/?id=42694

في نقد خطاب الإسلاميين الإعلامي[122]

مدخل:

في الثلاثين من ديسمبر نشرت مجلة **المجلة** اللندنية مقالاً عنوانه: "**باسم يوسف وإبراهيم عيسى.. وفضائيات الشرعية!**"بتوقيع "**الملاحظ الصحفي**". وهذا المقال الصغير يلخص – إلى حدٍّ كبير – حالة الخطاب الإعلامي الإسلامي خلال العام المنصرم. ومما توقف أمامه الكاتب أن موقع يوتيوب الشهير تنتشر في همشاهد مقتطعة من برامج فضائية تناصر الإخوان المسلمين، وتهاجم منتقديهم خصوصاً من الإعلاميين. في أحد هذه المقاطع قال أحد الضيوف الذي يبدو أنه من أشد المناصرين والمتحمسين للدفاع عن الإخوان بأن المعلق باسم يوسف صاحب برنامج البرنامج "**رجل خبيث**" وتحداه أن يقرأ الفاتحة!

ويضيف الكاتب: "**صدمت من هكذا حوار في محطة تلفزيونية يشاهدها الملايين، ولكن الصدمة زالت عندما رأيت مجموعة أخرى من اللقطات، التي تستخدم اللغة نفسها غير اللائقة في مهاجمة المعترضين على**

([122]) نشرت في تقرير "الإسلاميون في عام" (2014) – مركز صناعة الفكر – الرياض/ بيروت. ونشر على الموقع الإليكتروني لمركز صناعة الفكر – الرابط:
http://www.fikercenter.com/ar/p/studies/view/ds87f9g

حكم الرئيس مرسي، **لاكتشف أن هذا هو سلوك جديد في الإعلام الإخواني بعد الانتخابات**". في مقطع آخر، ضيف متحمس يقول إنه "**سيضرب إبراهيم عيسى بالجزمة**" بغرض تأديبه، وعندما اعترض عليه المذيع، كان رده أن "**الجزمة**" لن تجرحه، بل مجرد الصفع بغرض التهذيب!

أحد الصحافيين المصريين اعترض على مثل هذا الأسلوب التشنيعي الاتهامي المتصاعد في "**الفضائيات الإسلامية**" المصرية، مشيرًا إلى عدم معرفة هؤلاء بما هو مسموح وممنوع في الصحافة، وهم الجدد عليها.([123]) وهذه القنوات الفضائية كانت في الحقيقة الوسيط الرئيس الذي استخدمه الإسلاميون خلال 2013، في غياب دور يذكر لهم في عالم الإعلام المقروء، فضلاً عن أن هذه القنوات كانت خلال 2013 طرفًا في معارك ضارية وسمت أداءها خلال هذا العام بسمات خاصة. وتغطي هذه الورقة بشكل رئيس الخطاب الإعلامي للإسلاميين في ضوء التجربة المصرية، أخذاً في الاعتبار أن البيان الذي ألقاه الفريق أول عبد الفتاح السيسي مساء الثالث من يوليو 2013 معلنًا عزل الرئيس الدكتور محمد مرسي تبعه مباشرة إجراءات عملية لوقف بث القنوات الفضائية الإسلامية، وكذلك جريدة "**الحرية والعدالة**" التابعة لـ "**جماعة الإخوان المسلمين**". وهذه القنوات هي: (مصر 25) التابعة للإخوان المسلمين، و(الرحمة) و(الحافظ) و(الناس) و(الخليجية) التابعة للتيار السلفي، كما تمت

([123]) راجع الرابط:

http://www.majalla.com/arb/2012/12/article55241190

مصادرة الطبعة الثانية من جريدة "**الحرية والعدالة**". وهو ما انتقدته 7 منظمات حقوقية مصرية في بيان مشترك.([124])

وقد تحوَّل معظم الإسلاميين منذ الثالث من يوليو إلى وسائط بديلة معظمها في عالم الإعلام الإليكتروني، فيما استمرت جريدتا "**الشعب**" الناطقة باسم حزب الاستقلال (العمل سابقًا) المنضوي ضمن "**التحالف الوطني لدعم الشرعية**" وجريدة **الفتح**" السلفية. وعليه فإن التحليل سوف شكل الخطاب الإعلامي الإسلامي حتى الثالث من يوليو.

حدود معنى "الخطاب الإعلامي":

يذهب الباحثون في اتجاهات متعددة في تعريف "**الخطاب**" وتحديد حدود استعمالاته، فهناك من يتناوله من زاويه فلسفية، وهناك من يتناوله من زاويه سيميائية، وهناك قليل من يتعامل مع الخطاب من زاوية اتصالية، وهو ما يهمنا في هذا المقام. والخطاب وفق الفهم الأخير: "**مجموعة المفردات التواصلية المعبرة عن الرسالة الاتصالية التي يتداولها الشركاء في أية منظومة اجتماعية محددة**". ويعد الخطاب، وفق هذا التوصيف، نتاجًا مشتركًا بين صاحب الخطاب وجمهوره المستهدف والبيئة أو المناخ السائد، أي أنه نتاج مشاركة بين المرسل والمستقبل والبيئة الاتصالية "**فمن بين ما ينتهي إليه الاتصال المشاركة في المعاني أي المشاركة في المعلومات أو الافكار أو المهارات أو الميول أو**

([124]) 7 منظمات حقوقية تدعو لإعادة بث الفضائيات الإسلامية ومحاسبة إعلامييها "المحرضين" – جريدة المصري اليوم – 6/ 7/ 2013 – تقرير: محمد ماهر.

الاتجاهات أو المشاعر (بين المرسل والمستقبلين)".([125]) والطريق إلى حقائق التخاطب كما قال الدكتور طه عبد الرحمن يشمل: "التبليغ، وتبليغه تنشأ فيه المعاني مشتركة بين ذوات مختلفة، فيه "التدليل"، وتدليله يجعل من كل قول "دليلاً" على "مدلول" يطلبه الغير في نفسه أو في أفقه، وفيه التوجيه، وتوجيهه يبث في الأقوال فيما ستنهض همة الغير للعمل"([126]). والخطاب الإعلامي كما حدّده أحمد العاقد: "مجموع الأنشطة الإعلامية التواصلية الجماهيرية: التقارير الإخبارية الافتتاحيات، البرامج التلفزية، المواد الإذاعية وغيرها من الخطابات النوعية".([127])

ويمكن تحديد أهم الاهداف التي يستخدم الخطاب الإعلامي لتحقيقها فيما يلي:

1 – الوظيفة الإخبارية أو الإبلاغية: وهدفها إبلاغ المتلقي مضمون الخطاب ومحاولة التأثير فيه.

2 – الوظيفة الانشائية: وتمثل جوهر مضمون الخطاب. إذ يصاغ المضمون بشكل يجعله مناسبًا لمحاولة إحداث التأثير في المتلقي، وإن هذه الوظيفة تجعل مضمون الخطاب هدفًا بحد ذاته.

([125]) معالم التجدد والانفلاق في الخطاب الاعلامي الاسلامي المعاصر – الدكتور محمد بديوي الشمري – مجلة الباحث الإعلامي – العراق – العدد 8 – مارس 2010 – ص 157.

([126]) احمد العاقد، تحليل الخطاب الصحافي من اللغة إلى السلطة، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ط1 – سنة 2002.

([127]) استثمار علوم اللغة في تحليل الخطاب الإعلامي – الدكتور بشير ابرير – مجلة اللغة العربية – فصلية – الجزائر – ص 93 – 94.

3 – **الوظيفة المرجعية: وتضمن وجود شفرة مفهومة من قبل طرفي الخطاب، حيث يجسد الخطاب مضامينه باللغة التي تعد عاملاً أساسيًا في عملية الاتصال الجماهيري.**

4 – **الوظيفة: التواصلية وتضمن بقاء الصلة قائمة بين طرفي الخطاب اثناء عملية التخاطب.([128])**

الخطاب الإعلامي الإسلامي:

وتعد دراسة الخطاب الإعلامي الإسلامي فرعًا عن أصل هو دراسة "**الخطاب الإسلامي**"، إذ الإعلام هنا وسيط يحمل الخطاب. وحسب تعريف تقليدي يعبر عن التيار السائد في ما يسمى: "**الإعلام الإسلامي**". يعرف الخطاب الاسلامي بالاستناد إلى عدة مظاهر يحملها أو يستند عليها ذلك الخطاب مثل الانتساب أوالتحدث باسم الإسلام، مهما كان المتحدث – شخصًا أو مؤسسة – ومهما كانت طبيعة علاقته بالإسلام؛ وعلى ذلك يعرّف الخطاب الإسلامي بأنه: "**البيان الذي يوجه باسم الإسلام إلى الناس مسلمين أو غير مسلمين، لدعوتهم إلى الإسلام، أو تعليمه لهم وتربيتهم عليه: عقيدة أو شريعة، عبادة أو معاملة، فكرًا أو سلوكًا، أو لشرح موقف الإسلام من قضايا الحياة والإنسان والعالم: فردية أو اجتماعية، روحية أو مادية، نظرية أو عملية**".([129]) ويعرّف الخطاب الإسلامي بالاستناد إلى مرجعيته التي يستمد

([128]) معالم التجدد والانغلاق في الخطاب الاعلامي الإسلامي المعاصر – الدكتور محمدبديويالشمري – مجلة الباحث الإعلامي – العراق – العدد 8 – مارس 2010 – ص 161.

([129]) الدكتور يوسف القرضاوي – خطابنا الإسلامي في عصر العولمة –دار الشروق – القاهرة –٢٠٠٤ – ص 15 – 16.

منها خصوصيته، حيث يعرف على هذا الأساس على النحو الآتي: "**الخطاب الذي يستند لمرجعية إسلامية من أصول القرآن والسنة، وأيٍّ من سائر الفروع الإسلامية الأخرى، سواء أكان منتجا لخطاب جماعة إسلامية أم مؤسسة دعوية رسمية أو أهلية أم أفراد أم تفرقين جمعهم الاستناد للدين وأصوله مرجعيةً لرؤاهم وأطروحاتهم، ولإدارة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يحيونها، أو للتفاعل مع دوائر الهويات القطرية أو الأممية أو دوائر الحركة الوظيفية التي يرتبطون بها ويتعاطون معها**".([130])

وهناك من يرى في "**الخطاب الإسلامي**" خطابين في الواقع هما:

أولاً – الخطاب الاستيعابي المعتدل: وهو خطاب يبدأ مع مؤسس جماعة الاخوان المسلمين في مصر حسن البنا، ويتواصل مع مجموعة من الكتاب والمفكرين الاسلاميين من أمثال راشد الغنوشي وحسن الترابي وغيرهما.

وتتلخص أبرز معالم هذا الخطاب بما يلي:

1 – أن الإسلام لم ينص على نظام سياسي واجتماعي مخصوص، لكنه يزود أفكارًا عامة.

2 – أن ينتخب الشعب الحاكم عبر الشورى.

3 – إذا سمح الإسلام بالحرية الدينية، فمن باب أولى السماح بالحريات الأخرى.

4 – أن الناس سواسية من حيث الحقوق والواجبات.

([130]) معالم التجدد والانغلاق في الخطاب الاعلامي الاسلامي المعاصر – الدكتور محمد بديوي الشمري – مجلة الباحث الإعلامي – العراق – العدد 8 – مارس 2010 – ص 160.

5 – أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو واجب جماعي وديني.

6 – أن الحاكم مسؤول أمام مجتمعه.

ثانيًا: الخطاب الاستبعادي المتشدد:

وهذا الخطاب كما يرى أحمد الموصللي يبدأ في المنطقة العربية مع سيد قطب ويصل إلى آخرين من أمثال عمر عبد الرحمن وعبود الزمر ...ومن أبرز مقولات هذا الخطاب أن العالم اليوم كله يعيش حياة لا إسلامية وجاهلية، والدعوة إلى حاكمية الله باعتبارها المكون السياسي للتوحيد، وهو يدعو إلى إسقاط الدول الراهنة باعتبارها دولاً جاهلية، وإصلاح المجتمع ولو عن طريق الثورة، حيث تتلخص مهمة الحكومة، وفق فهم هذا الخطاب، في أن تكون أداة لإيجاد الأخلاق والمحافظة عليها ..أي أن مهمة الدولة، وفق هذا الفهم، أقرب إلى مهمة الشرطة التي تفرض المظاهر والتقاليد الاسلامية كما تراها مرجعية ذلك الخطاب على الناس. وينقسم الخطاب الإسلامي أيضًا على أساس مدى قربه أو بعده عن التراث والمعاصرة.([131])

أما من زاوية القائمين على الخطاب الإسلامي أو حملته، فيقسم ذلك الخطاب إلى ثلاثة أقسام:

1 – "الخطاب الجماهيري" أو الاستفتائي الشعبي (وهو خطاب القاعدة العريضة من الجماهير الاسلامية التي شعرت بفطرتها أن عمليات

([131]) احمد الموصللي– موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا–مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – 2004 – ص 87 إلى 115.

التحديث والعلمنة والعولمة لم يكن فيها خير ولا صلاح لها، كما لاحظت ان هذه العمليات في جوهرها عمليات تغريب سلبتها موروثها الديني والثقافي، ولم تعطها شيئًا في المقابل ... هذه الجماهير تحاول التمسك والتشبث بالإسلام) فهو يعرفه جيدًا (إلى أن يأتي الله بالفرج).

2 – "الخطاب السياسي": وهو خطاب بعض اعضاء الطبقة المتوسطة من المهنيين والأكاديميين، وطلبة الجامعات والتجار ممن شعروا أيضًا، بالحاجة إلى عمل إسلامي يحمي الأمة ... وقد أدركوا أن العمل السياسي هو السبيل إلى هذا، فقاموا بتنظيم أنفسهم على هيئة تنظيمات سياسية لا تلجأ إلى العنف تتبعها تنظيمات شبابية ومؤسسات تربوية.

3 – الخطاب الفكري: وهو الخطاب الذي يتعامل أساسًا مع الجانب التنظيري الفكري داخل الحركة الإسلامية.([132])

رؤية نقدية للخطاب الإعلامي الإسلامي:

اتسم الخطاب الإعلامي الإسلامي بسمات تحققت بشكل متفاوت بين منبر وآخر، وظلت المرحلة التي تلت وصول جماعة الإخوان إلى الحكم بسمات لم تكد تتغير، باستثناء ما طرأ على خطاب المنابر القليلة الباقية عن قضية مشروعية عزل الرئيس وما تبعه من إجراءات.

ومن أهم أوجه الخلل في "**الخطاب الإسلامي**":

([132]) معالم الخطاب الإسلامي الجديد – الدكتور عبد الوهاب المسيري – مجلة المسلم المعاصر – لبنان – العدد 86 – يناير 1998 – ص 49 – 68.

1 – التوحيد بين الفكر والدين والغاء المسافة بين الذات والموضوع.

2 – تفسير الظواهر كلها بردها الى مبدأ أو علة اولى تستوي في ذلك الظواهر الاجتماعية أو الطبيعية.

3 – الاعتماد على سلطة السلف (أو) التراث، (وذلك بعد تحويل النصوص التراثية، وهي نصوص ثانوية إلى نصوص أولية تتمتع بقدر هائل من القداسة لا تقل عن النصوص الأصلية.

4 – اليقين الذهني والحسم الفكري القطعي ورفض أي خلاف فكري – ومن ثم – إلا إذا كان في الفروع والتفاصيل دون الأسس والأصول.

5 – إهدار البعد التاريخي وتجاهله، ويتجلى هذا في البكاء على الماضي الجميل ويستوي في ذلك العصر الذهبي للخلافة الراشدة، وعصر الخلافة العثمانية.([133])

والأمر نفسه ينطبق على الاعلام الإسلامي، على الأقل على مستوى الفهم لماهية ومهمة الإخبار مثلاً، فعندما يتحدث أحد الباحثين عن وظائف الإخبار في المنظور الإسلامي، فإنه يسوق وظائف للخبر هي أقرب إلى الوظائف الدعائية منها إلى الوظائف الاعلامية من قبيل: **"توجيه الرأي العام في بلاد المسلمين وفقًا لمبادئ الاسلام وبما يخدم أهدافه،أو مناصرة وتأييد القوى الإسلامية في جهادها ضد قوى الظلم والبغي في كل مكان، أو**

([133]) معالم التجدد والانغلاق في الخطاب الاعلامي الاسلامي المعاصر – مصدر سبق ذكره – ص 162.

الإشادة بالسلوك الإسلامي، ودعم وتأييد العناصر الإسلامية القدوة)".([134])

وقد شهدت التجربة القصيرة لهذا الإعلام – حتى الثالث من يوليو – ظهور أوجه نقص عديدة في الشكل والمضمون معًا، حيث غلب على أداء الإعلام الإسلامي الاستعانة بـ "**الدعاة**" والمشايخ ليقوموا بدور الإعلاميين، رغم افتقار غير قليل منهم إلى الحد الكافي من مؤهلات القيام بالدور ما أدى إلى دخول هذه المنابر في معركة غير متكافئة مع خصم شديد الاحترافية. وكان برنامج "**البرنامج**" للإعلامي المصري الشهير باسم يوسف أكثر فصول هذه المواجهة سخونة، إذ نجح لعدة أشهر في اصطياد سقطات في الأداء كانت موضوعاً لبرنامجه ذائع الصيت، وقد نجح – إلى حد كبير في كشف نواقص خطيرة في اداء هذه المنابر الإعلامية، فضلاً أنه أظهر تعارضًا واضحًا بين قيم إسلامية رئيسة وبين لغة غير قليل من ضيوف الفضائيات الإسلامية، وقد وصل التحدي قمته عندما وجه باسم يوسف اتهامًا للإعلام الإسلامي بأنه هو من يزدري الأديان.([135]) وخلال العام 2013، وبخاصة في ضوء الخطاب الذي قُدِّم من على منصة اعتصام "**رابعة العدوية**" الشهير في مدينة نصر بشرق القاهرة، شهد الخطاب الإسلامي ظاهرة كان لها أثر كبير في ترسيخ صورة سلبية

([134]) معالم التجدد والانغلاق في الخطاب الاعلامي الاسلامي المعاصر – مصدر سبق ذكره – ص 159.

([135]) باسم يوسف: "الفضائيات الإسلامية هى من تزدرى الأديان وليس أنا" – جريدة اليوم السابع – مصر – 10/ 2013 – تقرير: سهيل محمود. وقد أصبح مألوفاً خلال العام 2013 أن تقرأ هذا التساؤل بصياغات متقاربة، وراجع مثلاً: هل روجت الفضائيات الإسلامية للدين أم شوهته؟ – جيدة الأهرام القاهرية مقال – محمد مصطفى حسن – 13 /1 /2013.

عن الحركة الإسلامية كلها. إذ عكست شواهد كثيرة زوال الحدود الفاصلة بين خطابين بدا لسنوات أنهما منفصلان: الخطاب الاستيعابي (الإخواني) والخطاب الإقصائي القطبي الذي كان سمة مميزة لجماعات العنف الأصولي. وقد غلب على قسم لا يستهان به مما يمكن أن نسميه: "**خطاب منصة رابعة**" معظم ما كان يعتبر من عيوب الخطاب الإسلامي. وعكس حضور رموز حركية كانت لعقود بوصفها "**متشددة**" على منصة الاعتصام تقاربًا بين الإخوان الذين كانوا يوصفون تقليديًا بـ "**الوسطيين**"، ما وفر مادة خصبة لمن يريد وصم الحركة الإسلامية كلها بالتشدد.

ومن الظواهر المهمة التي شهدتها الفضائيات الإسلامية خلال العام 2013 تصاعد كبير في السجال المذهبي العنيف الشيعي/ السني، على خلفية الثورة السورية، ثم على خلفية ما اعتبر تقاربًا بين الرئيس الإخواني وإيران، ومع الإعلان عن اتفاقية مصرية إيرانية للسياحة تحولت عدة شاشات دينية إلى منابر للتنابذ والتحريض. كما شهدت عدة شاشات أيضاً معارك فقهية/ سياسية بين مجموعات من التيار السلفي اختلفت تقديراتها بشكل واسع فيما يتصل بالعلاقة مع جماعة الإخوان، إذ شن الشيخ محمد عبد المقصود، نائب رئيس **الهيئة الشرعية**، مؤسس الدعوة السلفية بالقاهرة، هجومًا حادًا على الدعوة السلفية بالإسكندرية وحزب النور، بسبب المبادرة التى أطلقها الحزب لإنهاء الأزمة السياسية قبل عزل الرئيس. ومما قال من على شاشة قناة فضائية سلفية محسوبة على الدعوة السلفية: "**إن الخلافات بين السلفيين والإخوان المسلمين، لها أصول تاريخية تعود إلى سماح جهاز مباحث أمن الدولة المنحل للدعوة السلفية بتفعيل دعوتها فى المحافظات، مقابل التصدى لجماعة الإخوان**

المسلمين"، وقال: "الدعوة السلفية ليست فى سبيل عقيدة ومنفعة ولا علاقة لها بالدين". وأضاف "الدعوة وحزبها السياسى النور، يسعيان إلى قلب الحق إلى باطل، واتباع إغواء الشيطان، كمثل الكلب الذى يلهث"!.([136])

([136]) القيادي السلفي محمد عبد المقصود: أعضاء حزب النور عملاء لـ "مباحث أمن الدولة" – تقرير – جريدة المصري اليوم – 1/ 2/ 2013.

الإسلاميون المتشددون والشريعة([137])

يثير الحديث عن الشريعة الإسلامية وضرورة تطبيقها جدلاً ذا وجهات متعددة، بل أحيانًا متناقضة، إذ ليس ثمة ما يشير إلى موقف واحد في الخطاب العام (السياسي والثقافي والإعلامي) حول ما إذا كانت غائبة أو حاضرة، وتلك مفارقة تشير إلى خلاف حول حدود المفهوم. فالمؤسسات الدينية الرسمية في مناسبات عدة ترجع إلى سنوات مضت تتحدث عن أن الشريعة تحكم المجتمع – على الأقل في الحالة المصرية في تصريحات رسمية متكررة – وقسم من المعبرين عن هذا الموقف الرسمي يتحدث عن حضور نسبي (غالبًا يقدرون حضورها في التشريعات المعمول بها بما يزيد عن 90 %). في المقابل يعتبر آخرون أن استناد أحكام **"الأحوال الشخصية"** إلى مرجعية شرعية حضور كافٍ للشريعة. ويرى فريق ثالث أن هذا الحضور في **"الأحوال الشخصية"** يجب تعديله ليتسق مع الواقع أولاً قبل الاتساق مع المرجعية الشرعية. أما فصائل الإسلام الحركي (المعتدل منها والمتشدد) فيشتركون في القناعة بأن الشريعة تمت تنحيتها ويختلفون بعد ذلك في حدود المفهوم وممكنات التطبيق و....

وستبنى في هذه الورقة وجهة النظر التي نراها غائبة.

([137]) نشرت على موقع مركز أحوال مصر للدراسات – مصر – ونشر على الموقع الإليكتروني للمركز – الرابط: http://ahwal.org/?p=5918

غياب الشريعة بين تاريخين:

على صفحات جريدة الأهرام القاهرية (10 يوليو 2014) نشر الدكتور علي مبروك مقالاً عنوانه: "**من شريعة الإسلام إلى شريعة نابليون!**" جاء فيه: "**حدثنى على باشا رفاعة (الطهطاوى) قال: إن إسماعيل باشا لما ضاق بالمشايخ ذرعًا، استحضر والده رفاعة بك وعهد إليه بأن يجتهد فى إقناع شيخ الأزهر وغيره من كبار الشيوخ بإجابة هذا الطلب (أى الكتابة فى الشريعة على الطريقة الحديثة)، وقال له: إنك منهم، ونشأت معهم، فأنت أقدر على إقناعهم، فأخبرهم أن أوروبا تضطرني – إذا هم لم يجيبوا – إلى الحكم بشريعة نابليون، فأجابه رفاعة: إنى يا مولاى قد شِخت، ولم يطعن أحد فى دينى، فلا تعرّضنى لتكفير مشايخ الأزهر إياى فى آخر حياتي، فأقلنى من هذا الأمر، فأقاله**". والرواية التي رواها الدكتور مبروك تفتقر إلى الدقة، والصحيح أن راوي الواقعة هو الشيخ رشيد رضا في كتاب: "**تاريخ الإمام محمد عبده**" وهي على الوجه التالي: قال الشيخ رشيد: "**حدثني علي باشا رفاعة بن رفاعة بك الطهطاوي قال: إن "إسماعيل باشا" الخديوي لما ضاق بالمشايخ ذرعاً استحضر والده رفاعة بك وعهد إليه أن يجتهد في إقناع شيخ الأزهر وغيره من كبار الشيوخ بإجابة هذا الطلب، وقال له: "إنك منهم ونشأت معهم وأنت أقدر على إقناعهم فأخبرهم أن أوربا تضطرب إذ هم لم يستجيبوا إلى الحكم بشريعة "نابليون"، فأجابه بقوله: "إنني يا مولاي قد شخت ولم يطعن أحد في ديني فلا تعرضني لتكفير مشايخ الأزهر إياي في آخر حياتي وأقلني من هذا الأمر فأقاله**". (تربية المرأة

والحجاب، محمد طلعت حرب، دراسة وتحقيق: ممدوح الشيخ، مكتبة ومطبعة الغد، مصر، 2009، ص 20).

والفرق بين الروايتين واضح فقد كان المطلوب إقناع المشايخ بالكتابة في الشرع بشكل مختلف، بل إن الاقتصادي الكبير يكشف عما هو أخطر يقول طلعت حرب: **"بلغنا ورأينا من مقتضيات الأحوال ما يصدق الخبر أنكم كاتبتم ملوك أوروبا وتوجتهم بأنفسكم إليهم تطلبون منهم الإعانة على الاستقلال بملك مصر والاستبداد بالسلطنة ليقال لكم ملك مصر أو فرعون مصر ولم يقنعكم لقب الخديوي الذي شرفكم به سلطاننا في هذه المدة الأخيرة وذكرتم للمشار إليهم أنكم تضمنون لهم إن وقعت منهم الإعانة التي تطلبونها تبديل أحكام القرآن وفصل السياسة عن الدين بالمرة وتبيحون لنساء الأمة الجديدة التي تكوّنونها ما تبيحه العادات الأفرنجية وقوانينها من الحضور في مجامع الرجال ومواكبهم وغير ذلك ولا تظلمونهن بمثل ما ظلمتهن الشريعة الإسلامية".** (تربية المرأة والحجاب لمحمد طلعت حرب، ص 52 – 53).

فهل جنى الشيوخ على الشريعة بالتقاعس، أم جنت عليها السلطة التي لا يمكن أن تدعي – ولا المدافعون عنها – أنها استجابت لـ **"إرادة شعبية"**، وتاريخ الفترة معروف لم يكن في ساحة الفعل آنذاك إلا السلطة والأزهر وبينهما نخبة جنينية محدودة التأثير، ولم يكن هناك – من ناحية أخرى – ما يسوغ قبولها ضغوطًا **"أجنبية"** وهي **"الدولة الوطنية الحديثة"** التي جعلت مصر للمصريين، إلا إذا كان مشروعها من البداية: جعل مصر لـ **"الفرنسيين"**!

والمقال، وما يثيره، نموذج لسجال **"أيديولوجي"**، كلا الطرفين فيه (المقاتلون تحت راية الشريعة الإسلامية والمقاتلون تحت راية شريعة نابليون) متشابهان حد التماثل. وهذا السجال الأيديولوجي سمم فضاء الحوار وخلط أوراقه وجعله لعبة صفرية بين مدرستين في الإقصاء متماثلتان، حتى وهما يتبادلان القصف!

أحكام شرعية نعم... شريعة لا!:

وأول المشكلات التي تجعل الحوار حول الشريعة أقرب إلى حوار الطرشان، مشكلة معرفية/ تاريخية، فالمشايخ الذين قاوموا تغيير المرجعية القانونية للدولة في عهد أبناء محمد علي كانوا يتخذون موقفهم بناء على مبررات دينية/ اجتماعية، فالقسم الأكبر منهم كانوا ينطلقوم في موقفهم من انحياز صارم للثقافة المحافظة وخلطوا في موقفهم بين الديني والاجتماعي، فأصبح الانحياز إلى الثقافة المحافظة هو بحد ذاته مؤشر على مزيد من التدين. من ناحية أخرى، فإن الدولة العثمانية كانت لديها مرجعية شرعية مذهبية (المذهب الحنفي بالأساس)، فإذا إلى ذلك وجود تنافس داخل الأزهر بين أتباع المذاهب الأربعة، لأدركنا أن الرغبة في **"تثبيت الأوضاع"** أسهمت فيه مخاوف لا صلة لها بالاعتبارات الشرعية وحدها. ولاحقًا لعب التغير التاريخي الدرامي المتمثل في **"إلغاء" "الخلافة العثمانية"**، كرابطة سياسية ومصدر للمشروعية، دورًا كبيرًا في اتساع الفجوة بين المقولات والواقع، بحيث أصبحت مفاهيم مثل: مصدر المشروعية، شكل الرابطة السياسية، حدود العلاقة بين الدين والشأن العام كله (السياسي – الثقافي – الاجتماعي) في وادٍ وخطاب **"تطبيق الشريعة"** في وادٍ آخر.

يضاف إلى كل ما سبق، أن التعبير اكتسب ظلالاً سياسية وثقافية جعلت دلالاته تختلف لاحقاً عن دلالاته في الأدبيات الأقدم، ولعل هذه تكون فرصة للإشارة إلى الحاجة الماسة لدراسة تتبع مسار تعبير **"الشريعة الإسلامية"** وتطور دلالاته.

إعادة بناء المفهوم:

المعنى الذي استقر المفهوم عليه عند الحركات الإسلامية مختلف بشكل ملحوظ عن معناه في كتابات علماء الأزهر، فالحركات الإسلامية (منذ تأسيس **جماعة الإخوان المسلمين** عام 1928) تستخدم التعبير بوصفه عملية إعادة هيكلة شاملة للمجتمع للوصول إلى استعادة **"لحظة تاريخية"** هي النموذج الأسمى الذي يجب على كل مسلم السعي (سلمًا عند البعض وحربًا عند آخرين)، اتساقًا مع قناعتهم بوجود **"حد أقصى"** يمكن الوصول إليه عبر تطبيق هذه المنظومة المتكاملة من المقولات (وبعضها ليس أحكامًا شرعية أصلاً)، وبدونها تصبح السلطة التي لا تطبقها غير مستحقة لوصف **"الإسلامية"** بل ربما تكون **"كافرة"**. ومنظومة المقولات التي يرى الإسلاميون المتشددون أنها **"الشريعة الإسلامية"** فيمكن تقسيمها على النحو التالي:

1 – أحكام شرعية قطعية الثبوت والدلالة يشكل إنكارها خروجًا من الملة، ولا فرق في الموقف منها بين معتدل ومتشدد، ضمنها معظم ما يعرف بـ "الحدود الشرعية".

2 – ممارسات عملية في عهد الخلفاء الراشدين (وبعضها يرجع إلى عصور تالية)، لعل أشهرها الخبرات التاريخية لمفهوم "الحسبة". ولا مسوغ شرعاً لاعتبار هذه الخبرات أحكاماً شرعية.

3 – إجماعات شرعية يراها دعاة "تطبيق الشريعة" أحكامًا شرعية، والإجماع ليس مصدرًا لإنشاء أحكام شرعية جديدة، هذا فضلاً عن تصاعد ظاهرة الغلو في الإجماع، ومن المفارقات أن الدراسة الأكثر أهمية والأكثر جرأة في هذ الموضوع حصل بها القيادي الإخواني الدكتور صلاح سلطان على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم.

4 – ترتيبات إدارية وسياسية وفتاوى يرى أصحابها أنها أحكام شرعية ملزمة، ولعل أهم نماذجها نسبة كبيرة مما يعتبره البعض "ضوابط شرعية" تحكم العلاقة مع غير المسلمين وحدود حقوقهم، ولا بأس هنا من الإشارة إلى أن أحد أهم أسانيد هذا البناء من المقولات، وأعني بذلك "العهدة العمرية" أصبح في حكم المؤكد من الناحية التاريخية أنها منحولة. وأعني بذلك أيضًا قسمًا كبيرًا مما يعرف بـ "أحكام الجهاد"، إذ هي ترتيبات سياسية وإدارية لا تدخل ضمن مفهوم "الأحكام الشرعية" مطلقًا.

والحوار حول الشريعة في الثقافة العربية خلال ربع القرن الماضي تقريباً هو – في معظمه – سجال بين فسطاطين أحدهما في حالة "**عداء مبدئي**" مع المفهوم، ليس له جمهور واسع لكنه يملك تأثيرًا إعلاميًا وثقافيًا كبيرًا، والآخر مصاب بـ "**تصلب معرفي**" يجعله لا يرى إلا ما يريد ولا يرضى إلا بالتغيير الفوري الشامل. ولو تحول الإسلاميين – متشددين ومتعدلين – إلى إحلال مفهوم "**الأحكام الشرعية**" (حكمًا حكمًا) محل مفهوم "**الشريعة الإسلامية**"

لضاقت الشقة إلى حد كبير بينهم وبين مخالفيهم، ولأصبح قسم كبير من تراث الفقه الإسلامي في مكانه الصحيح بوصفه اجتهادات تتصل بعصر، وليس أحكامًا شرعية واجبة التطبيق في كل زمان ومكان، وهذا التغيير في الوقت نفسه سيعطي مؤسسات التقنين الحديثة حرية ممارسة عملها شريطة ألا تحل حرامًا أو تحرم حلالاً، بينما تبني مفهوم **"الشريعة الإسلامية"** يجعل شرعية وجود هذه المؤسسات نفسه محل شك. من ناحية أخرى فإن قضية الأحكام الشرعية هنا تظل مقيدة – صراحة أو ضمنًا – بقضايا واقعية عديدة أولها وأكثرها حساسية تطبيقها على غير المسلمين، ومن بينها أيضًا **"الإكراهات في العلاقات الدولية"**، وهي إكراهات لا يكفي الإعلان عن رفضها لكي تزول تأثيراتها.

والمفهوم المقترح يحمل "**الفرد**" نصيبه من المسئولية عن **"تطبيق الأحكام"** ويقوض دعائم تصور سلطوي تتبناه جماعات إسلامية متشددة عديدة تريد الاستيلاء على **"الدولة الحديثة"** (وحبذا لو كانت الدولة المركزية في أكثر طبعاتها شمولية)، ثم يستخدمون هذه الدولة – بعد أسلمتها – في فرض خيارات اجتماعية وثقافية وسياسية بوصفها **"ملزمة شرعًا"**.

ووصلنا إلى داعش!:

تمثل حركة **"الدولة الإسلامية في العراق والشام"** المعروفة اختصارًا باسم **"داعش"** أحد أهم نماذج الحكم الفعلي للإسلاميين المتشددين والكيفية التي يمكن أن يكون عليها سلوكهم عند **"تنزيل"** فهمهم للشريعة على **"الواقع"**، ذلك أن تجارب إيران والسودان وطالبان والسودان، جميعها كانت لها

خصوصية من وجه ما. فالأولى هي في النهاية تجربة ذات مرجعية مذهبية مختلفة، والثانية كانت تجربة محافظ حتى النخاع لم يكد يعرف **"الدولة الحديثة"** ولا الحياة المدينية ولا التنوع الديني والمذهبي الذي تتحرك في نطاقه داعش في منطقة الهلال الخصيب، أما تجربة السودان فكانت – أولاً وأخيرًا – استخدامًا سلطويًا مكشوفًا للمقولة. وستوقف أمام نماذج من خطاب الجماعات الأكثر تشددًا من **"تطبيق الشريعة الإسلامية"** باعتبار ما تحمله من دلالات أو ما تثيره من قضايا من بين ركام هائل من التصريحات والبيانات (والفيديوهات) التي تحتل خلال السنوات القليلة الماضية فضاء الإعلام بأنواعه المختلفة .... وصولاً إلى داعش. فقد استخدمت حركات إسلامية مشددة عديدة – وقبل سنوات – سلاح تكفير السلطة التي لا تطبق الشريعة الإسلامية وفقاً لفهم هذه الجماعة أو تلك في الصراعات الإسلامية/ الإسلامية. سلفيو غزة مثلاً يحاربون "حركة حماس" لأنها لا تطبق الشريعة الإسلامية، فمثلاً، حسب الأخبار اللبنانية: (**سلفيّو غزّة يتكاثرون: "حماس" لا تطبّق الشريعة – جريدة الأخبار اللبنانية – 27 يونيو 2008 – قيس صفدي – الرابط: http://www.al-akhbar.com/node/117434**) استفاد السلفيون دعويًا من تولّي حماس حكم القطاع لممارسة دعوتهم بحريّة، وقيس صفدي، المشار إليه اسم مستعار، لشاب كان سجينًا لدى **"حماس"** بتهمة تفجير مؤسسة مسيحية في غزة وخرج بعد أيام قليلة ينبذ العنف والتطرف. سر التغير الذي طرأ على تفكيره يرجع إلى دروس توعية خضع لها وهو كان عضوًا في **"حماس"** قبل أن ينضم إلى تنظيم **"جيش الإسلام"**، الذي يتزعمه ممتاز دغمش ويعتنق السلفيّة الجهاديّة ويلتقي فكريًا مع تنظيم **"القاعدة"**. سبب **"انشقاقه"** كان استيائه في حينه إحجام حماس عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عقب سيطرتها على قطاع غزة في

منتصف حزيران 2007. حماس من جانبها ترى أنه "**لا الظرف ولا الوقت مهيآن لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية**"، وهذا التقدير الذي تبرر به الحركة موقفها لا يختلف – ربما لفظيًا – عن تقدير كثير من غير الإسلاميين، وتلك مفارقة ينبغي الوقوف أمامها.

ومع وصول الرئيس الإخواني المنتخب المعزول الدكتور مُحَمَّد مرسي لمنصب الرئاسة أصبحنا أمام وجه آخر من وجوه الأزمة بين فصائل الإسلام الحركي المختلفة، إذ خرج الدكتور سيد أمام عبد العزيز (الشهير بالدكتور فضل) بفتوى تكفر الرئيس (الإخواني) ومن انتخبوه بسبب قضية تطبيق الشريعة: (**سيد إمام: من يتولى منصب الرئاسة "كافر" لأنه لا يطبق الشريعة.. ومن انتخبه "خارج عن الملة" – حوار مع جريدة الوطن المصرية – من 12/ 3/ 2013**).

وقد جاءت داعش في الحقيقة لتفتح صفحة من تاريخ تجارب الإسلاميين المتشددين غير مسبوقة، فهي فعليًا – وخلال أشهر معدودة – أصبحت تحكم ما يقرب من عشرين مليونًا من البشر في دولتين (العراق وسوريا) فضلاً عن أنها وجدت نفسها فجأة، تدير مجموعات سكانية تتسم بتعددية دينية ومذهبية تطرح أسئلة شديدة التعقيد، وبما كان الوجه الأكثر وضوحًا للكارثة أنهم قرروا حل مشكلة هذا "**المعقد المركب**" بمنطق تبسيطي في التصور والممارسة معًا، وكان "**العنف الأسطوري**" أكثر وسائل التبسيط سهولة!

وبعد تراجع نفوذ "**الجيش السوري الحر**" منذ نشوب الثورة السورية بدأت داعش بما تعتبره "**تطبيق الشريعة الاسلامية**" من خلال محاكم شرعية، ولعل آخر ما أعلنته "**داعش**" في هذا الاطار إلزام النسوة في بعض مناطق حلب وريفها بارتداء الحجاب الشرعي "**وإلا عُرضت المرأة وولي أمرها**

للمحاكمة الشرعية". ووفقًا لهذا الواقع أصبح على مسيحيي سوريا في المناطق الخاضعة لداعش "**أن يعيشوا وفق أحكام الشريعة الإسلامية بالنسبة لأهل الكتاب، أي أن الله عز وجل منع بناء الكنائس بعد الإسلام، لذلك لن نسمح ببناء الكنائس ولا برفع الصلبان، وعلى من أراد أن يطبق شعائر دينه فليطبقها ببيته وليأخذ حريته بذلك**". وفي قلب هذا المفهوم لتطبيق الشريعة فإن "**ما بني قبل الإسلام لن نتعرض لها بأذى، وأما ما بني من كنيسة ودير وغيره بعد دخول الإسلام إلى بلاد الشام فإننا سنحوله لشيء يستفيد منه عباد الله**".!!!

وحسب التصور الداعشي فإن: "**النصارى في سوريا المستقبل سيكونون مواطنين مثلهم مثل غيرهم**"، و"**لن يكون لهم أي دور سياسي يلعبونه "فلن يحكم بلاد الشام سوى أميرها وخليفتها الذي يختاره المسلمون. لن يكون هناك أحزاب ولا أشكال للديمقراطية الغربية الزائفة، سنحكم بكتاب الله وسنة نبيه**".

كرنفال الدم والإبادة:

وخلال الفترة القصيرة التي أحكمت فيها داعش سيطرتها على مناطق في العراق وسوريا تشهد هذه المناطق جرائم قتل وتنكيل واسترقاق وطرد وتهجير جماعي لأقليات دينية ومذهبية على قاعدة "**تطهير المجتمع**"، حتى لو لم تتحول الممارسات إلى مبدأ معلن، فالحركة تتصور أن "**المجتمع الإسلامي**" هو مجتمع المسلمين – وليس كل المسلمين – بل يقصد بذلك حصرًا من ينتمون إليها

ومن يقبلون الخضوع لسلطتها، وهو تصور لا يستند إلى شريعة ولا يمكن أن يقيم دولة، فضلاً أنه يقضي على المجتمع مختلف تكويناته ... والشرع وأحكامه إنما تكون ثمرتها الإحياء.... لكن الحماقة أعيت من يداويها!!

النقشبندية والسياسة:

من "الإسلام الليبرالي" إلى "الليبرالية النقشبندية"!([138])

من التفاصيل ذات الدلالة الكبيرة – فضلاً عما تنطوي عليه من إثارة – أنه قبل حوالي 80 عامًا تعرضت دولة الفتى العلماني مصطفى كمال أتاتورك لأول تحدٍ في بلدة صغيرة تسمى منيمن، عندما هاجمت مجموعة من أتباع الطريقة النقشبندية مبادئ الجمهورية وشعاراتها في ساحة البلدة المذكورة وأعدمت الضابط الجمهوري مصطفى فهمي كوبيلاي انتقامًا من فرض التغييرات الراديكالية التي أحدثها أتاتورك في الحياة المدنية والسياسية والاجتماعية التركية. ومما يثير الإستغراب في تاريخ العلمانية التركية هو الاحتفال بولادة الجمهورية من خلال تلك الحادثة، وليس بالتواريخ التي سبقتها في إحداث التحول العلماني في تركيا. وفي هذا دلالات ومعانٍ كثيرة.([139])

ورغم مركزية دور النقشبندية في التاريخ التركي الحديث، كما تشير هذه الواقعة، فإن دراسة علاقة "**الطريقة الصوفية النقشبندية**" والسياسة تعد مثالاً على إشكاليات تناول الظواهر "**رمادية الحدود**" بالسياسة، ذلك أن التصوف حالة وجدانية يرى غير قليل من الباحثين أنها – ربما – لا تقع ضمن نطاق

([138]) نشرت في العدد الأول من مجلة: شئون تركية – مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية – مؤسسة الأهرام – مصر – صيف 2015 – من صفحة 81 – إلى 91.

([139]) تركيا وعلمانيتها الناقصة – خالد سليمان – مقال – جريدة الحياة اللندنية – 1/ 17/ 2006 – رقم العدد: 15628 – ص 10.

العنوان الكلاسيكي الكبير: "**علاقة الدين بالسياسة**". فالتصوف – على الأرجح – نسق معرفي/ وجداني مغرق في القدم تفاعل مع الأديان السماوية الثلاثة، فضلاً عن وجوده القوي في المجتمعات التي لا تعتنق أدياناً سماوية. أول مشكلة تثار بالنسبة للتصوف مشكلة "**الاسم**" ومن أين يشتق، وهي مشكلة قديمة قدم الظاهرة نفسها، ومشكلة تعريف التصوف لا يكاد يخلو مرجع متخصص من آثارها وهو انعكاس لمشكلة "**المسمى**".([140]) وأثار ظهور ما يسمى: "**جيش الطريقة النقشبندية في العراق**"، وهو أحد الجماعات التي تحالفت مع "**تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام**" (داعش)، الإشكالية نفسها عن علاقة "**الاسم**" بـ "**المسمى**" في هذا السياق.([141])

([140]) يمكن، على سبيل المثال، الرجوع إلى: التصوف والفن من منظور فلسفة الدين – ممدوح الشيخ – مجلة المحجة – لبنان – العدد 13 – 2005. ومتاحة إليكترونيا عبر الرابط:

http://www.arabworldbooks.com/ArabicLiterature/sufism_art.htm

وكذلك:

التصوف والصوفية في الأديان (2 من 2) – عبد الرحمن الخطيب – جريدة الحياة (الطبعة السعودية) – 22/ 10/ 2008 – رقم العدد: 16637 – ص 14.

([141]) من الأدبيات المهمة التي تحاول معالجة هذه الإشكالية مقال للباحث العراقي المعروف الدكتور رشيد الخيون عنوانه: "لا تخلطوا.. الطَّريقة النَّقشبنديَّة صوفيَّة ليست بعثيَّة". ومما جاء فيه: "ربَّما لا يميز سوى القلة من السَّامعين بجيش رجال الطَّريقة النَّقشبنديَّة بينه وبين الطَّريقة النَّقشبنديَّة الصَّوفيَّة المشهورة، والتي تنتشر حيث ينتشر الإسلام، عابرة البلدان والقوميات والقبائل، لا تؤمن بالسِّياسة ولا الحزبية، ولا بحمل السِّلاح، إلا شخصيات فرضت عليها المواقف حمل السِّلاح خلال الثَّورات في الوديان والجبال كبعض مَن عرفوا أنفسهم بالسادات النَّقشبنديَّة.

سألت أحد رجالاتها لي نكيته، وهو شيخها بمنطقة "الطَّويلة"، التَّابعة لمحافظة السُّليمانية، في أقصى شمال شرق العراق، وهو يتحدث عمَّا فعلته الجماعات السَّلفية المتطرفة بأضرحتهم: كيف تحمون الآن أماكنكم المقدسة، وأنت تقول لا نؤمن بحمل السِّلاح؟ قال: عندما غزتنا تلك

الجماعات، الذين يسمون أنفسهم بـ "أنصار السُّنة"، لم يكن لدينا سلاح ندافع به عن أنفسنا ومراقدنا، لأن شيوخنا الكبار لا يسمحون بذلك، وبعد جدل طويل سمحوا لنا بشرط الحماية فقط.

معنى ذلك أن الطَّريقة النَّقشبندية، كغيرها من الطُّرق الصُّوفية، لا تؤمن بالعنف، وليس لها في العمل السِّياسي الحزبي أو العمل العام كطريقة. جاء اسمها نسبة إلى لقب مؤسسها الشَّيخ بهاء الدين محمد بن محمد نقشبند (ت 791 هـ)، المولود ببخارى، وقيل كان يُلقب بمحمد البخاري.

قرأت في بعض كتبهم أن النسبة تكون نقشبند لا نقشبندي، كي يميز في أصل اللقب. فمن المعلوم أن لقب النَّقشبندي نسبة إلى حِرفة النَّقش في الحجر أو الخشب أو القماش، أو أي شيء آخر تُنقش عليه الصُّور أو الحروف، فتداخلت الألقاب فصار الصباغ مثلاً نقشبندي أيضاً. أما نقشبند فهو لقب للشيخ بهاء الدين، الذي لم يعمل طوال حياته في حِرفة سوى النَّقش في القلوب، فعُرف "نقاش القلوب، وقد رسخ نقش الله في قلبه وقلوب مريديه، ونجحه كما هو واضح، عمل للمذكور ليكون في قلبه"(عن كتاب ماهي الطَّريقة النقشبندية). فهو النقشبند وليس النقشبندي، الذي صار لقبًا لمريديه. حتى قال شاعرهم: "يا رفيقاً في طريق النَّقشبند/ انقش ذِكر الحق في قلبك بجد".

حسب كتبهم، أنها طريقة قديمة تتصل بالحضرة النَّبويَّة، وأنها قبل نقشبند كان مرَّ اسمها بعدة مراحل: الصِّديقية نسبة للخليفة الأول أبي بكر الصِّدِّيق، والطَّيفورية نسبة لأبي يزيد البسطامي، والخواجكانيَّة نسبة إلى الشَّيخ الغجدواني، والنَّقشبنديَّة نسبة إلى بهاء الدِّين البخاري أو السَّمرقندي نقشبند. يبدو أنها لم تكن موجودة بالعراق باسم النَّقشبنديَّة حتى سافر الشَّيخ ضياء الدِّين خالد الشَّهرزوري المعروف بمولانا خالد النَّقشبندي (ت 1826) إلى الهند والحجاز، وبعد عودته نشر الطَّريقة بالاسم هذا ببغداد ثم بثها بالسليمانية، وهو مولود بأحد توابعها بلدة قره داغ (انظر: السَّادات النقشبندية تاريخ ومواقف ودروس وعبر).

أما "جيش رجال الطريقة النقشبندية" فجماعة مسلحة، .... ليس لديَّ معلومات مؤكدة، أو موثقة، بأن عزة الدُّوري ... وراء تأسيس وقيادة هذه الجماعة، ... وهناك مَن يقول كانت لديه صلة بالطريقة القادرية العلية الكسنزانية. ولما التقيت بمشايخ من الطريقتين ... نفوا تلك الصلة، وقال لي شيخ كسنزاني متقدم في الطَّريقة: إن عزة الدوري كان يقول، عندما يُطرح مثل هذا السؤال: "شيخي عفلق وطريقتي بعثية".

نطاق مفهوم النقشبندية:

تحاول الدراسة قراءة طبيعة علاقة الطريقة الصوفية النقشنبدية بالسياسة – وبالتحديد في تركيا – وهو ما يتطلب ضرورة استكشاف النطاقين: التاريخي والجغرافي للمفهوم. تاريخيًا، تجذرت الطرق الصوفية في المجتمع التركي منذ قرون، وحافظت الصوفية على وجودها، رغم التحولات الفكرية الجذرية التي مرت بها تركيا وبخاصة في القرن العشرين، لاسيما مع سقوط الخلافة العثمانية (1924م)، واتجاه تركيا "**الكمالية**" نحو علمنة متطرفة تهدف لإبعاد الدين عن وجه الدولة

عندما نسمع اناشيد جيش رجال الطَّريقة النَّقشبندية تتأكد انها طريقة بعثية لا صوفية، فكل اناشيد حزب البعث في أيام الحروب تذاع عبر موقعها، وهي جعلت امامها مهمة الانتقام لإعدام صدام حسين... لكنَّ ما سرّ أن يختار البعثيون الطَّريقة النَّقشبندية لا غيرها اسماً لهذه الجماعة السياسية والمسلحة؟

بينما لم يصدر بياناً أو فتوى مِن شيوخ الطَّريقة المعتبرين لدعم هذه الجماعة، مع أن موقع "جيش رجال الطريقة النقشبندية" يتحدث في قسم العقيدة عن أصول التَّصوف واعتقاد الطَّريقة، حسب ما ورد عن "الهيئة الشَّرعية لجيش رجال الطَّريقة النَّقشبنديَّة". لكنهم يقولون :"لسنا طُلاب دنيا"، فإذا كان حزب يجاهد مِن أجل السلطة وتأسس لهذه الغاية لا يطلب دنيا فمَن طالب الدُّنيا يا تُرى؟

على أية حال، لابد مِن التَّمييز بين الطَّريقة الصُّوفية، وهي تؤمن بالطَّريق إلى الله، عبر الذِّكر ومجاهدة النَّفس وطاعة المريد للمرشد بهذا الأمر، وبين جيش رجال الطَّريقة النَّقشبندية، المبنية فكرته على الانتقام والطَّريق إلى السُّلطة". (د. رشيد الخيّون – باحث عراقي متخصص في الفلسفة الإسلامية. من كتبه: "100 عام من الإسلام السياسي بالعراق". والمقال منشور في مجلة المجلة اللندنية في: 20/ 6/ 2014.

الرابط على موقع المجلة:

(http://www.majalla.com/arb/2014/06/article55251522).

والمجتمع والمجال العام. والناظر إلى التدين في المجتمع التركي إبان الحقبة العثمانية يلمح بسهولة آثار التصوف الواضحة، فلم تكن الطرق الصوفية في تركيا سكونية منعزلة عن الواقع، بل إن العكس هو الصحيح، ومن ثَمّ كان كثير من مكونات النخبة التركية من العلماء والقضاة والأدباء والوزراء وغيرهم من ذوي الاتجاه الصوفي. ومرت الصوفية في تركيا، ما بعد العثمانية، بثلاثة مراحل مختلفة ومتباينة، صعودًا وهبوطًا.([142])

فقبل **"سقوط الخلافة"** تصدرت الطرق والجماعات الصوفية واجهة المشهد المجتمعي، حيث استخدم مصطفى كمال أتاتورك فرق المتصوفة لتغيير نمط التدين الإسلامي الرسمي والشعبي السائد في البلاد. وسمح أتاتورك للمريدين ومشايخ الصوفية بدخول البرلمان التركي الأول (1920م)، كما استخدم الكماليون شيوخ الطرق الصوفية لتعبئة الجماهير وحثهم على التضحية والجهاد في ما عرف بـ **"حرب الاستقلال"** ضد القوى الأوروبية، ما حدا بواضعي دستور عام 1924م، الذي أسس لإلغاء الخلافة وكرس لبناء تركيا العلمانية، أن يتركوا الجماعات الصوفية وزواياها وتكاياها حرة من دون قيود.([143])

ولم تلبث مرحلة الوفاق القصيرة بين الكماليين والمتصوفة أن تنقلب إلى عداء وقطيعة، وبالتالي بدأت المرحلة الثانية: مرحلة الهبوط والتضيق على

([142]) التصوف التركي.. السمات والآثار المجتمعية – تركيا "الكمالية".. الصوفية لتكريس العلمانية – مصطفى شفيق علام – موقع الصوفية – 23 صفر 1433هـ – بتصرف واختصار – الرابط:

https://cutt.us/NVFiV

([143]) التصوف التركي.. السمات والآثار المجتمعية – تركيا "الكمالية".. الصوفية لتكريس العلمانية – مصدر سبق ذكره.

الصوفية. وقد تذرع الكماليون بما عرف باسم: "**ثورة الشيخ سعيد بيران**" – أحد شيوخ الزوايا – (1925م) في الشرق والجنوب الشرقي، فأصدروا قوانين تقضي بحل الطرق الصوفية وحظرها، واستتبع ذلك إغلاق مقراتها، ومنع شيوخها ومريديها من القيام بأي من أنشطتها الطقوسية أو المجتمعية، فبدأت الحقبة السرية للطرق الصوفية في تركيا واستمرت حتى خمسينيات القرن الماضي.([144]) وحسب الدكتور بشير نافع، لم تهزم قوى المعارضة الإسلامية تمامًا أمام الدولة الباطشة، فاستمرت الطرق الصوفية، تنشط في الخفاء، لاسيما في المناطق الريفية التي لم تستطع آلة الدولة العلمانية الإعلامية والثقافية تحقيق اختراق كبير لأنماط حياتها. كما نشط عالم تركي مسلم ذو خلفية صوفية نقشبندية، بديع الزمان سعيد نورسي (1876 – 1960)، كأبرز تحد ديني إسلامي لعلمانية الجمهورية المعادية للدين.([145]) وهذه الإشارة إلى كون النورسية – بشكل أو آخر – "نقشبندية" تطرح إشكالية تتصل الخطوط الفاصلة بين الجماعات والطرق الصوفية في تركيا المعاصرة.

ومع بداية التحولات في تركيا عقب الحرب العالمية الثانية، وزيادة المد الشيوعي في أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، وبعد فوز الحزب الديمقراطي في انتخابات عام 1950م، بدأت تخف حدة التضييق والحصار على الطرق الصوفية وغيرها من التيارات الإسلامية، وبالتدريج، أخذت العديد من تلك الطرق تخرج من نطاق السرية، لتمارس طقوسها ونشاطاتها بشكل شبه رسمي. ولعل من أبرز

([144]) التصوف التركي.. السمات والآثار المجتمعية – مصدر سبق ذكره.

([145]) الحركة الإسلامية في تركيا: أزمة العلمانية الشاملة – بشير موسى نافع – دراسة – الموقع الإخباري لقناة الجزيرة (الجزيرة نت) 31/ 10/ 2006 – الرابط:
http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/84246fc0-4496-4cf7-82f6-d46c7caa3110

الطرق التي استطاعت أن تحافظ على وجودها في المجتمع التركي وتعود إلى واجهة المشهد بقوة، رغم فترات الحظر والمنع، الطرق: النقشبندية، والقادرية، والخلوتية، والعُشّاقية، والجراحية، والبكتاشية، والمولوية.(146)

منذ انتهاج تركيا سياسة التعددية الحزبية عام 1946 شرعت النخب الإسلامية تُراجع خطابها السياسي وتناقش مفهوم "**الديمقراطية**"، ومدى شرعية الاحتكام إليها. وكان لفوز الحزب الديمقراطي أعوام: 1950 و1954 و1957 تأثيراً كبيراً في ترسيخ مفهوم الديمقراطية لدى التيار الإسلامي، وهو كان آنذاك يتشكل من الطرق الصوفية وعلى رأسها الطريقة النقشبندية. وكانت الحركة الإسلامية تتجه نحو الساحة السياسية مباشرة، لبلورة حزب سياسي يعبر عن واقعها وطموحاتها دون وسطاء. وبالتالي فإن النواة الأولى لحركة "**الإسلام السياسي**" في تركيا تشكلت داخل "**الطريقة النقشبندية**" على يد "**محمد زاهد قوتقو**" شيخ جماعة "**إسكندر باشا**".(147)

ويمكن القول إن النقشبندية أعرق الطرق الصوفية في تركيا، وأكبرها وأوسعها انتشارًا، ولها امتدادات في عيد الدول الإسلامية. وحسب موسوعة الحركة الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا فإنها: "**حركة صوفية صوفية أسسها محمد بهاء الدين النقشبندي في بخاره، تركيا. دعمت الحركة حزب**

---

(146) التصوف التركي.. السمات والآثار المجتمعية – مصدر سبق ذكره.

(147) تركيا... العسكر والإسلام السياسي – دكتور طارق عبد الجليل – (خلاصة بحث "أثر الإنقلابات العسكرية على الإسلام السياسي في تركيا" (فبراير 2014) منشور في: "تركيا الإخوانية حضار ومستقبل حزب العدالة" الصادر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث (دبي) – موقع ميدل إيست أون لاين – 7/ 4/ 2014 – الرابط:

http://www.middle-east-online.com/?id=174227

السلامة الوطني، ثم دعمت، قبل الانقلاب العسكري عام 1960، حزب الوطن الأم التركي، ثم تحركت لدعم حزب الرفاه منذ 1986. أدخل النقشبندية إلى تركيا، أثناء الامبراطورية العثمانية، الشيخ أحمد هندي الذي تمتع بسمعة جيدة كعالم ديني كبير".([148]) وتعتبر النقشبندية من أكثر الطرق الصوفية انتشارًا في تركيا. ورغم الحظر الرسمي للصوفية فإن السياسيين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم يعترفون بشيوخها في اللحظات الحرجة. وقوة شيوخها تظهر جلية خلال الانتخابات، حيث يأتي السياسيون لخطب ودهم، وطمعاً في الحصول على أصوات مريديهم، وعلى سبيل المثال، يتجاوز أتباع الطريقة النقشبندية في إسطنبول المليون شخص.([149])

النطاق الجغرافي للنقشبندية:

رغم أن التأثير الأكبر للنقشبندية – من ناحية التمركز الجغرافي – هو في تركيا، فإنها في الحقيقة طريقة واسعة الانتشار بشكل ربما لا تنافسه فيه طريقة صوفية أخرى في العالم. والنطاق الجغرافي لانتشارها – في معظمه – وثيق الصلة بدوائر التأثير التركي في الدائرة التي يطلق عليها البعض: "**العالم التركي**". ويصعب الحديث عن الوجود الاسلامي في هذه المناطق دون الحديث عن

([148]) موسوعة الحركة الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا – الدكتور أحمد الموصللي – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – الطبعة الثانية – نوفمبر 2005 – ص 405.

([149]) الصوفية في تركيا – تقرير: رانيا الزعبي – الموقع الإليكتروني لقناة الجزيرة (الجزيرة نت) 31/ 6/ 2007 – الرابط:

http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dfT-4ca1-9c10-122741d17432/c7683cb4-4c10-40fa-91cc-04a8874c8fc8

النقشبندية أو القادرية أو الكبراوية. وفي جمهورية مثل داغستان، ارتكز جهاد الشعب ضد الروس على حركة سرية كانت تتم في الزوايا، و"**الحضرات**" الصوفية. وفي سياق الانتماء الطرائقي، الذي حلّ محل التنظيمات السياسية أو العسكرية المباشرة، كانت الطريقة النقشبندية هي الأهم، وهي فجرت في وجه الروس أول ثورة شعبية مسلحة بقيادة الشيخ شامل لأكثر من ثلاثين عامًا ولم تنته إلا بالقبض على الشيخ شامل ونفيه وواصل هذا الشعب مقاومته حتى 1887 حين استطاعت قوات القياصرة حصد معظم شيوخ الطريقة.([150]) وفي شبه القارة الهندية لعب النقشبنديون بقيادة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي دوراً في نشر الإسلام بين المغول.([151])

وحسب الدكتور رضوان السيد فإن الفقيه السوري المعروف محمد سعيد رمضان البوطي كردي نقشبندي، وكذلك الشيخ أحمد كفتارو، الذي عيّنه الأسد مفتياً لسوريا، فقد كان يتزعم الطريقة النقشبندية([152]). وفي أفغانستان كان صبغة الله مجددي (رئيس مجلس الشيوخ الأفغاني) الزعيم الروحي للصوفية

([150]) شامل بسايف: الوريث التاريخي لثورة الشيخ شامل في الداغستان – سعاد الوحيدي (باحثة من ليبيا، عضو في مجموعة الأبحاث حول الاسلام في الصين، مركز الدراسات الصينية، ورئيسة تحرير مجلة "دراسات شرقية" – باريس) – مقال – جريدة الحياة اللندنية – 4/ 9/ 1999 – رقم العدد: 13328 – ص 10.

([151]) الصوفية والطريق الأميركي الى الإسلام – دكتور عمار علي حسن (كاتب وباحث مصري. مدير مركز أبحاث ودراسات الشرق الأوسط) – مقال – جريدة الحياة اللندنية – 13/ 6/ 2007 – رقم العدد: 16140 – ص 10.

([152]) مقتل "البوطي"... الوقائع والدلالات دكتور رضوان السيد – مقال – جريدة الاتحاد الإماراتية – / 3/ 2013 – الرابط:
http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=71539

النقشبندية بأفغانستان.([153]) وتنتشر الطريقة في الشام والعراق وكردستان وشمال القوقاز ومصر، إضافة إلى الصين وجمهوريات بآسيا الوسطى. ويعود هذا الانتشار لقدرتها على التأقلم والتغير حسب الظروف السياسية والاجتماعية، كما أنها تتأقلم لغوياً؛ ففي آسيا الوسطى تتعامل بالفارسية الشائعة، وفي القوقاز تتعامل باللغات الثلاث المعروفة، الفارسية والتركية والعربية. ولا ترتبط النقشبندية بمركز معين، فهي "**لامركزية**". وتمكنت النقشبندية من الوصول لتركستان الشرقية غرب الصين، وتغلبت على ما قبلها من موروثات صوفية، وصارت الطريقة الأكثر تأثيراً بين مسلمي الإيجور في الإقليم، ولعبت فيه الدور الذي لعبته في القوقاز حينما دافعت عن استقلال الإقليم ضد الطمع الاستعماري، وهو ما جعلها منذ القرن التاسع عشر في نظر السلطات الصينية حركة إسلامية سياسية استوجبت القمع، فتم اعتقال شيوخها وقتل شيخ الطريقة النقشبندية (يعقوب بك خواجة) عام 1878.([154]) هذا فضلاً عن وجود ملموس في الولايات المتحدة وألمانيا.([155]) وفي كردستان العراق، مثلاً، فإن الهيمنة المعقودة لعشيرتي

([153]) عبد الله عبد الله: الطاجيكي الذي يحلم بالرئاسة: الطبيب الغامض – تقرير – مجلة المجلة اللندنية – 6 /11/ 2009

http://www.majalla.com/arb/2009/11/article5510390

([154]) النقشبندية.. طريقة صوفية تلبس عباءة السياسة – تنتشر في تركيا وبلاد الشام وكردستان وجمهوريات آسيا الوسطى.. وتحمل السلاح في العراق – القاهرة: محمد عبده حسنين بغداد: هدى جاسم القاهرة: محمد عبده حسنين بغداد: هدى جاسم – تقرير – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – 4/ 6/ 2010 – الرابط:

http://classic.aawsat.com/details.asp?section=45&article=572396&issueno=11511#.VKFO8sgw

([155]) متصوفة النقشبندية الألمان: تقاليد روحية داخل إطار الحياة اليومية الألمانية – تيلو غوشاس – ترجمة: علي مصباح – تقرير – موقع قنطرة للحوار (ألمانيا) – 16/ 2/ 2007 – الرابط:

الطالبانية والبارزانية واضحة. وعشيرة الطالباني تتبع الطريقة القادرية فيما عشيرة بارزان، نسبة إلى قرية بارزان التي تقع ضمن حدود محافظة أربيل الإدارية، تتبع الطريقة النقشبندية.([156])

النقشبندية في المشهد الحاضر:

فى عام 1971، أدعى المدعى العمومى التركى أن حزب النظام الوطنى سمح بالتحدث عن الإسلام وعن الشريعة الإسلامية فى مؤتمره الأول وأن ذلك ضد قانون تنظيم الأحزاب فتم إلغاء الحزب. واستشعر كثير من المسلمين أن أربكان هو رجل الإسلام فى تركيا وأنه الذى يستطيع قيادة الحركة الإسلامية. وكان جامع اسكندر باشا فى حى "**الفاتح**" فى اسطانبول أساس آلية الحركة السياسية الإسلامية التركية، وذلك لأن أمام هذا الجامع هو "**محمد زاهد أفندي**" كان شيخاً للطريقة النقشبندية، وكان يرعى مجموعة طلاب مقيمين حول الجامع، وهي مجموعة اتصفت بالتعقل. وكان من بينهم مجموعة نقشبنديين على رأسهم نجم الدين أربكان، واوغوز خان، أصيل تورك، وسليمان عارف أمره، وغيرهم ممن كونوا ما يسمى بـ "**فريق الإسلام السياسى**" وبالتالى كان جامع اسكندر باشا نبعًا أساسيًا للنقشبنديين. وفى عام 1973 قام نجم الدين أربكان وسليمان عارف أمره ومجموعتهم بإقامة حزب السلامة الوطنى متفادين ذكر

---

http://ar.qantara.de/content/mtswf-lnqshbndy-llmn-tqlyd-rwhy-dkhl-tr-lhy-lywmy-llmny

([156]) تحولات الإقليم الكردي في السياسة والاجتماع – نزار آغري – مقال – جريدة الحياة اللندنية – 15/ 8/ 2010 – رقم العدد: 17299 – ص 13.

الإسلام مباشرة.([157]) وفي مشهد تالٍ، قبل أن يعلن رئيس المحكمة الدستورية التركية القرار في شأن دعوى حظر حزب "الرفاه" الإسلامي، مهد للقرار التاريخي بالقول: "**إن الأحزاب السياسية تعتبر عناصر حيوية مهمة لا يمكن التخلي عنها في الحياة السياسة الديموقراطية. لكن ذلك لا يعني انها لا تخضع لأي تحديدات". ليصبح الحزب الثالث والعشرين الذي يتم حظره منذ بدء التعددية. ويعرّف الدستور التركي الجمهورية التركية في المادة الثانية منه بأنها دولة ديموقراطية علمانية اجتماعية ودولة قانون. لكن الدستور يركز بشكل خاص على العلمانية، إذ يقول: "إنه من الممكن ان تستمر العلمانية من دون الديموقراطية، إلا انه لا يمكن بتاتاً ان تستمر الديموقراطية من دون العلمانية، كما لا يجوز وفق مبدأ العلمانية في الدستور ان يقوم أي شخص باستخدام المشاعر الدينية المقدسة في شؤون الدولة أو في السياسة. وفي حال تقديم أي اقتراح لتغيير هذا الحكم، فإن ذلك سيعتبر جريمة"**. لكن من ناحية أخرى لم يتم تعريف مبدأ العلمانية في الدستور، ومع أن الدين والدولة منفصلان، فإن الدولة تطبق حكمًا علمانيًا، وفي الوقت نفسه تراقب الدين بشكل مكثف. ورغم أن البلاد بدأت تعيش الحياة السياسية المتعددة الأحزاب في الخمسينات، فإن هناك حقيقة واضحة هي أن سياسيين يمنيين أقاموا

---

(157) آليات الحركة الإسلامية في تركيا المصدر: السياسة الدولية – محمد حربي – مقال – مجلة السياسة الدولية – مصر – عدد يناير 1998 – الرابط:
http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=218994&eid=3267

باستمرار علاقات مع جماعات وطرق دينية وقد كان الرئيس الراحل تورغوت أوزال ينتمي إلى النقشبندية.([158])

وحاليًا، يعد كثير من قطاعات النخب التركية نقشبندية الهوى بامتياز، حيث يعمد شيوخ النقشبندية ومريدوها لتعزيز حضورها في الأوساط الجامعية، وموظفي الدولة، وأبناء الطبقة الوسطى من التكنوقراط، وأصحاب المهن الحرة، إلى جانب قطاعات من المثقفين، ورجال الأعمال، ورؤساء الأحزاب السياسية. وكان للنقشبندية حضور لافت في سلسلة الأحزاب الإسلامية التي أسسها أربكان. ففي البداية دعمت النقشبندية حزب النظام الوطني ثم حزب السلامة الوطني، ثم حزبي الرفاة والسعادة بعد ذلك. ويمكن النظر – كذلك – إلى حزب العدالة والتنمية، باعتباره التجلي المعاصر لسلسلة الأحزاب الإسلامية المدعومة من النقشبندية، حيث عمد تلامذة أربكان، إلى استغلال الفضاءات الرحبة نسبيًا أمام الصوفية، لتحقيق نجاحات سياسية لحزبهم. فبروز التدين بصورته المحلية الصوفية كان أولى لدى النخب العلمانية التركية والاتحاد الأوروبي من بروز صور تدين أخرى مستوردة من باكستان أو السعودية أو سواها مما لا يمكن للنخب العلمانية التركية أو للاتحاد الأوروبي استيعابه بأي حال.([159])

ومنذ وصل حزب العدالة والتنمية للسلطة (2002)، خفت القيود المفروضة على التعبير الديني. وتقدِّم كل قناة تلفزيونية تقريبًا برنامجًا عن التصوف في الإسلام. وفي مكتبات أحياء اسطنبول الأكثر ثراء، لا تسجل الكتب

([158]) أكثر من نصف الشعب من دون تمثيل برلماني... تركيا : الحسم الأخير بين "حارس الجمهورية العلمانية" و"الرفاه" رأس حربة الحركات الاسلامية – بلقيس كيليتشكايا – مجلة الوسط اللندنية –26/ 1/ 1998 – رقم العدد: 313 – ص 24 /28.

([159]) التصوف التركي.. السمات والآثار المجتمعية – مصدر سبق ذكره.

الصوفية والترجمات الجديدة لابن عربي مبيعات كبيرة. وقد بلغ الاهتمام ذروته مؤخرًا، عندما نشرت الروائية المعروفة أليف شفق روايتها: "**قواعد الحب الأربعون**" التي حققت مبيعات تفوق أية رواية أخرى في تاريخ تركيا. والبعض يعتبر الاهتمام المتزايد بابن الرومي بين الأتراك في المدن رد فعل مباشر ضد الإسلام المتشدد كـ "**النقشبندية**".([160])

ورغم جميع التناقضات، يرى محللون الظاهرتين وجهين لعملة واحدة. ويعتبر أستاذ علم اللاهوت في جامعة مرمرة في اسطنبول محمود إيرول كيليك أن ذلك يرجع – جزئيًا – إلى التأثير الجانبي للتحرر الاقتصادي، حيث تعتبر الجماعات الإسلامية ذاتها منتجًا آخر في محاولة لزيادة حصتها في السوق. ولكن الأكثر أهمية من ذلك هو أنه يراه رد فعل ضد التفسير العقلاني للإسلام الذي تدفع إليه الدولة التركية. وكثيرون يرون زيادة الاهتمام بالصوفية يشير إلى تضاؤل نفوذ الإسلام الراديكالي الذي يغذيه الفكر السلفي المتشدد والقادم في الأساس من مصر.([161]) ومن المؤشرات المهمة على عمق تأثير النقشبندية في المشهد السياسي الحالي، أن الرئيس التركي حرص على زيارة زعيمها وسط عواصف صراع سياسي مع الداعية الصوفي الشهير فتح الله جولن ذي الخلفية النورسية، وحسب جريدة يني شفق التركية فإنه قام "**مرفوقاً بحرمه أمينة، وكريمته**

([160]) صعود الطرق الصوفية في تركيا "العدالة والتنمية" – نيكولا بيرش (عمل مراسلاً حراً في تركيا لمدة ثمانية أعوام. تنشر أعماله في مجموعة كبيرة من الإصدارات منها مجلة "التايم" و"وول ستريت جورنال" و"التايمز" – مجلة المجلة اللندنية – 5/ 9/ 2010 – الرابط:
http://www.majalla.com/arb/2010/09/article55146397

([161]) صعود الطرق الصوفية في تركيا "العدالة والتنمية" – نيكولا بيرش – مصدر سبق ذكره.

سمية أردوغان، بزيارة مفاجئة للشيخ محمود أفندي، زعيم الطريقة النقشبندية المعروفة باسم "إسماعيل أغا"، في ساعة متأخرة من الليل، واستمرت زيارته ساعتين.([162])

النقشبندية ومقولة النموذج التركي:

ومع اتساع نطاق تداول مصطلح: "**النموذج التركي**" ثمة من يرى أن هذا النموذج هو في الحقيقة "**نموذج نقشبندي**"، فبعد حادث الحادي عشر من سبتمبر بدأ الأميركيون، في ثنايا حملتهم الشاملة على "**الإرهاب**"، يدرسون إمكانية تعميم "**الصوفية**" لتصبح الشكل المستقبلي للإسلام، أو على الأقل تقوي شوكتها ويشتد ساعدها على الساحة الإسلامية، فتخصم من رصيد الجماعات والتنظيمات المتطرفة، والتي أنتج بعضها "**تنظيم القاعدة**" على شاكلته. ويعول الأميركيون في تصورهم هذا على ما جادت به تجربة النقشبندية في تركيا، حيث استوعب المتصوفة قيم العلمانية، وطوروا رؤيتهم الدينية لتواكب العصر، وتماشى مع النهج الديموقراطي على مستوى القيم والإجراءات.([163])

ويرصد الباحث الدكتور بشير نافع أن رجب طيب أردوغان عندما أسس حزب العدالة والتنمية أعلن أن حزبه سيحافظ على أسس النظام

([162]) أردوغان في زيارة مفاجئة لزعيم الطريقة النقشبندية "محمود أفندي" – تقرير – الموقع العربي لجريدة يني شفق التركية – 10/ 8/ 2014 – الرابط:
http://arabic.yenisafak.com/turkiye-haber/10.08.2014-29351

([163]) الصوفية والسياسة في مصر: قضية البحث في مسائل المستقبل وقضاياه – محمد عويس – مقال – جريدة الحياة اللندنية – 3/ 3/ 2007 – رقم العدد: 16038 – ص 17.

الجمهوري، ولن يدخل في مماحكات مع القوات المسلحة التركية. وقال: "**ستتبع سياسة واضحة ونشطة من أجل الوصول إلى الهدف الذي رسمه أتاتورك لإقامة المجتمع المتحضر والمعاصر في إطار القيم الإسلامية التي يؤمن بها 99 % من مواطني تركيا**". وفي تصريحات أردوغان المبكرة بدا للبعض أنه ليس أكثر من إسلامي جامح الطموح، يسعى إلى استرضاء الجيش والدولة العلمانية للفوز بالحكم، لكن الحقيقة أن أردوغان ورفاقه توصلوا إلى قناعة باستحالة نجاح حزب إسلامي في مناخ تركيا الحالي، حتى بعد 60 عامًا على وفاة أتاتورك. وما أراده أردوغان هو "**إقامة توافق سياسي بين الأتاتوركية والإسلام، توافق يسمح بقيام حكم عقلاني يضع حدا لحرب الدولة على الدين، ويمنع انفجار الصراع بين أنصار الهوية الإسلامية وحراس القيم العلمانية للجمهورية. العدالة والتنمية ليس حزبًا إسلاميًا، ليس صورة أخرى من محاولات أربكان الماراثونية لاستعادة تركيا إلى حضن الإسلام. العدالة والتنمية هو حزب علماني يحترم عقيدة الشعب التركي وإيمانه**".([164])

وحسب بشير أتلاي، نائب رئيس الوزراء التركي (سابقًا)، فإن الأطروحة تتلخص في: "**شعار حزب العدالة والتنمية: "الديموقراطية المحافظة"**". وحسب البروفيسور التركي متين هوبر (**جامعة أنقرة**): كان من المثير للاهتمام أن المبادرة الداعية لتشكيل أحزاب سياسية العام 1969 في تركيا جاءت من زعيم الطريقة النقشبندية آنذاك الشيخ عزت زاهد كوكتو. فقد كان الشيخ

([164]) الحركة الإسلامية في تركيا: أزمة العلمانية الشاملة – بشير موسى نافع – دراسة – الموقع الإخباري لقناة الجزيرة (الجزيرة نت) 31/ 10/ 2006 – الرابط:
http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/84246fc0-4496-4cf7-82f6-d46c7caa3110

يعتقد أن ما تحتاجه "**الهوية التركية**" أولاً: "**التنمية الأخلاقية**". ورأى أن هذه التنمية هي الشرط المسبق للتنمية المادية والاستقرار السياسي، وهي يمكن أن تتم إذا ما تم إضفاء صفة ذاتية على بعض القيم المستمدة من الإسلام. بمعنى آخر، كان هدف الشيخ كوكتو بدء حركة إحياء في "**الإسلام السياسي التركي**". وكان مهتمًا بالتنمية الأخلاقية للناس فقط. وقد عارض الإسلاميون التقليديون المحافظون بزعامة أربكان التطور باتجاه ما يمكن أن يسمى "**الإسلام الليبرالي**". بيد أن أردوغان وتياره تحمسا لهذا النهج في بلورة هوية جديدة، ومضيا فيه حتى نهاياته. وبالتالي فهم كانوا أوفياء حتى النهاية لنهج شيخ الطريقة النقشبندية.([165])

وبحسب وسام سعادة فإن رؤية أردوغان "**تختلف بنيوياً عن الديموقراطية المسيحية في أوروبا، لكنها لا ترمي لا الى دولة السلطنة، ولا الى دولة الخلافة، ولا الى دولة الشريعة**". وهو في حالة افتراق جوهري عن "**مقال الحركات الاخوانية العربية من ناحية، وعن مقال الأحزاب الديموقراطية المسيحية الاوروبية من ناحية ثانية**".([166]) بل إن وكالة رويترز للأنباء تستخدم في تقرير لها في 22 /7/ 2007 مصطلح "**الليبرالية النقشبندية**" لوصف الرؤية التي يتبناها حزب العدالة والتنمية، وهو مصطلح يحتاج إلى مناقشة متأنية، لكنه

([165]) القبس في تركيا تتابع المغامرة الكبرى (1) – معركة الهوية ستُخاض بـ "كل الأسلحة" – سعد محيو – جريدة القبس الكويتية – 9/ 6/ 2013 – الرابط:
http://www.alqabas.com.kw/node/771957

([166]) تركيا: حراك في مجتمع اين نحن منه – وسام سعادة – مقال – جريدة المستقبل اللبنانية – الأحد 9 /6/ 2013 – العدد 4711 – صفحة 9.

يشي – من ظاهره – بحجم تأثير المكون النقشبندي في الواقع السياسي التركي. ([167])

([167]) نصر الإسلام التركي: الأسباب والمضاعفات – تقرير (المصدر: وكالة رويترز بتاريخ 22 يوليو 2007)

– موقع وكالة الأنباء السويسرية سويس إنفو – الرابط:

https://cutt.us/g1Fsp

الإسلاميون واليسار ..... من "صالح سرية" إلى "شهيد بولسن"![168]

تمهيد: الإبرة و"كوم القش التحليلي"

البحث عن التأثيرات التي انتقلت من اليسار – فكرًا وتنظيمًا – إلى الحركات العنيفة ذات الإسناد الإسلامي بدأت بالنسبة لي في العام 2005 عندما كان على كتاب: "**الإرهاب: حرب أهلية في الثورة الفرنسية**" للمؤرخ البريطاني المعروف دافيد أندرس على قائمة الأكثر مبيعًا، وهو اعتبر فيه أن الإرهاب ليس ظاهرة مرتبطة على نحو قطعي بالتفسيرات الدينية المتطرفة بل تبلورت بشكل تام في فترة "**حكم الإرهاب**" من تاريخ الثورة الفرنسية، وهو منظور يتجاوز اليسار ليشمل التنوير الفرنسي كجذر تاريخي لليسار وغيره.في العام 2003 كان هناك جهد تفسيري آخر مثير للجدل انصب – بالأساس – على "**تنظيم القاعدة**" هو كتاب: "**القاعدة ومعنى أن تكون حداثية**"، من تأليف المنظِّر والأكاديمي

---

(168) نشرت بمجلة المجلة اللندنية بعنوان: "التأثير اليساري على الجماعات المتطرفة فكراً وتنظيماً" – عدد يونيو 2015 – صفحة 72 وما بعدها.

البريطاني جون جراي (أستاذ الفكر الأوروبي في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية)، وهو خيط سيمتد لاحقًا في العام 2015، ليصل إلى شهيد بولس!

جون جراي في كتابه ذهب إلى أن جذور **"تنظيم القاعدة"** تنتمي إلى العصر الحديث وتوتراته وليس إلى الإسلام كدين أو حتى إلى العصور الوسطى، فهو – برأيه – مجرد انعكاس لبعض تشوهات الفكر الغربي المتطرف، وبالتحديد **"العولمة"**. وبين هذه الأدبيات يبقى ما كتبه الأكاديمي الأمريكي جي. براد فورد دي لونج عن **"حصاد التاريخ الاقتصادي للقرن العشرين"** الأكثر أهمية وعمقًا، إذ رصد أن القرن الذي شهد النمو الاقتصادي الأسرع والمجتمعات الإنسانية الأغنى على الإطلاق شهد أيضًا أعظم جرائم **"الإبادة الجماعية"** على نحو مضاعف، فالجرائم الأكبر في التأريخ الإنساني. والمجرمون الأكثر بشاعة على مدى التاريخ، عاشوا خلال القرن العشرين!.

وهو في دراسته تلك يؤرخ للارتباط البائس بين **"العقيدة الاقتصادية"** واستخدام الإرهاب بشكل منظم – وصولاً إلى الإبادة – في سرد مؤلم مظلم لقرن من **"القتل المؤدلج"**، وهو يتفق في تحليله مع من يرون الثورة الفرنسية تمثل المصدر الرئيس لـ **"أيديولوجيا الإرهاب"**.

الشيوعي السابق!

شاع هذا اللقب على نحو كبير في أدبيات مواكبة تحولات كبيرة شهدتها ظاهرة: **"الإسلام السياسي"** منذ منتصف سبعينات القرن العشرين، وكان يستخدم للإشارة إلى قائمة طويلة من الشخصيات العامة انتقلت من المعسكر

العلماني بمدرستيه (اليمين واليسار) إلى المعسكر الإسلامي – بمعناه الواسع – وقد توزعوا ضمن فئات عدة. الدكتور زكي نجيب محمود أستاذ الفلسفة المرموق، مثلاً كانت مراجعاته نظرية محض ولم تتجاوز حقل الثقافة، وكذلك الدكتور عبد الوهاب المسيري خبير الصهيونية المعروف، كانت تجربته إيمانية/ معرفية في المقام الأول. وفي فئات أخرى يمكن إدراج تحولات كثير من المنخرطين في الجدل الأيديولوجي والعمل السياسي: تنظيرًا وتنظيمًا وممارسة، ولعل من أكثر الحقائق إثارة في هذا السبيل أن الخلفية التروتسكية للمهندس خيرت الشاطر نائب مرشد جماعة الإخوان تلعب – حتى الآن بشهادة معايشين – دورًا مؤثرًا في اختيارته والدور الذي لعبه في تاريخ الجماعة، وكذلك الماضي الناصري المتشدد لعاصم عبد الماجد القيادي السابق بالجماعة الإسلامية المصرية.

وقد كانت مصر في العام 1974 على موعد مع تحوُّل نوعي هو بالفعل منعطف في تاريخ العنف ذي الإسناد الإسلامي، وأعني بذلك محاولة انقلاب فاشلة أصبحت تُعرَف إعلاميًا بـ **"قضية الفنية العسكرية"**، وهي قضية ظلت الرواية الرائجة عنها **"الرواية الرسمية"**، وفي العام 2007 خرج أحد أشهر رموز التنظيم عن صمته – طلال الأنصاري – بشهادة عن التنظيم ونشأته ومساره طرحت العديد من التساؤلات المشروعة حول **"دقة"** ما ظل سائدًا لعقود. وقبل أسابيع قدم الباحث الأكاديمي الدكتور كمال السعيد حبيب – وهو قيادي سابق بتنظيم الجهاد المصري – كتابًا مهمًا هو: **"هاتف الخلافة"** الذي قام حبيب بتحريره وتقديمه، وكذلك التعريف بمؤلفه الدكتور أحمد الرجال. وفي هامش إحدى صفحات الكتاب تصادفنا معلومة عن أن **"صالح سرية"** الفلسطيني/ الأردني ... القادم من العراق .... الإخواني احتمالاً .... قبل دوره

في هذا الانقلاب الفاشل ذي الأهمية الكبيرة في تاريخ جماعات الإسلام السياسي... كان عضوًا في حزب شيوعي!

وتأتي أهمية المحاولة الفاشلة المعروفة بـ "**انقلاب الفنية العسكرية**" من اعتبارات عدة: أولها استنادها إلى جهد نظري ربما كان تاليًا في الأهمية مباشرة لكتابات سيد قطب، لجهة التفكير بآليات أيديولوجية شمولية ومفردات دينية، وعلى أساس هذه التنظيرات توالت أدبيات عولمة العنف وانفصاله عن الأطر الشرعية، ليصبح وسيلة لتغيير العالم. وهي وسيلة يأتي فيها الفعل أولاً، ثم يأتي التنظير لتبريره بالتنظير وبما يفترض أنه "**فتوى**"، وبه تأسس مشروع فكري جديد ديباجاته إسلامية ودعائمه:

"التغيير من أعلى"

بـ **"القوة"**

بناءً على "الإرادة".

في تعارض تام مع القاعدة الذهبية: "لا إكراه في الدين".

والاعتبار الثاني أن "**الفنية العسكرية**" كانت مؤشراً على بداية مرحلة الاستيلاء على الدولة بالقوة دون تقييم معياري "**شرعي**" لبنيتها، إذ غلب المفهوم الماركسي للدولة كوسيلة تستخدمها "**طبقة**" لقهر الطبقات الأخرى، وهو مفهوم يسيطر بشكل كاسح على ذهنية النسبة الأكبر من جماعات العنف ذات الإسناد الإسلامي التي لا تكاد ترى الدولة إلا "**سلطة**"، وقد كان المفكر العربي الإسلامي المعروف الدكتور أبو يعرب المرزوقي يلخص أخطر نقائص متشددي التيار التنويري بسلسلة مقالات ورد في عنوانها تعبير: "**التحديث**

الاستبدادي" ، فإذا بـ **"التحديث الاستبدادي"** يصبح سمة لصيقة بفكر الإسلاميين المتأثرين بالفكر اليساري!.

بن لادن وتشومسكي وبولسن:

عندما تم الكشف قبل أيام عن بعض وثائق أسامة بن لادن كان لم يكن مفاجئاً ما ظهر عن اهتمامه بكتابات عالم اللغويات الأمريكي ذائع الصيت نعوم تشومسكي، وهو واحد من أهم نقاد العولمة في العالم وأحد أكثر نقادها تأثيرا. وقبل ذلك بقليل كانت الفكرة تتجسد عمليًا في شخص شهيد بولسين. والطريف أنه كان سببًا في جعل مدينتي الصغيرة **"قويسنا"**، تجد مكانًا لها على صفحات الفورين بوليسي الأمريكية!

فالدعوات التي يروجها شهيد بولسن عبر الانترنت لاستهداف رموز العولمة وجدت من يحولها إلى نار أحرقت مطعماً يحمل علامة تجارية أمريكية شهيرة. بولسن البالغ من العمر 43 عامًا، ويحمل الجنسية الأمريكية. وينبع تأثيره من جهوده المبتكرة لصهر الأيديولوجية المعادية للرأسمالية التي ظهرت في أوائل القرن الواحد والعشرين، مع أفكار جماعات العنف ذات الإسناد الإسلامي، وقد لفت نظري في هذا المقال الذي نشرته فورين بوليسي عنه قول كاتبي المقال إن: **"افتتان الإسلاميين بأفكار اليسار الراديكالي ليس أمرًا جديدًا"**. ورسالة بولسن أنه يسعى إلى **"أسلمة خطاب أقصى اليسار حول الشرور العالمية لليبرالية الجديدة"**، معتبرًا أن **"الشركات المتعددة الجنسيات هي الشر المطلق والأعداء الحقيقيين للمسلمين، حيث كتب في صفحته على الفيسبوك "مصر**

اليوم تتعرض للغزو والاحتلال من قِبل الليبرالية الجديدة الصليبية". وجدير بالذكر هنا أن بولسن في مرحلة شبابه، كان يشعر بالحنق والغضب نتيجة للظلم الاجتماعي والفجوة بين الأغنياء والفقراء في أمريكا، وهو اعتنق الإسلام أوائل عام 1997، وعزا ذلك – كما أشار لاحقًا – إلى ما أسماه **"كرم الإسلام تجاه الفقراء"**. وهو باختصار دمج وجهات نظره المعادية للرأسمالية مع إيمانه الديني الجديد.

اليسار العربي المتحول:

"مرصد الظاهرة الدينية في سويسرا" كان قد أصدر في ديسمبر 2008، دراسة عن ما اعتبره الباحث نيكولايد وتبويار نقاط التقاء بين **"اليسار"** و**"الإسلام السياسي"** في صورة التجربة العملية التي مثلتها الكتيبة الطلابية التابعة لحركة فتح في مرحلة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين. تقوم الأطروحة المركزية للكراسة على فكرة **"الاستمرارية المنافية لفكرة القطيعة"**، فكل الأيديولوجيات المتعاقبة والمتصارعة في أغلب الأحيان، كلها تلتقي – حسب الباحثة عومرية سلطاني – في محور واحد: **"الخصوصية المقطوعة عن النماذج الغربية عبر هذه التيارات لتعطيها مظهر عالم ثالث مشترك يرفض الإمبريالية ويتبنى خطاب المواجهة بين الشمال والجنوب أوبين المركز والمحيط في سعيه إلى استنبات نموذج محلي للتغيير الثوري"**. النموذج الوارد في الدراسة **"الكتيبة الطلابية"** تجربة فلسطينيين اعتبروا أن **"حركة فتح"** خرجت عن الخط التحرري الذي كان ينادي بدولة فلسطينية على الأرض التاريخية لفلسطين

وشكل إنشاؤها "**محاولة لإعادة توجيه الخط اليساري القومي داخل حركة فتح**"، وفي تطور لاحق، سينتقل بعضهم من تخوم الفكر اليساري إلى الإسلام السياسي في تجربة فريدة من التحول الديني والسياسي. وعلى الأرجح انتقلت فكرة "**التغيرالثوري**" من الماركسية إلى فكر "**جماعات الإسلام السياسي**".

تواريخ متقاطعة:

الباحث السعودي كامل الخطي في دراسة مهمة له (**جريدة الشرق الأوسط اللندنية 15 ديسمبر 2014**) جمع معطيات مهمة في هذا السياق، ففي كتابه: "**التنظيمات اليسارية في الجزيرة والخليج العربي**" (**2003**)، يورد عبد النبي العكري بعض تفاصيل مقابلة خاصة أجراها مع أحد قياديي حزب "**العمل الاشتراكي العربي في الجزيرة العربية**"،(الفرع السعودي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة الدكتور جورج حبش) ومنها موقف الحزب من أحداث شهر نوفمبر 1979 التي تمثلت في اقتحام جهيمان وجماعته المسلحة الحرم المكي واحتلاله، يقول قيادي حزب العمل: "**أثناء انتفاضة الحرم المكي ... ... دفع بقواعد الحزب إلى الشارع .... وفي ذات الوقت أبدى الحزب تعاطفه الشديد مع حركة السلفيين بقيادة (الشهيد) جهيمان العتيبي، وأشاد بهما علنيًا**".

ومن المفارقات التي انطوى عليها هذا التلاقح الإسلامي/ اليساري أن "**الجماعة الإسلامية**" في لبنان في بداية ستينات القرن العشرين أصدرت كتيًا عنوانه: "**من مبادئ وأهداف الجماعة الإسلامية**" جاء فيه عن اليسار أنه:

"من أخطر الاتجاهات التي تهدد عقيدة الأمة وأخلاقها بالفناء والدمار"، والكتيب أيضًا لم يتحدث مطلقًا عن النظام الرأسمالي ومخاطره. لكن الجماعة الإسلامية في لبنان تحولت إلى "**الأممية الإسلامية**" نتيجة انفتاحها على تنظيرات الندوي، والمودودي،وسيد قطب. وبدهي أن التيارات السياسية والفكرية مشرعة الأبواب على التأثيرات دائمًا ... لكن التأثر شيء والاجتياح شيء آخر، فضلاً عن أن سمات العنف الثوري اليساري في طبعاتها الأكثر تشددًا أصبح يعاد نتاجها بـ "**ديباجات**" دينية، ما يؤدي إلى نتائج سلبية متعددة، وثمارها الأكثر وضوحًا – ومرارة – ظاهرة للعيان في الهلال الذي كان ذات يوم خصيبًا!

الإخوان في الربيع العربي: نور الدعوة ونار السياسة

أما قبل:

لا أحسب أن منصفًا يجادل في أن تحولات "**الربيع العربي**" كانت تحمل مفاجآت لم يكن في حسبان أحد مهما بلغت حنكته، أن يتوقعها، وهذه التحولات داهمت مكونات واقع سياسي واجتماعي وثقافي كان مثقلاً بأعباء عقود من الاستبداد والفساد أسهمت بقوة في تقليص قدرة الجميع على إدارة التحولات بشكل كفء. لكن الإقرار بهذه الحقيقة لا يتعارض – في تقديري – مع حقيقة أن الفشل الذي حدث على يد من أعطاهم الربيع العربي فرصة أن يحققوا طموحهم السياسي كان أكبر بكثير من المعيقات، وأن من انتدب نفسه لحمل المسئولية يظل مسئولاً بالقدر الأكبر عن الثمار حتى لو كانت العيوب التي شابت أداءه شائعة في مجتمع السياسة كله، فلا معنى لأن نحاسب أي تيار سياسي لم يصل إلى السلطة – قوميين أو ليبراليين أو يساريين – لعلمنا بأن منطقه في التفكير هو نفسه منطق من سعى للسلطة وأمسك بزمامها، فالإخوان يدفعون – في المقام الأول – ثمن لهفة على السلطة لم تكن أبدًا مبررة لا أخلاقيًا

ولا منطقيًا ولا ... وها هم يدفعون وحدهم فاتورة عدة عقود لأنهم اختاروا أن يتصدوا منفردين لإطفاء الحريق.

.... والحبل بألف!:

جاءت **ثورة 25 يناير** في مصر والمعطيات جميعًا تشير بقوة إلى ضعف شامل في مجتمع السياسة غير الرسمي **"النخبة"** في لحظة فراغ سلطة، لكن هذه السلطة كانت وجها واحداً للعملة، إذا كانت هناك **"البنية التحتية"** للنظام السياسي من جماعات المصالح والقوى المجتمعية والفئات المختلفة الراغبة في الإبقاء إما على مصالح أو علاقات قوة سائدة تمس امتيازاتها، وهذه القوى كان تقدير الإخوان لقوتها أقل بكثير مما ينبغي.

وهذا التقدير المصاب بآفتي الاستهانة والتبسيط كانت تشاركهم فيه قوى سياسية أخرى لكنهم تحملوا وحدهم نتيجة الارتكان عندما حكموا البلاد استناداً إلى هذا التقدير، وخلال سنوات حكم مبارك الأخيرة كانت حوارات تنتهي بعبارات متشابهة مثل: **"مشكلة مصر في مبارك وبعده يمكن حل مشاكل مصر في عام واحد"!!**

وهذا التصور **"الآلي"** التبسيطي لفكرة النهوض نتاج ثقافة عامة لا يمكن تحميل الإخوان مسئولية وجودها، لكنه في الوقت نفسه أكثر ظهورًا في خطاب الجماعة وممارساتها السياسية، ربما بسبب خلط قديم في ثقافتها بين عالمي: الغيب والشهادة، وقناعة كانت تتعاظم بشكل ملحوظ بأن الجماعة

"أعزها الله بعز الدعوة" وكأنه **"اختيار إلهي"**، بينما هو في الحقيقة **"اختيار إلهي"**!

والفرق بين التعبير إملائيًا حرف واحد، لكن المسافة بين معنى كل منهما كالمسافة بين المشرقين. وإلى جانب التقدير المستهين بمشكلات مصر المشار إليه سلفًا، كانت الجماعة تدفع ثمن عزوف قاتل عن الاستعانة بـ **"منتجي الأفكار"**، وربما لو كان لديها رصيدٌ كافٍ منهم لكانت انطلقت من فهم أكثر عمقًا ووضوحًا ودقة لمفاهيم مثل: الدولة، الأمن القومي، العلاقات المدنية العسكرية، التوازن الإقليمي، والعلاقات الدولية .... إلخ. وفي المقابل كان هناك انحياز شبه تام إلى خيار التوسع في تجنيد قاعدة واسعة من الكوادر المستعدة لأن تكون جنودًا في معركة قاعدتها: **"السمع والطاعة"** تأسيسًا على قاعدة أكثر أهمية هي الثقة المطلقة في القيادة، وهنا حدث خلط بين الثقة في الإخلاص (وهو أمر لا يعلمه إلا الله) والثقة في كفاءة هذه القيادة. وقبل الثورة كانت قوى سياسية تسأل الإخوان عن برامجهم فيردون بأن هذا منطق تعجيزي لأن لغياب تداول السلطة.

وبعد قليل أصبحوا أمام السلطة فأسرعوا إلى حيازتها مدفوعين بالخوف من دورة قمع تاريخية جديدة، والطمع في تحقيق آخر مراحل الحلم الإخواني في مسقط رأس الجماعة، لكن الصفقة كانت أقرب إلى القصة الشهيرة في التراث العربي عن أعرابي كان يعرض جملاً للبيع قائلاً: **"الجمل بدينار .... والحبل بألف"**!

لقد ذهب الإخوان إلى السلطة وأيديهم مقيدة بما يمكن أن نسميه: **"الشرط المانع"**، وهو ثمرة متوقعة لاختيارات دعوية وثقافية واجتماعية وثقافية

وسياسية ربت الجماعة طوادرها عليها لعقود، وهي عندما أصبحت في السلطة، لم تستطع التصرف إلا وفقًا لـ "**سقف التوقع**" الذي يترتب بالضرورة على هذه الاختيارات!

بين المنطق والمقاصد:

من القضايا الحاكمة أيضًا لمسار التجربة الإخوانية في مصر ومصيرها ما لخصه الدكتور يوسف كرم مؤرخ الفلسفة اليونانية المصرية الشهير عندما قال في عبارة حاول أن يلخص بها أحد أهم الدروس التي استخلصها من عمله إذ قال: "**إن منطق المذهب أقوى من مقاصد صاحب المذهب**"، فالأفكار يحكمها "**منطق داخلي**" ليس بإمكان أصحابها دائماً إجباره على أن ينتج نتائج بعينها.

وبالتالي فإن الإسلاميين – وضمن ذلك الإخوان – تصوروا أنهم قادرون بناء على مقاصدهم (وقد تكون مقاصد طيبة فعلاً) على الوصول إلى ما كانوا يريدون من نتائج. والتجربة شابها جموح شديد باتجاه الرغبة في السيطرة على الدولة بأمل استخدامها في "**نصرة الدين**"، وبالتحديد من خلال جعل الناس أكثر تدينًا، ومن الأمثلة الأكثر شهرة على ذلك تصريح للرئيس المعزول برر فيه قرارًا لم ينفذ بتبكير مواعيد غلق المحال التجارية بأن هدفه أن ينام الناس مبكرًا فينهضوا لصلاة الفجر. وهذا التصور للدور الذي يمكن أن تلعبه الدولة في ما هو "**ديني**" خطأ لا مبالغة في وصفه بـ "**الاستراتيجي**"، ومن هنا جاءت معركتهم القصيرة التي انتهت إلى إرسال رسالة مزعجة إلى المحكومين والخصوم مفادها أن المشروع الإخواني هو – إذا استعرنا تعبيرًا للمفكر التونسي المعروف أبو يعرب المرزوقي – مشروع لـ "**التحديث الاستبدادي**"!

وقد يزيد الأمر وضوحًا أن أشير إلى عبارة قالها المفكر المصري المعروف المستشار طارق البشري في حوار نشرته في كتابي عن مشروعه الفكري([169])، إذ قال إن أهم استفاد به كمفكر ومؤرخ من تقاليد القضاء هو ضرورة الاتساق والخلو من التناقض، أما الإخوان فلم يتنبهوا إلى خطورة أن يأخذوا معهم إلى السلطة كل أعباء العقود الثمانية من عمر التنظيم، وأعباء العقود الستة من الحكم العسكري، بكل تناقضاتها. وفي مقدمة هذه الأعباء صراع ثقافي إسلامي/ علماني له ذكرياته المريرة عند الطرفين، وصورة نمطية مشوهة للإسلاميين عززها إعلام مبارك، وهم في الأولى بالغوا في تصوير خلافهم مع خصومهم بوصفه صراعًا بين المشروع الإسلامي وخصومه (والأكثر تطرفًا من حلفائهم صوروه صراعاً بين الإسلام وخصومه)، وفي الثانية لم يبذلوا الحد الكافي من الجهد لبناء صورة جديدة للجماعة، فالصورة النمطية سرعان ما تم استحضارها والإيغال في المزيد من تشويهها بعد 30 يونيو 2013.

ومما حمله معهم الإخوان من حقبة ما قبل 25 يناير خلافات إخوانية سلفية أصبحت بعد قليل وقود معركة كانت مسارًا فرعيًا في المشهد السياسي لكنها كانت ذات تأثير نوعي كبير، وقد كان حضور حزب النور، الذراع السياسي للدعوة السلفية، في مشهد عزل الرئيس من منصبه تلخيصاً لهذا الصراع الإخواني السلفي. ولا شك في أن التصورات المتسرعة السطحية التي تبناها التنظيم في إدارة التوازنات مع الخارج أسهمت – جزئيًا – في تعميق أزمته في الداخل، فالعلاقات المتأرجحة مع إيران ترتب عليها داخليًا خلاف سلفي

(169) طارق البشري: القاضي.. المؤرخ.. المفكر.. وداعية الإصلاح – سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان – الطبعة الأولى 2011.

إخواني كبير، وترتب عليها خارجيًا حالة من الاضطراب في مركب علاقات يتسم بالحساسية الشديدة: (القاهرة – الرياض – طهران – دمشق – أنقرة).

وفي إطار الضبابية المشار إليها في هذه الأمثلة شكلت طريقة الإخوان في التعامل مع الخارج عبئًا كبيرًا على نظام سياسي كان يتلمس خطواته الأولى محاطًا بألغام تحتاج إلى حنكة استثنائية، لكن ما حدث فعليًا كان تطبيقًا حرفيًا لنوع من **"الريفية السياسية"** التي لا تقيم وزنًا كافيًا لحقيقة أن إدارة شئون دولة مثل مصر أكثر تعقيدًا بكثير من إدارة أمور جماعة. وقد تشابكت خيوط ملفات عديدة مع العلاقة بين **"الجماعة الأم"** و**"التنظيم الدولي"**، لتقرع أجراس الإنذار في أماكن عديدة في الداخل والخارج.

وربما لو أدرك التنظيم العمق الحقيقي لثقافة البيروقراطية المصرية، المدنية والعسكرية، والتأثيرات الهائلة التي يمكن أن تترتب على إرسال رسالة إلى العالم بأن الحزب الحاكم في مصر هو في الوقت نفسه جزء من بنية تنظيمية تمتد خيوطها خارج البلاد، ربما تغيرت المسارات!

الأحزاب والشارع وقواعد الجماعة:

علاقة الإخوان بما يمكن أن نسميه: **"الدوائر الحاضنة"** هي الأخرى شابها قصور، فالجماعة بدأت تجربتها بخطأ أعتقد أنه كبير (وصحيح أيضًا أن خصومهم ضخموه بشدة) وهو تأويل حدود التفويض الذي حصلوا عليه بناء على نتائج الصناديق، فالديموقراطيات في مرحلة التأسيس تختلف ديناميكياتها عن نظيرتها التي تجاوزت مرحلة التأسيس إلى أن تصبح ديموقراطيات مستقرة،

وتصبح نتائج هذا الاختلاف أكبر حجمًا وأعمق أثرًا إذا اقترنت بعوامل مثل: الصراع التاريخي بين الإسلاميين والعلمانيين، ونفوذ المؤسسة العسكرية، والاحتقان الطائفي الإسلامي المسيحي، وأهمية كبيرة لموقع مصر الإقليمي تجعل مستقبلها يعني أطرافاً كثيرة إقليمية ودولية، وبعضها بالتالي يسعى لـ "**ضبط إيقاع التحول**" صراحة أو ضمنًا في عملية البناء السياسي. وقد أخطأ الإخوان خطأً أساءوا فيه من حيث أرادوا أن يحسنوا، فهم، مثلاً، خاضوا الانتخابات البرلمانية الأولى عبر "**تحالف انتخابي**" مع قوى تختلف معهم في المرجعية ولم يحاولوا ترقيته إلى "**تحالف سياسي**" يرسي مشتركات أبعد مدى من الحسابات النفعية المباشرة، وهي مشتركات أثبتت التجربة منذ صدور الإعلان الدستوري في نوفمبر 2012 حتى يونيو 2013 أنها كان يمكن أن توفر أساسًا صلبًا لتوافق سياسي مدني كان يمكن أن تكون أول مكتسباته بناء توازن مختلف في العلاقات المدنية العسكرية.

وفي الدائرة الأوسع تعامل الإخوان مع المجتمع بخليط من الوصاية والاستهانة والثقة المفرطة ليضيعوا فرصة تاريخية تمثلت في القبول الواسع من القوى السياسية وعامة الناس لفكرة مشروعية وجود الإسلاميين على ساحة السياسة. وإذا بالجماعة، بدلاً من البناء على هذه البداية الجديدة، وهي بحد ذاتها مكسب تاريخي، تبني تحالفات مع قوى إسلامية أكثر تشددًا كانت هي نفسها حريصة على النأي بنفسها عنها لعقود، وهي بذلك وفرت لخصومها الشواهد التي تم استخدامها لتكريس مقولات مغلوطة، لكنها راجت بقوة، عن الجماعة التي حصدت أصوات الملايين من المصريين في عدة استحقاقات ليعيد

كثير من المصريين بناء صورة للجماعة ملامحها أسوأ من صورة الجماعات الأكثر تشددًا!

وفي معركة مثل معركة الدستور أرسل الإخوان رسائل إلى شريحة واسعة من الطبقة الوسطى مفادها أن نمط حياتهم مهدد، ما ساهم في حشد أعداء جدد لم يكن معظمهم فاعلين سياسيًا. وشكلت المواد المتصلة بهوية الدولة ودور المجتمع في الحفاظ على الأخلاق مؤشرًا على منطق تفكير حتى لو خُفِّفت صياغاتها لاحقاً. وقد يكون صحيحاً أن من تحرك من القوى الاجتماعية لمعارضة الإخوان تأثر بتحريض إعلامي استثنائي، لكن هذا التحريض أمكن استخدامه – ضمن عوامل أخرى – لدفع الملايين للتظاهر في 30 يونيو. وبالتالي، فإن الجماعة تسببت بخياراتها في إثارة مخاوف أطراف عديدة، ويمكن دون مبالغة أن نستنتج من ملامح خطاب بعض قياداتها وبعض حلفائها أنها ساهمت في بناء التحالف المعادي لها، وعندما أصبحت هناك حاجة ماسة لامتصاص الغضب وإعادة بناء القاعدة الداعمة للجماعة تغلب "**الخوف**" على "**الأمل**" وانتصرت "**الغريزة**" على "**الفطرة**"، وأصبحوا في لحظة فاصلة يرون العالم من ثقب مفهوم:

"نحن إما في السلطة أو في السجن"!

ألم أقل لكم؟!

عبارة تتردد كثيرًا في خطاب كل الأطراف لتحقيق أهداف متناقضة تمامًا. المتشددين من التيارات المتحالفة ضد الإخوان يرددونها لتبرير دعوتهم لحظر

الأحزاب الدينية دستوريًا والتوقف عن تصنيف الإسلاميين إلى معتدلين ومتشددين. وفلول نظام مبارك يرددونها لتبرير صحة موقف مبارك ونظامه الرافض للديموقراطية خوفاً من وصول الإخوان إلى الحكم، والنخبة الأمنية ترددها لتأكيد أن الدور السياسي للأجهزة الأمنية هو الخيار الوحيد لحماية "**الأمن القومي**"، والمنشقون عن الإخوان يرددونها لتأكيد صحة ما طالبوا به من ضرورة فصل "**الدعوي**" عن "**السياسي**"..... إلخ.

وهذه الأخيرة، في تقديري هي الأجدر بالوقوف عندها كونها "**واسطة العقد**" في منظومة الخيارات التي أدت متساندة إلى النهاية التي آلت إليها تجربة الإخوان القصيرة في الحكم، فالجماعة التي تعرضت إلى عملية "**شيطنة**" طالت كل ما يتصل بها، تعاني إشكالية عميقة لها طبيعة فكرية. وهذه الإشكالية ليست من قبيل الترف الفكري النظري بل تترتب عليها في الممارسة العملية نتائج تبلغ الغاية في الأهمية. وهي للأسف عولجت بفهم خاطيء لمقولة "**شمول الإسلام**"، فهذا الشمول لا يعني أن يضطلع الدعاة بكل الوظائف الدينية والسياسية، ولا أن تكون لديهم الإجابات الصحيحة عن الأسئلة المطروحة كافة، وهذا الخلط أدى إلى التعامل مع أفكار بعينها بوصفها إجابة عن أسئلة هي لا تجيب عنها، فضلاً عن أنها أدت إلى وضع أشخاص في غير موضعهم.

وقضية الدعوي والسياسي تعود جذورها إلى تصور المؤسس حسن البنا إلى الجماعة بوصفها كيانًا تنظيميًا يضطلع بأدوار تجعله – تقريبًا – بديلاً عن الدولة المجتمع، وهي حسب تعريف البنا: "**جماعة روحية؛ وعقيدة سلفية، وحقيقة صوفية، وشركة تجارية، وهيئة سياسية، وفرقة رياضية ...**" إلخ معددًا 12 وصفًا للجماعة. وهذا الخليط لا شك في أنه جعل الجماعة تبدو لأعضائها

– وللمتربصين من خصومها – **"دولة داخل الدولة"**، ومع التجربة العملية القصيرة خلال حكم محمد مرسي ترسخت لدى شرائح واسعة من الدوائر المحيطة بالجماعة أن لدى هذه الجماعة/ الدولة روابط وثيقة مع كيان تنظيمي متعدد الجنسيات هو **"التنظيم الدولي"** فأصبح ممكناً تصويرها كجماعة **"مارقة"** وطنيًا، وكرست الممارسة فكرة أنها تفتقر إلى **"نقطة توازن"** بين الوطني والديني. وبعد عزل الرئيس كان هناك دور للتنظيم الدولي للإخوان عزز هذا الإحساس لدى خصوم الجماعة، وأيضًا لدى كتلة ساكنة أقرب إلى الحياد لديها تصور بسيط للوطنية، ونجح الإعلام في دفعهم إلى الشعور بأن التعاطف الإنساني مع الجماعة بسبب **"رابعة"** ممكن، أما التعاطف السياسي فدونه عقبات!

وعلى قاعدة: **"ألم أقل لكم؟"** فلعل الرئيس المعزول يرددها الآن، ولعله يحاول أن ينقلها من خلف أسوار السجن إلى كثيرين لا خصومة بينهم وبين الإخوان لكنهم اعترضوا بشدة على الإعلان الدستوري المثير للجدل في نوفمبر 2012، ولعله يشعر الآن بأن ما يسميه كثيرون: **"الدولة العميقة"** كان من الضروري مواجهته على هذا النحو الشامل، وبخاصة بعد أكد الرئيس المعزول مرات أن هذه **"الدولة العميقة"** تقوم بشيء منظم يستهدف النظام الديموقراطي الوليد.

وما يزال المستقبل مفتوحًا على سيناريوهات كثيرة ستتأثر على وجه القطع بمستقبل التجربة في تونس ومآلات التغيير في سوريا ، وستبقى الجماعة – حتى إشعار آخر – بين نور الدعو ونار السياسة!

الانتحاريات... إنهم يفخخون القوارير([170])

أن ترتدي امرأة أو فتاة حزامًا ناسفًا وتقوم بتفجير نفسها في أي هدف، هو دون شك مشهد يثير الكثير من التساؤلات الفقهية والاجتماعية والسياسية والثقافية. والظاهرة جزء من سياق أعم هو قيام أي شخص – رجلاً كان أو سيدة – بالفعل نفسه. والسياق العام لتفسير الظاهرة يكاد يكون محددًا سلفًا تلخصه كلمتان: "**التشدد الديني**". ولا أظن منصفًا يجادل في أنه رافد رئيس لكنه في الحقيقة ليس "**الرافد الرئيس**". ومن الأدبيات التي تشكل نوعًا من المساحة ضد هذا التيار تقرير إخباري نشر في العام 2010.

"الانتحاريات العلمانيات":

في ديسمبر 2010 نشر الموقع الإليكتروني لـ "**إذاعة هولندا العالمية**" تقريرًا مثيرًا للجدل عنوانه: "**الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي**" (تقرير: محمد عبد الحميد عبد الرحمن/ 28 سبتمبر/ 2010. الرابط: **http://www.rnw.nl/arabic/article/191711**). ويتناول التقرير موضوع رسالة دكتوراه للباحث العراقي الهولندي مه ريوان قانع حصل بها على

([170]) نشرت بمجلة المجلة اللندنية.

الدرجة من جامعة أمستردام في العلوم السياسية. "أطروحة قانع كانت تتناول بالتحليل ظاهرة "الاستشهاد" في سياقيها العلماني والديني" و"لم يكن مه ريوان شخصياً طارئًا على موضوع بحثه، فقد انضم لحركة مقاومة كردية ضد نظام صدام قبل أن يبلغ العشرين من عمره وعرف معنى التضحية عن قرب شديد".

أهو محامي الشيطان؟!

وحسب التقرير المشار إليه "يرى الباحث أن ظاهرة الاستشهاد وما استتبعها من هجمات انتحارية، ليست بالجديدة.... ..ولا يمكن أن نطمئن أبدًا إلى أنها ظاهرة تستمد عنفوانها من العقائد الدينية، وبخاصة الإسلام فحسب". فقبل وقت طويل جداً من الهجمات الاستشهادية/ الانتحارية الإسلامية "تأسست الدولة القومية الأوربية الحديثة على مبدأ خلق المواطن المستعد للتضحية من أجل الوطن أو القومية، التضحية إلى حد بذل النفس فداء في سبيل الدولة القومية ذلك الكيان الذي أنتجته الحداثة الأوربية". وبالتالي، يخلص قانع إلى ضرورة "مراجعة الفكرة الشعبوية الشائعة التي تربط الهجمات الانتحارية أو الاستشهادية بالجماعات الجهادية الإسلامية التي ظهرت في الربع الأخير من القرن الماضي"، ف "فكرة التضحية بالذات قد أعيدت صياغتها بالكامل في كنف الدولة القومية الأوربية كفكرة علمانية خالصة"، و"حتى الجماعات الجهادية الإسلامية الحديثة لم تعد إلى أصل ديني

سابق للفكرة، بل تبنت تراث الاستشهاد العلماني الأوربي الذي أنتج خلال القرنين الماضين وأسست عليه خطابها"، وهو سياسي "بالدرجة الأولى".

وتحت عنوان "**الاستشهادي الملحد**" يستطرد كاتب التقرير قائلاً إن: "**الرغبة في التضحية بالذات تتولد من ظروف حياتية معينة تتميز بانسداد الأفق والشعور بالمهانة والعجز، ويستوي في ذلك المؤمن والملحد والذي لا يعبأ بالدين. تصاحب تلك الظروف تعبئة قوية وشديدة التأثير في جماعة صغيرة كانت أو كبيرة تعلي قيمة الفداء والتضحية وتعد الشهداء بالخلود وسيان في الجنة كان أو في أفئدة الناس ومسيرة التاريخ الصاعدة**". والعالم المعاصر عرف "**الهجمات الانتحارية بطياري الكاميكازي اليابانيين إبان الحرب العالمية الثانية، عمليات نمور التاميل في سريلانكا ثم انتحاريي حزب العمال الكردستاني**". وفي حالة نمور التاميل القومية المتطرفة في سري لانكا فإن النساء نفذن 30 – 40 من التفجيرات الانتحارية.

وهذا البعد التاريخي/ المعرفي للإرهاب، مؤثر كبير في مسار كثير من الحركات الإسلامية المتشددة، وأحد قادتها السابقين أكد لي أن كتاب "**كفاحي**" كان أحد أكثر الكتب قراءة و"**تأثيراً**" في جماعته، وأن جيله من شباب الحركات المتطرفة كانوا مفتونين بموجة الانقلابات العسكرية القومية واليسارية العربية في خمسينات وستينات القرن الماضي، حيث رأوا فيها قفزًا على كل المراحل ونموذجاً يمكنهم بواسطته امتلاك السلطة بالطريقة نفسها وتحقيق مشروعهم.

الخلود الأرضي:

وتحت عنوان: "**الخلود الأرضي**" يقول كاتب تقرير **إذاعة هولندا العالمية**: "**هؤلاء الشهداء/ الانتحاريون لم يدفعهم وعد سماوي بل توق للخلود على الأرض، بين الناس وفي ذاكرتهم. ومن الملاحظات الفارقة التي طرحتها دراسة مه ريوان قانع، أن التنظيمات الجهادية الإسلامية التي اختطفت الأضواء خلال العقدين الماضيين قد اقتفت أثر الحركات العلمانية والماركسية في تمجيد الشهادة دون أن تبلغ شأوها**". و"**أنتج اليساريون الشيوعيون في الشرق الأوسط أدبًا وشعرًا وغناءً كثيفًا ومديدًا لشهدائهم وأطلقوا مراثي وبكائيات لا نهاية لها للذين سقطوا منهم، فيما يقبع الجهاديون خلفهم بفراسخ في هذا المجال، مما يؤكد مرة أخرى أن فكرة التضحية والشهادة لا زالت ذات طعم يساري في منطقتنا**". (أ. هـ)

"سناء" كانت البداية:

ومن تجاربي الشخصية التي وضعت يدي – قبل هذه الرسالة الأكاديمية التي تسبح ضد التيار السائد – أنني كنت أتحاور مع الباحث الأمريكي المرموق جيري فان دايك عن ظاهرة "**الانتحاريات**" وأدهشه التحليل سالف الذكر، فذكرت قصة استضافتي في قناة فضائية عام 1998، إذ طلبوا مني أن ألقي بعض قصائدي عن الشهداء وصدمهم أنني – دون ترتيب مسبق – ألقيت قصيدة عن اللبنانية "سناء **محيدلي**" أول من افتتح هذا الباب قبل كل التنظيمات الإسلامية لافتاً نظري إلى أنها شيوعية وكان الأفضل أن تكون

قصيدتي عن "**استشهادية إسلامية**"، ولا بأس هنا من الإشارة إلى أنني أنظر الآن إلى قصائدي عنها عنها بعين مختلفة تمامًا، وإن بقيت رسالتها الجمالية!

وتعتبر سناء يوسف محيدلي (16 عامًا)، العضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي أول انتحارية معروفة. ففي نيسان (ابريل) 1985، هاجمت بسيارة مفخخة قافلة للجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان، واسفر الهجوم عن مقتل جنديين اسرائيليين واصابة آخرين. ولاحقاً، اتسع نطاق وكانت أول العمليات الانتحارية مكانًا وزمانًا لتصبح ظاهرة جديرة بالتأمل والبحث. وفي نوفمبر 2008 حذرت من أسمتها صحيفة التليغراف البريطانية (أم الانتحاريات في العراق) أو (أم فاطمة) من ارتفاع عدد الهجمات التي تنفذها نساء. وكانت السيدة المتهمة بالتغرير بالشابات وبالنساء الجاهلات الضعيفات عقليًا ليتطوعن في شن هجمات انتحارية، أخبرت الشرطة في بعقوبة أن هناك الكثير من النساء يتبعنها. وقد نشر تحذيرها بعد أيام من قيام فتاة عمرها 13 عامًا بتفجير نفسها وقتلت 5 من الحراس في نقطة تفتيش. وحسب إحصاءات رسمية عراقية فإن عدد الانتحاريات خلال تلك السنة وصل إلى 30، فيما كان عددهن 8 سنة 2007. وحسب مراسل **التليغراف "أم الانتحاريات"** لم تعبر عن ندمها وأنها شخصية قاسية جدًا. ومن التفاصيل الخطيرة التي كشفت عنها مساعٍ لفهم هذا العالم السري كيف يمكن دفع امرأة أو فتاة لتفجير نفسها كنوع من التكفير عن "**ذنب**"، وهو أمر لا سند له من الشرع مطلقًا. والحالة التي نتحدث عنها تم القبض عليها قبل أمتار من المكان الذي كان يفترض أن تفجر نفسها فيه لـ "**تصعد**" إلى الجنة.

المتخاذل والانتحارية!

ومن المعطيات التي استخدمتها التنظيمات الإرهابية لتجنيد الانتحاريات دافع الانتقام، فنسبة لا يستهان بها منهن كانت تنتقم لمقتل أو اختطاف الزوج أو الأب أو الابن. وتضّخم هذه الرغبة، عملية دعوية تربوية منظمة، وتعززها دون شك أحوال أمنية شديدة السوء شهدها العراق، ومع الإحساس بالعجز أمام مثل هذا الواقع يكون التجنيد أيسر. وتعكس وقائع كثيرة جهلاً فاضحاً بالأحكام الشرعية تجعلهن مركبًا "**منقادًا**" بشكل تام. وفي الحالة العراقية بالتحديد نجح قيادي القاعدة الراحل أبو مصعب الزرقاوي في صياغة رسالة بسيطة وقادرة بشكل استثنائي على استثارة من تروج لهم وهي: "**المرأة الاستشهادية**" مقابل "**الرجل المتخاذل**"!

وهذه المقابلة التبسيطية بين نقيضين سمة رئيسة من سمات "**الثقافة الانتحارية**"، فالقتال في العراق لم يكن فرضًا على كل مسلم "**فرض عين**" كما أشاع هذا الخطاب، والرد على هذا التقاعس المفترض، لم يكن أبدًا ظهور الانتحاريات. وحسب المستشار في وزارة الدفاع العراقية محمد العسكري فإن استخدام الانتحاريات يعود إلى "**انحسار تأثير القاعدة على الشارع العراقي**" معتبرًا استخدام النساء نوعًا من "**القيمة الدعائية أكثر من القيمة الميدانية**" فباستخدام النساء تريد القاعدة، أن تشعر الرجال بالعار "**النساء تقاتل والرجال غافلون**".!

وقد كان من نتائج ذلك – من ناحية أخرى – أن ازدادت نسبة المتطوعين العرب والأجانب الذين دخلوا عبر الحدود للالتحاق بالقتال مع الزرقاوي، ووصلت للعراق أول انتحارية قادمة من أوروبا هي البلجيكية موريل

ديغوك ثم قبض في هولندا على مجموعة كانت تقوم بتدريب "**نساء انتحاريات**" من بلجيكا وفرنسا. وفجرت ديغوك حزامها الناسف في دورية أميركية في مدينة بعقوبة في نوفمبر 2005. وبعد تنفيذ الانتحارية البلجيكية موريل ديغوك لعملية انتحارية نشر موقع انترنيت على رسالة موقعة من الزرقاوي وجه في نهايتها سؤالاً "**ألم يعد هناك رجال بحيث أصبح علينا تجنيد النساء؟**"!.

كما أن عدداً غير قليل من "**زوجات أمراء القاعدة**" نفذن عمليات انتحارية بعد مقتل أزواجهن. وفي 2007 أعلن تنظيم القاعدة عن تشكيل "**كتيبة الخنساء**" أول "**كتيبة استشهادية**" في العراق ضمت 26 انتحارية.

أنسنة "الأرملة السوداء":

الأرملة السوداء نوع من العقارب السامة الخطيرة معروفة بأنها تتزوج ثم تقتل العقرب الذي تتزوجه مباشرة بعد أن يقوم بتلقيحها، وفي الإعلام الروسي ظهر المصطلح مع ظهور الانتحاريات الشيشانيات بدءًا من العام 2000. إحدى المشاركات في عملية من عمليات "**العقارب السوداء**": "**قالت لي ليس لدي شيء لأخسره. فقد فقدت جميع عائلتي. سأواصل هذه الطريق على رغم أنني مقتنعة أنها ليست الطريق الأسلم**".

وعزتك لأغوينهم أجمعين:

وهذا النمط الذي تعكسه هذه الحالة الشيشانية يمثل نسبة لا يستهان بها من المشاركات في الظاهرة: الإحساس العميق بالعدمية والعبثية ووجود

"**مظلمة شخصية**" جعلتها أسيرة رغبة جارفة في الانتقام، ولاحقًا تأتي التبريرات الفقهية والسياسية، ولعل هذا يعزز مصداقية ما تبنته مؤسسات غربية عديدة لما يمكن اعتباره "**منابع للإرهاب**" في مقدمتها البؤس بمعناه الواسع: الفقر، القهر، البطالة، الفساد.... إذ يؤدي هذا المركب، وبخاصة عندما يتغول إلى "**أرض خصبة**" يسهل أن تنمو فيها الأفكار الانتحارية. وعندما تسيطر على الذهن الرغبة في الانتحار كحل وحيد، تتلاشى قيمة "**الحياة**" نفسها، ولا يتوقع من رجل أو امرأة ماتت في نفسه الرغبة في الحياة أن يفكر في حرمة حياة الآخرين، بل تمنحه الحالة النفسية المتردية التي تحتويه احتواءً تامًا، إحساسًا – زائفًا طبعًا – بأنه يقوم بعمل مجيد، فقط لأنه يؤلم عدوه الحقيقي أو المتوهم.

وفي القرآن الكريم نلحظ أن إبليس لم يكترث كثيرًا لنجاته هو شخصيًا – وكان مكلفًا يعرف أن مصيره إلى الجنة أو النار – ورغم هذا انطلق يعلن العداء لآدم ونسله ويتوعدهم بالويل والثبور، وهو كان يقول هذا ويقرنه بالقسم بـ "**عزة الله**"، وهذا التكييف الشخصي لمعنى الإيمان له ظلال واضحة في خطاب كثير من التيارات المتطرفة التي تعتبر أن إيذاء "**الآخر**" حتى لو كان مسلمًا على مذهب آخر، أو نظامًا سياسيًا يختلفون معه هو "**الهدف الأسمى**"، وعندئذ تأتي الاستباحة طوفانًا كاسحًا يسهل جدًا أن يجد مروجوه في التراث الفقهي ما يمكن استخدامه سندًا مهما كان واهيًا، ونسبة كبيرة من مثل هذه الأسانيد أقوال شاذة.

"هاتف الخلافة":

كيف انقاد جيل كامل من الإسلاميين للعنف؟[171]

فيما تتوالى إعلانات مبايعة حركة داعش وخلافتها المدعاة، تتوالى أسئلة مشروعة عن الدور الأكثر فعالية في حزمة الأفكار المحركة للإرهاب في واقعنا الإسلامي.. أهي رؤية منظِّر الإخوان (سيد قطب أو غيره)؟ أم فتاوى مفتي (سيد إمام الشريف أو غيره)؟ أم مشاعر سلبية قطب الرحى فيها الإحساس بالعجز (أو التهميش أو الاغتراب ....)؟ أم نطاقات فقر وعشوائية صنعها فشل في أداء "**الدولة الوطنية**" في تجارب كثيرة وكثيرة، عربيًا وإسلاميًا؟ أم .....؟

من الإجابات المتفردة التي قدمت مؤخرًا مسعى لفهم الظاهرة الإرهابية شهادة (أحمد الرجال، وهو طبيب مصري كان من أعضاء تنظيم "الفنية

(171) نشرت على موقع مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة – دولة الإمارات العربية المتحدة – الرابط:

http://www.futurecenter.ae/analys.php?analys=407

العسكرية" الذي قام بمحاولة انقلاب فاشلة على حكم أنور السادات عام 1974 لهدف واحد هو: "**إعلان الخلافة**").

الرجل الذي صمت طويلاً خرج عن صمته بكتاب مهم حرره الدكتور كمال السعيد حبيب – وهو شاهد على الفترة من موقعه السابق كأمير لتنظيم الجهاد – وهو في الوقت نفسه أكاديمي متخصص في شؤون الحركات الإسلامية قدم الكثير من المشاركات المهمة في دراسة الظاهرة. الكتاب – كما يشير عنوانه – يعتبر أن "**هاتف الخلافة**" قاد جيلاً من الإسلاميين إلى العنف، وتعبير "**هاتف**" له ظلال كثيفة في الثقافة المصرية، خاصة دلالته المعروفة في العامية المصرية، فهو معنى غيبي من الطراز الأول، وقبل سنوات اختار المستشرق المتخصص في الدراسات الأندلسية رينهارت دوزي عنوان: "**وزير له هاتف**" ليحكي قصة الوزير "**ابن عمار**" الملقب بـ "**داهية الأندلس**" لأن رؤية رآها في منامه وهو شاب صغير أعلمته بمصيره الفاجع بعد عشرات السنين.... وكانت تؤرقه من آن لآخر!

وحسب محرر الكتاب، "**فقد اندفع هؤلاء الشباب الغض خلف هاتف يهتف بأنفسهم وبعواطفهم الجياشة وبنفوسهم البريئة وكأنه الظل الملازم لصورة الإنسان حين يتحرك، بيد أننا أمام ظل روحي يخاطب الروح ويداعب الأفكار ويهتف بها أن قوموا لاستعادة الخلافة**".... و"**الهاتف في الحقيقة هو فعل نفسي ذو طبيعة حشدية تنادي في الإنسان عوامل الإقدام والشجاعة والنخوة لاستعادة ما فُقِد، ومن ثم تثير قلقه وتدفعه للتحرك بلا خطة ولا سؤال عن المستقبل، ولا بحث عن الكيفيات، ولكنها صيحة**

غامضة مجهولة تحيط بالنفس والروح وتدفعها إلى أقدارها حتى لو كان في ذلك حتفها أو موتها". (الكتاب ص 7 – 8).

الإيمان بأسطورة الخلافة:

الأسطورة تصور يتجاوز الواقع المعيش وليست بالضرورة خرافة، كما يتصور كثيرون، بل هي في الكثير من الثقافات تحمل معنى إيجابيًا. والخلافة في وجدان الغالب الأعم من المسلمين، أيًا كانت درجة تدينهم، تملك الرصيد الوجداني الأكبر. ومنذ انفراط عقد الخلافة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين، والحركات الإسلامية لا تكف عن الإحالة على الرمز، بل إن الأرجح أن القسم الأكثر تأثيرًا في واقع العالم الإسلامي اليوم من الحركات ولدت لتستعيد الخلافة وتعيدها إلى الحياة، وصولاً إلى خلافة داعش!!

والقضية ليست حسم السؤال المعلق منذ زمن طويل حول الوصف الدقيق الذي ينبغي أن توصف به "**الخلافة**"... أهي من أمور الدين أم من شؤون الدنيا؟ لكن المقطوع به أن رابطة الأخوة بين المسلمين تستلزم درجة ما من التضامن يراها البعض حدًا أقصى من الموالاة ويراها آخرون تضامنًا رمزيًا مسرحه الرئيس عالم الوجدان لا فضاء السياسة. وبين الحدين اشتعلت المعارك، والتي كان بعضها صراعًا ثقافيًا أُسيل فيه الكثير من الحبر منذ أصدر علي عبد الرازق كتابه: "**الإسلام وأصول الحكم**"، وبعضها كان صراعًا مسلحًا أُسيل تحت رايته الكثير من الدم.

"الفنية العسكرية".. منطلقًا لنقاش أوسع:

يثير الكتاب في الحقيقة عدة قضايا بعضها متصل أوثق الاتصال بموضوعه، وبعضها أوسع نطاقًا تثيره الدلالة اللغوية لعنوانه، وبعضها من العموم بحيث يتجاوز الموضوع المباشر للكتاب، ويتجاوز كذلك الدلالات المباشرة وغير المباشرة للعنوان. فصدور الكتاب أعاد النقاش حول الغياب الواضح للحقائق في ملف دراسات الحركات الإسلامية، حيث الباحث قد يجد نفسه مصابًا بـ "**تخمة**" معلوماتية، وفي الوقت نفسه جوع شديد لـ "**الحقائق**"، فمما لا حاجة بنا للإشارة إليه أن المعلومة ليست بالضرورة حقيقة يمكن أن تكون مقدمة في قياس منطقي. وما هو متاح من "**معلومات**" و"**حقائق**" قسم لا يستهان به منه "**روايات أمنية**" – ولا يعني هذا بالضرورة الطعن في صدقيتها بسبب مصدرها – و"**شهادات شخصية**" هي (مهما بلغت أهميتها ودرجة رغبة كاتبها في توخي الدقة) رواية صاحبها: في حدود علمه، وتحت سقف انحيازاته، فضلاً عما يشوبها من عيوب تشوب كل استعانة بالذاكرة الشخصية لبناء صورة – يفترض أن تكون – دقيقة لأحداث مرت عليها عشرات السنين.

ويحسب لهذا الكتاب أن مؤلفه استعان بباحث/ شاهد (الدكتور كمال السعيد حبيب)، وأضاف إلى شهادته شهادات آخرين، وأهمها:

- **أقوال زينب الغزالي أمام نيابة أمن الدولة.**
- **شهادة الشيخ محمد الغزالي.**
- **شهادة الشيخ سيد سابق.**
- **رواية محمد السيد سليم (أحد المتهمين في قضية الفنية العسكرية).**
- **شهادة ياسر سعد عضو تنظيم الفنية العسكرية.**

. مرافعة كارم الأناضولي (أعدم في القضية).

. شهادة حسن الهلاوي (أحد أهم رموز الحقبة في التنظيمات المسلحة).

الانضمام... الصدمة... الانشقاق:

القصة الرئيسة في الكتاب/ الشهادة كيف انضم الطبيب أحمد الرجال إلى التنظيم بعد أن خطب خطبة عصماء في ضرورة الاحتكام لـ "**شرع الله**"، فعرض عليه ثلاثة من أعضاء التنظيم أن ينضم إلى "**تنظيم قائم يهدف إلى قيام دولة إسلامية بالقوة**" (الكتاب ص 54). ولعل ما تكشف عنه هذه العبارة حالة تبسيط مخل وثقة لا يساندها مبرر شرعي واستحلال يجب البحث عن جذوره، جعل جيلاً بأكمله يعتبر "**القوة**" خياره المفضل لتغيير العالم!

ويقول الرجال في موضع آخر من الكتاب: "**عاد الثلاثة بالرسومات الكروكية وأطلعوني عليها، فأحسست أن فجر الخلافة الإسلامية بات وشيكًا**" (الكتاب ص 64). المهم أن الرجل وجد نفسه بعد قليل مطالبًا بأن يشارك في ذبح جنود من حراس الكلية الفنية العسكرية، حيث المرحلة الأولى من المخطط تقوم على ذبحهم لسرقة أسلحتهم واستخدامها في اقتحام الكلية واستخدام الأسلحة الموجودة بداخلها لتنفيذ انقلاب عسكري يترتب عليه "**إعلان الخلافة**". وعندما وجد نفسه أمام الذبح قرر التراجع وقام بإبلاغ السلطات قبل الواقعة بساعات، لكنها تلكأت في رد الفعل حتى وقعت الواقعة وسقط قتلى وفشل المخطط وانتهت القضية بإعدام ثلاثة متهمين على رأسهم

صالح سرية زعيم التنظيم، وسجن آخرين. وحتى خرج الدكتور أحمد الرجال عن صمته ونشر شهادته بقي لسنوات يعاني من تبعات قيامه بإبلاغ السلطات عن الواقعة بأمل منع سفك دماء الأبرياء، ما يحمل إشارة مهمة إلى المصاعب التي تحيط بكل من يدخل مثل هذا التنظيم إذا حاول إعادة النظر في قراره.

وبين الانضمام وقرار الانشقاق يكشف الرجال في شهادته عن تفاصيل مهمة من بينها ما شك فيه بعض الضباط الذين يحققون في القضية من صلة محتملة بين حسين الشافعي – نائب رئيس الجمهورية آنذاك – وتنظيم الفنية العسكرية، فضلاً عن صلات محتملة لتنظيم **"الفنية العسكرية"** بنظام معمر القذافي. كما أن بالكتاب إشارة مهمة إلى أن صالح سرية (زعيم التنظيم) له ماضٍ تنظيمي شيوعي!.

"الفنية العسكرية" و"السلفية الجهادية":

الملاحظة المهمة، بل الخطيرة جدًا، التي يوردها الدكتور كمال السعيد حبيب – محرر الكتاب – في تقديمه له، هو قوله: "..... **وسنجد أن كل ذلك الجيل ممن شاركوا في الفنية العسكرية ينتمي لجيل الخمسينيات وذلك هو الجيل المؤسس لما نطلق عليه "السلفية الجهادية"**". (الكتاب ص 9). وهذا الخيط المفترض الممتد بين مشروع صالح سرية ومشروع أبي بكر البغدادي هو الرسالة الأهم في الكتاب؛ فرغم الثراء الواضح في التفاصيل، ورغم الجهد الملحوظ المبذول في محاولة تفسير الوقائع وربطاً بسياقاتها، فإن هذا الاستنتاج يظل الأهم. صحيح أنه استنتاج يعطي **"أولوية تفسيرية"** كبيرة نسبيًا لما هو

جيلي على حساب اعتبارات أخرى كثيرة في مسار هذه الجماعات وكذلك الواقع المحيط الذي تولد وتتحرك فيه، إلا أنه استنتاج مهم، خاصة أنه استنتاج من أكاديمي معروف وقيادي جهادي سابق. الكتاب يؤكد صحة معلومة سمعتها قبل سنوات شفاهةً من القيادي الراحل طلال عبد المنعم الأنصاري أحد أهم أعضاء التنظيم، وأول من خرج عن صمته منذ سنوات ليكتب عنه كتابًا أثار جدلاً كبيرًا، والمعلومة أن عددًا لا يستهان به من كوادر التنظيم لم تطلهم يد العدالة مطلقاً بسبب عدم ورود أسمائهم في التحقيقات، وأكثرهم دلالة الداعية الشهير: وجدي غنيم!.

الإسلام السياسي في سوريا:

المعالم .... المسار .... سيناريوهات المستقبل([172])

تحاول هذه المساهمة الإحاطة بواقع "**الإسلام السياسي**" بسوريا – وبصفة خاصة المسلح – وهي مهمة تكتنفها صعوبات معلوماتية ومنهجية. ولا مفر – ابتداءً – من الإقرار بما يلي:

أولاً: وجود مشكلات في "**المصطلحات**" و"**التعريفات**" تكتنف دراسات "**حركات الإسلام السياسي**"، فهناك من يرى ضرورة التفرقة بين "**السلمي**" و"**العنيف**"، ومن يرى صوابية استخدام تعبيرات مثل: "**الجهادية**" أو "**السلفية الجهادية**"، وهي قضية زادتها تعقيدًا تحولات السنوات القليلة الماضية، وبخاصة منذ أن تمت "**عسكرة الثورة السورية**"، وهو ما تعمَّق بشكل غير مسبوق بتمكُّن "**تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام**" (داعش) من دخول الموصل، ولاحقًا، إعلانه ما يعتبر أنه: "**خلافة إسلامية**".

ثانيًا: ثمة مشكلة حقيقية في "**المعلومات**" المتاحة عن الواقع الراهن في سوريا، حيث تتطور الوقائع على الأرض بشكل سريع من ناحية التحولات

([172]) نشرت بمجلة: "آراء حول الخليج" – مركز الخليج للأبحاث – المملكة العربية السعودية – العدد – العدد 98 – اغسطس 2015.

التنظيمية والتغير في الأفكار والشعارات و"**التبريرات الفقهية**". كما أن المادة المتاحة حتى الآن هي من مصادر "سيارة" كالصحف والمجلات وتقارير وكالات الأنباء، بطبيعة الحال لا تخلو مثل هذه المواد من شيء من التسييس والابتسار والترجيحات التي لا تخلو من مطعن. وللأسف لم تعرف المكتبة العربية، حتى الآن، الأدبيات ذات المصداقية المنهجية التي تتناول الوضع الراهن في سوريا، ربما باستثناء مؤلفات ومترجمات محدودة العدد. ويلغب على المتاح – لهذه الأسباب – التفاوت، بل أحياناً التناقض

ثالثًا: ستعتمد هذه المساهمة بشكل إجرائي مصطلح: "**الإسلام السياسي**" مقصوداً به: "**الطيف الواسع من الحركات الإسلامية التي تؤمن بحتمية "السيطرة" على السلطة لتحقيق ما يعتبرونه "المشروع الإسلامي" حيث تؤدي القناعة بهذه المقولة إلى جعل السلطة – صراحة أو ضمنًا – قضية عقائدية، ما يعني القابلية لاستخدام العنف لتحقيق الأهداف (دعوية كانت أو سياسية)**".

الخارطة السورية الجديدة:

قبل الثورة السورية كانت خارطة الحركات الإسلامية تشمل بقايا محدودة جدًا من "**الإخوان المسلمين**" ووجود ملحوظ للطرق الصوفية، وكانت ظاهرة الحركات المسلحة محصورة في "**متطوعين**" يعبرون سوريا للالتحاق بجماعات مسلحة في العراق لتحقيق أهداف متباينة: مذهبية، أو سياسية، أو عشائرية. وكانت هذه الظاهرة "**النواة الجنينية**" لفكرة تحرك الجماعات المسلحة

في الهلال الخصيب **"عبر حدود الدول"**، إما لغياب الكابح الأمني، أو في ظل تغاضٍ رسمي – وهو اتهام وجهه العراق لسوريا لسنوات – **أو** بسبب نجاح سلسلة من التنظيمات المتعاقبة التي تناسل معظمها من: **"جماعة التوحيد والجهاد"** (أسسها أبو مصعب الزرقاوي – **2003**) من وضع أسس لبقاء طويل في هذه المنطقة أو جزء منها. وفي تقدير ورد في تقرير لـ **"هيئة الإذاعة البريطانية"** (يناير 2014) **"يقدر عدد الجماعات المسلحة المعارضة في سوريا بحوالي ألف جماعة"**، وتضم حوالي **"مئة ألف مقاتل"**، ومعظمها جماعات صغيرة محلية. وأبرز التحالفات:

- **هيئة الأركان العامة للجيش السوري الحر**: وتشكَّل **"الجيش السوري الحر"** في 2011 من منشقين عن الجيش السوري، وسرعان ما تبنت حركات مسلحة أخرى شعارهم، وسعى داعمون غربيون وإقليميون إلى خلق **"قيادة مركزية للثوار"**. وفي 2012، أعلنت ألوية انضمامها للهيئة. ويسعى **"الجيش الحر"** لأن يكون بديلاً وسطيًا أقوى من **"الجماعات الجهادية"**. وتحتفظ الألوية الموالية للهيئة بهويتها وأهدافها الخاصة، وبعضها يعمل مع جماعات متشددة كـ **"أحرار الشام"** ومرتبطين بـ **"القاعدة"** مثل **"جبهة النصرة"**.([173])

([173]) **الأزمة السورية: دليل الجماعات المسلحة في سوريا – تقرير – الموقع العربي لهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)21 – يناير 2014.**

الرابط:

http://www.bbc.com/arabic/middleeast/2014/01/131213_syria_rebels_background

وفي الحقيقة فإن البعد الديني في أسماء الألوية – كلها تقريبًا – يعكس بعدًا دينيًا واضحًا في هوية كوادرها، ما يعني أن الهيئة أيضًا هي جزء من "الظاهرة الإسلامية" – بالمعنى الواسع – في سوريا.([174])

- **لواء شهداء سوريا**: بقيادة جمال معروف (حوالي 7000 مقاتل). ولا يتبع أيديولوجية بعينها.
- **جبهة تحرير سوريا الإسلامية**: بقيادة أحمد عيسى (لواء صقور الشام) (ما بين 35000 و40000 مقاتل). وتأسست في 2012، من حوالي 20 مجموعة منها ألوية: "**الفاروق**"، "**الفاروق الإسلامي**"، "**التوحيد**"، و"**مجلس ثوار دير الزور**". وتتباين عقائد هذه المجموعات ما بين معتدلة وسلفية متشددة.
- **ألوية الفاروق**: بقيادة أسامة جنيدي. (حوالي 14000 مقاتل). وظهرت 2011. ولقائد "**الفاروق الإسلامي**" مكانة قيادية في "**جبهة تحرير سوريا الإسلامية**" و"**هيئة الأركان العامة**".

([174]) حسب آرون لند فإن: "الاستقطاب الطائفي في الحرب... عملية ذاتية.... تضع التميز الديني في الواجهة. ينجذب المقاتلون بشكل طبيعي إلى الدين كونه أداة تساعد في التأقلم مع إجهادات الحرب. فكما يقول المثل:"لا يوجد ملحدين في الخنادق".

يمكن الرجوع إلى: جماعات مسلحة في سوريا – آرون لند – ترجمة: علياء محفوظ علي – موقع السكينة – 24 / 10/ 2012

- نقلاً عن: فورين بوليسي الأمريكية.

الرابط:

http://www.assakina.com/center/parties/18883.html#ixzz3fddADcgi

- **صقور الشام**: بقيادة أحمد عيسى (9000 إلى 10000 مقاتل). أحد أقوى مجموعات "**جبهة تحرير سوريا الإسلامية**". بدأ في 2011. وقائده رئيس "**جبهة تحرير سوريا الإسلامية**".
- **لواء التوحيد**: بقيادة عبد العزيز سلامة. (8000 إلى 10000 مقاتل). تشكَّل في 2012، وانضم إلى "**جبهة تحرير سوريا الإسلامية**" في 2013. وفي العام نفسه أعلن قائده عدم الاعتراف بـ "**الائتلاف الوطني**"، ودعا المعارضة للتوحد في "**إطار إسلامي**".
- **لواء الفتح**: يتمركز في حلب وضواحيها، وفي الحسكة والرقة شرقي البلاد.
- **جيش الإسلام**: بقيادة زهران علوش (لواء الإسلام) تكون في 2013 من 50 فصيلاً، "**لتوحيد المجاهدين وتجنب آثار الانشقاقات التي حدثت في الائتلاف الوطني**". ومن المنضمين له ألوية: "**فتح الشام**"، "**توحيد الإسلام**" و"**الأنصار**". ويعتقد أنه محاولة لمواجهة الولاءات المتزايدة للقاعدة حول العاصمة السورية.
- **الجبهة الإسلامية السورية**: بقيادة حسان عبود (حركة أحرار الشام الإسلامية). تكونت في 2012 من 11 جماعة متشددة. (تدعي أن قوامها 30000 مقاتل). أكبر فصائل الجبهة: "**حركة أحرار الشام الإسلامية**"، ورفضت الانضمام لـ "**هيئة الأركان**"، لكنها تتعاون ميدانياً، وهدفها "**إقامة دولة إسلامية سنية**"، وتتعاون مع حلفاء "**القاعدة**"، و"**لا تدعو للجهاد العالمي**".

- **الجبهة الإسلامية:** (حوالي 45000 مقاتل). تكونت في 2013، من بعض أقوى الجماعات المقاتلة في سوريا، وتسعى لتأسيس دولة إسلامية. وتضم: **"صقور الشام"** وتدعو لدولة إسلامية وسطية لا تُفرض على المجتمع، و**"جيش الإسلام"**، و**"لواء التوحيد"**، و**"حركة أحرار الشام الإسلامية"**، و**"أنصار الشام"**، و**"لواء الحق"**، و**"الجبهة الإسلامية الكردية"** (أصغر جماعات التحالف)، و**"ألوية أحفاد الرسول"**.
- **جبهة الأصالة والتنمية:** (حوالي 13000 فرد مقاتل ومدني). تحالف إسلامي وسطي شُكل في 2012.
- **الحركات المتصلة بجماعة الإخوان:**

ثمة مجموعات مسلحة المرتبطة بالجماعة في سورية. وترفض قيادة الجماعة الإقرار بامتلاكها فصيلاً مسلحاً، لكن منفيّيها يموّلون مجموعات مسلحة منذ 2011. وهي اليوم إما تسيطر على عشرات الوحدات شبه العسكرية الصغيرة داخل سورية، وإما ترعاها.([175])

ويمكن الإشارة إلى:

- **هيئة دروع الثورة:** تحالف محسوب على هيئة الأركان العامة. مكون من بضع عشراتٍ من الفصائل الصغيرة. تكوَّن عام 2012 بمساعدة الإخوان، وتصنف نفسها كتحالف إسلامي – ديمقراطي

([175]) الصراع من أجل التكيُّف: جماعة الإخوان المسلمين في سورية الجديدة – دراسة: آرون لوند – معهد كارنيجي – 7/ 5/ 2013 – الرابط: https://cutt.us/ts7pl

معتدل. تعترف الهيئة بتلقي مساعدات من الإخوان وتنفي أي صلة مباشرة بها.([176])

- **لجنة الحماية المدنية:** في محاولة منها لتعويض ضعف الوجود داخل سوريا، حاولت الإخوان استثمار اتصالاتها السياسية، عبر استقطاب جماعات مسلحة بالتمويل، والدعم الإعلامي، ويذكر موقع "**لجنة الحماية المدنية**" على الانترنت حاليًا 18 فصيلاً بعضهم يعتبرون أنفسهم جزءًا من "**جبهة التحرير السورية**".([177])
- **تجمع أنصار الإسلام:** كونته سبع جماعات إسلامية في 2012، ويعاني انشقاقات عديدة.
- **لواء شهداء اليرموك:** جماعة إسلامية معتدلة مرتبطة بـ "هيئة الأركان. تأسس في 2012 بوحدات صغيرة.
- **كتائب الوحدة الوطنية:** (حوالي 2000 مقاتل). تكونت في 2012. تقاتل من أجل "**دولة مدنية ديمقراطية**". وبعض مقاتليها ينتمون للأقليتين العلوية والإسماعيلية.
- **الجماعات الجهادية:**

([176]) الأزمة السورية: دليل الجماعات المسلحة في سوريا – مصدر سبق ذكره.

([177]) جماعات مسلحة في سوريا – آرون لند – ترجمة: علياء محفوظ علي – موقع السكينة – 24 / 10/ 2012 – نقلاً عن: فورين بوليسي الأمريكية.

الرابط:

http://www.assakina.com/center/parties/18883.html#ixzz3fddADcgi

- **<u>جبهة النصرة:</u>** بقيادة أبو محمد الجولاني. (ما بين 5000 و7000 مقاتل). جماعة جهادية تأسست في 2011 بمساعدة "**الدولة الإسلامية في العراق**"، وتمثل "**القاعدة**" في العراق. أعلنت الجماعة عن وجودها في 2012. ينشط مقاتلوها في 11 من أصل 14 محافظة سورية. وفي 2013، أعلن أبو بكر البغدادي، قائد ما كان يسمى: "**دولة الإسلام في العراق**"، دمج مجموعته مع "**النصرة**" لتصبح: "**دولة الإسلام في العراق والشام**"، إلا أن قائد "**النصرة**"، رفض الدمج وأصر على موالاة "**القاعدة**"، وحتى الآن، تعملان منفصلين.
- **<u>جيش المجاهدين والأنصار:</u>** تشكلت في 2013 من وحدات جهادية، وتضم مئات المقاتلين الأجانب، أغلبهم من القوقاز. وتعمل تحت قيادة شيشاني يدعى عمر الشيشاني، وهدفها: "**تأسيس دولة إسلامية في سوريا**"، وتنسب نفسها لـ "**داعش**".([178])
- **<u>دولة العراق والشام الإسلامية (داعش):</u>** ظهرت في 2013، حين أعلن البغدادي، اندماج مجموعته مع "**النصرة**"، التي نفى زعيمها ذلك. (ما بين 5000 و6000 مقاتل). وقد أصدر زعيم "**القاعدة**" أيمن الظواهري قرارًا بحل الجماعة، وقال إنها يجب أن تستمر: "**دولة العراق الإسلامية**"، وتركز العمليات في العراق وتترك سوريا

([178]) الأزمة السورية: دليل الجماعات المسلحة في سوريا – مصدر سبق ذكره.

لـ "**النصرة**". لكن البغدادي رفض ذلك وأصر على مواصلة التمدد في سوريا.([179])

البنية العميقة "ثقافة محافظة" أم "تشدد ديني"؟

من القضايا المهمة المتصلة بواقع "**حركات الإسلام السياسي**" في سوريا حقيقة الوزن النسبي للمؤثرات المختلفة في صياغة العقل الجمعي لأعضاء هذه الجماعات، إذ يؤدي التبسيط والميل إلى اعتماد "**العامل الواحد**" لتفسيرها إلى تشخيص الظاهرة بشكل خاطيء، ومن الطبيعي أن يؤدي التشخيص الخاطيء إلى استنتاجات خاطئة. ومن الأمثلة المهمة لذلك، دراسة أمريكية أظهرت أن المسلحين ليسوا مرتبطين، ولو حتى فكريًا بـ "**القاعدة**"، بل متدينون محافظون. وتنطلق الدراسة من فرضية صحيحة هي أن طبيعة المشاركين في الحراك السوري، وبخاصة المسلّح، أكثر "**تعقيدًا**" مما يبدو، وتصنيفهم في خانة واحدة أمر صعب. فبعد أربعة أشهر قضاها في سوريا، خلص الصحافي نير روزين، في تقرير نشرته: "**فورين بوليسي**" إلى أن غالبيتهم "**ليسوا مرتبطين حتى فكريًا بـ "القاعدة"**". لكنهم "**ليسوا علمانيين**"، بل هم "**متدينون ويتحدرون من مناطق محافظة**"، وكلما استمر النزاع اتسعت مساحة الإسلام فيه. وقد توقّف روزين، عند تسميات "**تظاهرات الجمعة**"، فلجميعها "**دلالة دينية**"، وأسماء المجموعات "**إسلامية وحتى سلفية**". ثلاث وثلاثون مجموعة مسلحة

([179]) تتأرجح بين الاعتدال والتطرف: هذه أبرز الجماعات المُقاتلة في سوريا – تقرير: اشرف أبو جلالة – موقع إيلاف الإخباري – 1 /12 /2013 .

الرابط:

http://elaph.com/Web/news/2013/12/853070.html#sthash.2id0xnsl.dpuf

تشارك في الحراك، شكّلت محور تقرير أمني لمعهد **"دراسات الحرب"** الأمريكي، وفيه يستخلص المحلل العسكري جوزيف هوليداي، ما يتفق فيه مع روزين، ومع الباحث في **شركة ستراتفور** الأميركية للخدمات الاستخبارية كمران بخاري: **"غالبية الثوار متدينون سنة، و.... ليسوا سلفيين ولا جهاديين ولا إرهابيين ولا مرتبطين بالقاعدة"**.([180])

عن المستقبل:

أولاً.... صراعات الجهاديين:

في إبريل 2015، وفي واحدة من أدبيات السجال المتتالية بين التنظيمين الأكبر حجمًا بين السلفيين الجهاديين، شنّ **"داعش"** هجومًا **"غير مسبوق"** على **"القاعدة"**، متهماً إياها بالانحراف عن المنهج الجهادي وشق الصفوف. ودعا **"داعش"** المقاتلين في الجماعات الأخرى لتأييد تنظيمه في الخلاف مع **"القاعدة"** التي رأى أنها **"لم تعد قاعدة الجهاد"**، وأضاف: **"انحرفت.... عن منهج الصواب"، "فليست بقاعدة الجهاد من يمدحها الأراذل، ويغازلها الطغاة، ويناغيها المنحرفون والضالون". و"باتت قيادتها معولاً لهدم مشروع الدولة الاسلامية والخلافة القادمة باذن الله. لقد حرفوا المنهج، وأساؤوا**

([180]) دراسة أميركية: 33 مجموعة مسلحة غير مرتبطة هيكلياً بـ "الجيش الحر" – جنان جمعاوي – جريدة الأخبار اللبنانية – العدد ١٦٥٩ – ١٤ /3/ ٢٠١٢.

الرابط: http://www.al-akhbar.com/node/45490

الظن، وقبلوا بيعة المنشقين، وشقوا صف المجاهدين، وبدأوا بحرب دولة الإسلام".([181])

وفي مشهد يسبق هذا السجال تكررت مشاهد الصراع الجهادي /الجهادي في كثيرة، فقد انهارت حركة "**حزم**" التي كانت أول جماعة معارضة سورية تسلم أسلحة أمريكية مضادة للدبابات، بعد أن "**سحقتها جبهة النصرة**". ونشر أتباع "**النصرة**" صور الأسلحة التي استولوا عليها منها. ومع ذلك أشار إسلاميون إلى أنهم لم يعودوا عازمين على محاربة الجماعات المدعومة من الغرب. وقال أحدهم (مازن قسوم): "**ربما تكون النصرة قد قاتلت ... حزم في البداية .... والآن لديهم خطة لمقاتلة النظام فحسب**". وقال أبو حمود، وهو قائد ميداني: "**الأمر مستقر تمامًا ..... لن يكون هناك قتال بين الجماعات.... هدفنا الأول هو سقوط النظام المجرم ثم بناء بلد ... يحافظ على هويتنا بعيدًا عن التطرف**". ومن هنا تأتي المخاطر، فتحقيق الأهداف – المباشرة – بطبيعتها التكتيكية العسكرية لا يعني بالضرورة التعامل مع "**الاختلافات الأيديولوجية**" بشكل سلمي. وغالباً ستحدث "**صراعات على السلطة**" بينهم.([182])

([181]) "الدولة الإسلامية" تتهم "القاعدة" بالإنحراف عن منهج الجهاد وشق صفوف المقاتلين – تقرير – جريدة الحياة اللندنية – 15 /4/ ٢٠١٤ .

الرابط: https://cutt.us/7Xu9b

([182]) الأهداف المشتركة في ميدان القتال توحد جماعات المعارضة المسلحة في سوريا – تقرير (إعداد أيمن مسلم للنشرة العربية – تحرير احمد حسن) – وكالة رويترز للأنباء – 30/ 4/ 2015 – الرابط:

http://ara.reuters.com/article/topNews/idARAKBN0NL28520150430?sp=true

ثانيًا: الإخوان في المشهد:

بصفة عامة يهدّد صعودُ السلفية المتشدّدة نفوذ الإخوان، فهذه المجموعات "**تشكّك في أيديولوجيتها المعتدلة نسبيًا**" وتعيق محاولاتها للتجنيد. والجماعة "**ليست قوية كما يُعتقَد عمومًا**". وساعد تركيز أطراف عديدة إقليمية ودولية على الإخوان في بناء "**سمعة مخيفة**"، "**لكن قدرتها السياسية والتنظيمية الفعلية تبدو أكثر تواضعًا بكثير**". وسبب نجاحهم في المنفى: "**الإرباك الهائل الذي يعانيه باقي المعارضة**". وطالما بقي المنافسون عاجزين ستكون الإخوان الفائزة "**في غياب البدائل**".([183])

([183]) مستقبل غامض ينتظر حزب جماعة الإخوان المسلمين في سورية – دراسة: يزيد صايغ ورافاييل لوفيفر – مركز كارنيغي للشرق الأوسط – 9/ 12/ 2013. الرابط: https://cutt.us/HCpca

وحسب دراسة لمركز كارنيجي: شارك إخوان سوريا في "تمويل حركة أحرار الشام الإسلامية (سابقًا كتائب أحرار الشام)، وهي مجموعة سلفية أقلّ تطرّفاً تسيطر على الجبهة الإسلامية السورية، وهي تحالف إسلامي كبير". وذكرت تقارير "أنه تم تجنيد العديد من الأسر المرتبطة بجماعة الإخوان في كتائب أحرار الشام في وقت مبكر من الانتفاضة". وأدّى ذلك إلى شبكة روابط شخصية "بين الكوادر الإخوانية المنفيّة ومقاتلي "أحرار الشام" داخل سورية، مع أنه يبدو أن العلاقات تدهورت بين الجماعتين في أواخر العام 2012. ومن الواضح الآن أن "كتائب أحرار الشام" و"الجبهة الإسلامية السورية" تميّز نفسها عن جماعة الإخوان، وتتبع مساراً سياسياً وأيديولوجياً مختلفاً".

الصراع من أجل التكيف – مصدر سبق ذكره.

ولمزيد من المعلومات عن جذور علاقات قديمة بين إخوان سوريا والقاعدة، يمكن الرجوع إلى:

عن "إخوان القاعدة" – طارق عزيزة – مقال – جريدة الحياة اللندنية – ١٢ /6/ ٢٠١٥. الرابط: https://cutt.us/LjlWP

ومراعاة لمخاوف أطراف عديدة تحاول الجماعة الابتعاد عن التطرف و"**تروّج لنهج معتدل**"، ولمفهوم غامض عن "**الدولة المدنية**". و"**في مارس 2012، أصدرت الجماعة برنامجًا سياسيًا يدعم حقوق الأقليّات والديمقراطية التعدّدية لقي قبولاً حسنًا من المعارضة والعواصم الغربية**". و"**بسبب غياب الخيارات، اختارت الإخوان العمل مع حركات سلفية، بأمل استمالتها أو الاستفادة من قوتها المتنامية. ومع ذلك، نأت بنفسها عن الفصائل الأكثر تشدّداً، (السلفية الجهادية)**"، وبخاصة "**النصرة**".([184])

استخلاص واستشراف:

بصفة عامة، لا تتسع هذه المساحة لتقصي العديد من العوامل المؤثرة في مسار الظاهرة ومآلها، وبخاصة أن الساحة السورية تشهد تحولات سريعة – بعضها لا سابقة له في تاريخ حركات الإسلامي – والمستقبل لن يخلو من صراعات، في مرحلة "**ما بعد نظام الأسد**"، وسيكون للبعد النظري / الفقهي فيها – على الأرجح – دور أقل مما للمعطيات الواقعية وحسابات القوة على الأرض. وبالتالي فإن المكونات المتفاعلة ستشهد إعادة هيكلة خلال الفترة المقبلة ستأثر تطوراتها جذريًا بمفترق طريق مفتوح على كل الاحتمالات يلخصه سؤال: هل تعود خارطة "**الهلال الخصيب**" كما كانت أم لا؟.

([184]) مستقبل غامض ينتظر جماعة الإخوان المسلمين في سورية – مصدر سبق ذكره.

التصدع العظيم

عجلة التنظير لـ "ما بعد الإسلام السياسي" انطلقت بأسرع مما كان متوقعًا([185])

منذ سنوات اجتاحت الأدبيات الثقافية الغربية موجة من "**المابعديات**": "**ما بعد الحداثة**"، "**ما بعد الصناعة**".. .. إلخ، ورغم أن مجتمعاتنا العربية كانت قبل هذه الموجة لا دخلت عصر الحداثة ولا عصر الصناعة، فإن عددا غير قليل من مثقفينا جرفتهم – مبكرًا – هذه الموجة فكتبوا عن "**المابعديات**" في سياقات عدة. وكانت المفارقة هنا أن العلاقة في معظم الكتابات العربية عن هذه الموجة قلبت العلاقة بين اللغة والفكر، فبينما المنطقي أن تكون اللغة وعاءً للفكر، أصبح الفكر وعاءً للغة!

الصدام الذي شهدته مصر – وكادت أن تشهده تونس – منعطف تاريخي سيكون له ما بعده، وبخاصة فيما يتصل بعلاقة الدين بكل من: "**الدولة**" و"**الوطنية**"، و"**الدعوي**" و"**السياسي**". أصبح "**صك**" مصطلح جديد يضاف إلى قائمة "**المابعديات**" هو – في حالات كثيرة – هدف بحد ذاته واختنقت الموضوعية تحت ركام ضخم من الصياغات اللغوية الضخمة

([185]) نشرت بمجلة المجلة اللندنية.

الفخمة التي خدعت القارئ والكاتب معًا، وأخفت وراء بريق اللغة حقيقة أن الجهة "**منفكة**" بين النتائج والمقدمات وأن اللغة هي الشكل والمضمون.

وخلال عملي مع المفكر العربي الإسلامي المصري الراحل الدكتور عبد الوهاب المسيري، لاحظت في حوارات كثيرة معه أنه كان يرى أن "**موجة المابعديات**" ليست سوى مسار يفضي "**معرفيًا**" إلى هدم كل ما هو حقيقة، أو أساس مستقر، أو قانون مطلق، أو فكر شامل، وقصد بذلك: "**ما بعد الحداثة**"، و"**ما بعد البنيوية**"، و"**ما بعد الليبرالية**"، و"**ما بعد العقلانية**"، إلى غيرها من المابعديات التي يصفها المسيري بـ "**الفوضوية والعبثية واللاشيئية**"، وهو يرى أنها "**شهادة وفاة**" لـ "**موجود**" دون كتابة "**شهادة ميلاد**" لما يحل محله، وهي بالتالي – حسب رأيه – تعبير عن حالة من التشاؤم.

ومع التطورات في مصر منذ الثالث من يوليو (تموز) يتحدث غير قليل من المحللين السياسيين عن "**نهاية الإسلام السياسي**" بوصفه السمة المميزة لمرحلة تلي "**حتمًا**" فترة حكم الرئيس الإخواني المعزول الدكتور محمد مرسي. وأول الملاحظات على هذا النزوع الواسع الانتشار في الخطابين السياسي والإعلامي إلى تبني حتميات وإطلاق أحكام قاطعة، أنه قد يكون مفهومًا – وإن بقي غير مبرر – أما انتقال هذا النزوع المابعدي – مصحوبًا بحتمياته وأحكامه القاطعة – إلى الخطاب التحليلي الذي يفترض أنه أكثر رصانة وأميل إلى التحفظ في إطلاق الأحكام القاطعة وتبني الحتميات، فهو مما لا يجوز قبوله، ولا يسوغ تبريره.

الفكر وعاءً للغة!

وكما أن اللغة – كما أشرنا سلفًا – تربطها في هذه الموجة من الكتابات علاقة معكوسة بالفكر، فمن الملاحظ أيضًا أن عجلة التنظير لـ "**ما بعد الإسلام السياسي**" انطلقت بأسرع مما كان متوقعًا، حيث من المفترض دائمًا أن الوقائع تحتاج إلى أن تبقى على "**مسافة**" من دارسها حتى لا تطغى مشاعر اللحظة وحسابات الخصومة وغياب "**بعض**" البيانات المتصلة بالوقائع المدروسة على الاستنتاجات ودرجة دقتها، وفي الوقت نفسه فإن التنبؤ الذي هو موضوع علم "**المستقبليات**" يقوم على الترجيح، ونتائجه – غالبًا – بدائل لكل منها نسبة من الاحتمال. والتبشير بما بعد الإسلام السياسي يمكن النظر إليه – في سياق الصراع التاريخي المزمن (العلماني/ الإسلامي) في الثقافة العربية، فهذا التبشير – إلى أن تستكمل أدبياته الشروط الموضوعية التي تجعلها موضع اعتبار – ليس سوى نوع من "**التفكير بالتمني**"، الذي يصمت – عمدًا – عن حقيقة أن العلاقة بين الدين والسياسة واحدة من أكثر القضايا تعقيدًا في التاريخ الحديث، وخلال السنوات القليلة الماضية شهدت تجارب اجتماع إنساني غربية حالة مراجعة عميقة جدا إزاء تصور "**الفصل التام**" بين الدين والسياسة.

وعلى سبيل المثال فإن باريس، مهد الثورة الفرنسية، التي تبنت هذا الفصل التام بين الدين والسياسة وصدرته إلى كل أنحاء العالم تقريبًا، شهدت ميلاد مصطلح "**العلمانية المؤمنة**" على يد الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي، الذي كان يحاول بذلك رأب هذا الصدع التاريخي. وهذه القضية الشائكة حظيت بكم قد لا يحصيه عدٌّ من محاولات التنظير في الثقافات المختلفة، فضلا عن عدد من التجارب التي تجعل الادعاءات – التي أعترف أنها

لا تخلو من شجاعة – بالقدرة على حسمها في سياقنا العربي على هذا النحو، قفزة كبيرة في الفراغ. ولا بأس أن أضيف أنها غير مأمونة العواقب، لا نظريًا ولا عمليًا. ومما يجدر تذكره هنا أن هذا السياق العربي المشار إليه يشهد تحولات متسارعة منذ بدء "**الربيع العربي**"، وهي تحولات أعادت طرح الكثير من الأسئلة الأولى عن: الدولة، والدين، والهوية، والوطنية.. وستمر – في تقديري سنوات قد تطول – قبل أن تتبلور أجوبة واضحة عن هذه الأسئلة.

ولأن النتيجة التي تمثل عمود الخيمة لكل تنظيرات "**ما بعد الإسلام السياسي**" هي استنتاج متعجل من وقائع جزئية، وفي غياب القدر الكافي من الحقائق التي تصلح أن تكون "**مقدمات**" في قياس منطقي صحيح، وفي غياب الاستحضار الذي يبدو ضروريا للتجارب المماثلة أو المشابهة، فإن هذه النتيجة هي في الحقيقة "**مقولة**" لا سبيل إلى وضعها في موضع الاختبار، حتى إشعار آخر!

ومما يطرحه هذا المسار المابعدي من تحديات على سالكيه أنهم – كما أشار الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله – لا يطرحون ملامح "**بديل**" وكأن نهاية الإسلام السياسي هي بحد ذاتها "**عملية تطهُّر وطني**" لا صلة لها بما بعدها. فالثقافة العربية المعاصرة عرفت عشرات الإجابات المتعارضة عن هذه الأسئلة في تصورات لفكرة النهضة رسم صورة وافية لها الدكتور فهمي جدعان في مؤلفه المتميز: "**أسس التقدم عند مفكري الإسلام**"، لكن الأسئلة بقيت بلا إجابة يمكن وصفها بأنها "**الخيار الوطني**" أو "**الخيار العربي**" أو..

الإسلام السياسي أم جماعاته؟:

ومصطلح "**الإسلام السياسي**" مصطلح رمادي فضفاض، فضلاً عن أنه حديث النشأة. وهو مصطلح يرفضه بعض الباحثين ويتحفظ عليه كثير من الباحثين، حيث العلاقة فيه بين: "**الاسم**" و"**المسمى**" رمادية أكثر مما ينبغي، فهو يشير إلى طيف واسع من الظواهر الفكرية والدعوية والاجتماعية والثقافية. وهو ذو وجوه متعددة، فالبعض يستخدمه لغاية تصنيفية فيما آخرون يستخدمونه – دون مواربة – بغرض التشويه والوصم!

ومصطلح "**الإسلام السياسي**"، فضلا عن كل ما سبق، نتاج حقبة من الزمن شهدت القدر الأكبر من التحامل على الإسلام ومعالم وجوده في ساحة الشأن العام (السياسي والثقافي) من أطراف غربية ومحلية، وهو أمر أسهم فيه بشدة صراع بعض الحركات الإسلامية مع النظم الحاكمة في بلادها، وأسهم فيه أيضا مناخ ما بعد "**الحرب الباردة**"، وصولاً إلى الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) وما تلاه. واتساقًا مع هذه الحقيقة شهدت هذه الحقبة ظهور مصطلح "**الإسلاموفوبيا**".

السؤال الأكثر إلحاحًا: هل دور الإسلامي أن يوجب على الناس أم أن يستجيب لهم؟

ومن الخطر الشديد على واقعنا ومستقبلنا أن ندرس مآلات المستقبل في قضية كهذه، ونحن محملون بهذا الثقل الكبير لحالة عميقة من حالات الرفض المبدئي، حتى لو كان هذا الرفض مقصورًا على المنتمين لتيارات فكرية وسياسية معينة في الواقع العربي. ولعل أحد أهم التحولات الإيجابية في مناهج العلوم

الإنسانية في السنوات القليلة الماضية، قناعة البعض بأن إعلان الباحث عن "**انحيازاته المسبقة**" من شروط الموضوعية، وهو منحى بدأ يحل بالتدريج محل الادعاء العريض بأن دراسة العلوم الإنسانية لا تتأثر بميول باحثيها. وإذا كان الحديث – في هذه اللحظة المرتبكة – هو عن جماعات الإسلام السياسي، فقد يصح – احتمالًا – أن بعض الأقطار العربية هي على أعتاب مرحلة "**ما بعد الإسلام السياسي**"، أما تصور البعض أن هذا سيكون حالة عربية عامة، ففيه كثير من الخطأ، أما المبشرون بأن العالم الإسلامي كله سيشهد اختفاء هذه التنظيمات، فلا أرى جدوى من مناقشة دعواه.

والتنظيمات ذات القواعد الجماهيرية الكبيرة تتحرك في التاريخ وفقًا لمنطق أقرب إلى "**خطوة الفيل**"، فهو أقل سرعة من كائنات أخرى كثرة أصغر حجمًا، لكن خطوته تهز الأرض هزًا، وعليه فإن الأرجح تغير ميكانيزمات التحرك – ولو ببطء – لكن "**حلم الاختفاء السريع**"، سيظل حلمًا يراود البعض.

هل تموت الفكرة؟:

أما الحديث عن "**موت الفكرة**" فتغليب لا تسانده الشواهد ولا تؤكده التجارب، فهذه الإجابة أو تلك عن علاقة الدين بالسياسة، ستظل مطروحة ومؤثرة إلى مدى زمني ليس بالقصير، وبخاصة أن التاريخ العربي الإسلامي الحديث شهد تجارب حاول أصحابها تقديم إجابات مغايرة عن علاقة الدين بالسياسة كان مصير أغلبها الفشل، وبقي الدين مكونًا ذا تأثير في الوجدان

العام أكبر بكثير مما ظن من حاولوا إعادة هيكلة دوره وفقًا لتصورات مسبقة تبلورت في سياق التاريخ الغربي. وقد يكون المراد هنا نهاية دورها المحرك الذي قامت به خلال العقود التي بدأت بسبعينات القرن العشرين المشار إليها غالبا بوصفها فجر "**إحياء ديني عالمي**"، فحركات الإسلام السياسي بقيت منذ هذا التاريخ أحد أكثر الفاعلين تأثيرًا في الواقع العربي بدرجات متفاوتة، لكن هذا فيه تغليب لاحتمال أن تموت الأفكار بتصدع التنظيمات، أو أن يؤدي حظرها قانونًا إلى تشييع جثمانها. وحقيقة الأمر أن هذا أيضًا ليس "**الأرجح**" بل ربما كان الأرجح أن هذا الفرض مستحيل، في ضوء عدة حقائق.

أول هذه الحقائق أن البديل لم ينضج بعد، حيث بقيت بنية السلطة في عديد من الدول العربية تعاني أزمة "**مشروعية**" طالما كانت ثمرتها صبغة دينية واضحة – لا مفر منها – في الخطاب الرسمي، منحت "**الخصم**" (جماعات الإسلام السياسي) مشروعية ضمنية للوجود ومنافسة الخطاب الرسمي. وحتى اليوم لم يزل بديل خطاب الإسلام السياسي غائبًا، وهذه الطاقة الوجدانية سوف تظل لفترة طويلة تبحث عن مسار لها في ظل ما يعانيه الخطاب الديني الرسمي من عجز مزمن عن استيعاب هذه الطاقة. وأما الحديث عن بديل خارج "**المظلة الإسلامية**"، فيعد ضربًا من التمني، فالنخب التي تتبنى تصورات ذات مرجعية مغايرة لم تنجح – حتى الآن على الأقل – في أن تكون بديلًا على الأرض، وغير صحيح أن السبب الوحيد لذلك أن "**الإسلام السياسي**" يخلط الدين بالسياسة، فهذه التيارات فشلت فشلا ذريعًا في إنتاج خطاب اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي يسحب البساط – ولو جزئيًا – من تحت أقدام خصومهم.

تحديات وأسئلة:

هذا الذي سبق لا يعني أبدًا أن "**الإسلام السياسي**" بوجهيه الفكري والتنظيمي سيستمر في مسار خطي لا تحول فيه، فالصدام الذي شهدته مصر – وكادت أن تشهده تونس – منعطف تاريخي سيكون له ما بعده، وبخاصة فيما يتصل بالأفكار ذات الصلة بعلاقة الدين بكل من: الدولة والوطنية، وكذلك العلاقة بين: "**الدعوي**" و"**السياسي**". حدود كل من: الديمقراطية، وقبول الآخر، والتعددية، وسيكون السؤال الأكثر إلحاحًا: هل دور الإسلامي أن يوجب على الناس أم أن يستجيب لهم؟

في الحالات المحتملة على اختلافها سيختلف منطق ترتيب الأولويات بعد تجربة المشاركة السياسية الأولى في دول "**الربيع العربي**". وستشكل قضية "**الخطاب**"، بوصفه المرآة التي تنعكس عليها الأفكار، أولوية متقدمة خلال الفترة المقبلة. وليس من المستبعد أن يظهر مسار فرعي داخل الظاهرة يستنتج مما حدث نتيجة واحدة: "**الرصاص هو الحل**"، فالحركة الإسلامية خلال الثمانينات والتسعينات خاضت تجارب شديدة القسوة في سوريا والجزائر ومصر، بسبب طرح خيار الصراع المسلح على الطاولة، وليس مستبعدا أبدًا أن تنضج التجربة الأخيرة مسار عنف، أرجح – بدرجة قريبة من اليقين – أنه سيكون مسارًا فرعيًا. وقد يصح عندئذ – مع التجاوز – الحديث عن مرحلة: "**ما بعد الإسلام السياسي**"، لا وفقا لسيناريو افتراضي يبدو واضحًا من كتابات المبشرين بالمقولة، ويمكن أن نسميه: "**التصدع العظيم**"، بل على قاعدة إعادة

الهيكلة التي تجعله مختلفًا إلى حد كبير عن (الصورة النمطية) لا عن الفكرة المؤسِّسة. وفي هذه الحالة ستكون العلاقة بين اللغة أكثر اتساقًا!

ملحق...

المنظور الثقافي:

كيف يرى الغرب الإسلام والمسلمين الآن؟

مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة – 4/ 2/ 2015.

استضاف **مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة** الأستاذ ممدوح الشيخ، مدير **المركز الدولي للأبحاث والاستشارات والتوثيق** بالقاهرة، والخبير المتخصص في الفكر السياسي الإسلامي، يوم 29 يناير 2015، في لقاء عام ألقى خلاله الضوء على تساؤل مركزي هو:

كيف يرى الغرب الإسلام والمسلمين في الوقت الراهن؟.

رصد المحاضر مجموعة متنوعة من العوامل، التاريخية والراهنة، التي تشكل رؤية الغرب للإسلام والمسلمين عامة، ومن أبرزها: خريطة الجغرافيا الدينية، وانتشار الصهيونية في أوروبا بعد ظهور المطبعة، ووجود جيل من المهاجرين المسلمين إلى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، والإرث التاريخي

المعقد، والإعلام المتطرف، وتصاعد الأزمات الاقتصادية في العالم، وما أعقبها من ميول غير محبذة للأجانب والمهاجرين.

من الجغرافيا الدينية إلى الدول المدن:

أكد الشيخ ضرورة استكشاف الحضارة الغربية من منظور معرفي وثقافي، حيث غلبت فكرة الجغرافيا الدينية على العالم في العصور السابقة، وارتبط ذلك بالتحيز الجغرافي وارتباط دين أو مذهب بمنطقة معينة، فقارة أوروبا كانت كاثوليكية بالكامل حتى ظهور المذهب البروتستانتي. وفي هذا الصدد يتغافل الأوروبيون عن احتلالهم دولاً عربية وإسلامية، ولا ينسون أن المسلمين شكلوا القوة العسكرية الوحيدة التي دقت أبواب العواصم الأوروبية تاريخياً، فقد احتل العثمانيون جزيرة البلقان ووقفوا عند أبوب فيينا، إلى جانب الوجود العربي في الأندلس، وهو إرث كونته أوروبا ليشكل نظرة متشككة وأحيانًا عدائية تجاه الإسلام والمسلمين.

وأشار الشيخ إلى مثال صارخ يؤكد هذه النظرة، فقد نشرت إحدى الصحف الفرنسية عقب تأميم جمال عبد الناصر قناة السويس عام 1956 مقالاً بعنوان: "**أين أنت يا شارل مارتال؟!**"، حيث استدعى المقال القائد شارل مارتال الذي أوقف زحف الإسلام من الأندلس إلى أوروبا، على الرغم من أن الأمر كان يتعلق بحق مصر في قناة السويس لا أكثر. المثال الآخر يرتبط بما أطلق عليه "**الشيخ**" أسطورة دراكولا (المعروف باسم مصاص الدماء)، وهو ما يحمل منطق الأسطورية في نظرة الغرب للإسلام،

فدراكولا هو أمير روماني واجه الغزو العثماني بشراسة، وأضحى بطلاً تاريخياً لأنه أوقف زحف المسلمين، وتحول إلى مصاص دماء بسبب وحشيته في القضاء على خصومه، مع أن الحقيقة هي أنه أخذ الوصف لأنه كان يتبنى فكرة تقوم على وجود المجتمع القوي المحارب، فتخلص من كبار السن والمرضى والضعفاء لأنهم يمثلون عائقاً أمام خوض الحروب، واشتهر عنه أنه كان يدعو الفقراء إلى مأدبة غداء ويدس لهم السم ليلقوا حتفهم، ولذا لقب بـ "**مصاص الدماء**".

إن هذه التوجهات الغربية تنقلنا إلى كيفية تشكيل العقلية الغربية تجاه الإسلام عبر المناهج الدراسية والتعليم، فهي تشكل المصدر الأول لتوجهات وأفكار الشخص ورؤيته للإسلام والمسلمين بصفة عامة؛ إذ تستحضر هذه المكونات رموزاً وأفكاراً في الوجدان الغربي مأخوذة من العصور الوسطى تساهم في رؤية الفرد الغربي السلبية للإسلام والمسلمين.

الحرب العالمية.. ومتوالية الجيل الثالث

أما في العصر الحديث، وتحديدًا خلال القرن الماضي، فقد حدث تحول كبير في الرؤى الأوروبية، إذ اختفت فكرة الجغرافيا الدينية بعد وصول المسيحية للصين واحتضان كوريا الجنوبية لأهم المبشرين بالمسيحية في الوقت الراهن، إلى جانب تحول أمريكا اللاتينية من الكاثوليكية إلى البروتستانتية بسبب درجات الحريات المختلفة بين المذهبين. في هذا الإطار تشكلت جغرافيا دينية جديدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي شهدت تحالفاً

ألمانياً تركياً لاتزال تداعياته واضحة حتى الآن، فقد سمح هذا التحالف بأن يصبح الألمان من ذوي الأصول التركية يشكلون النسبة الأكبر في معدل النمو الديموغرافي في عام 2014، وذلك بسبب موجات الهجرة التركية لألمانيا، والتي بدأت مع نشأة هذا التحالف.

أما الحرب العالمية الثانية فقد مثلت تحولاً آخر ساهم في تغيير نظرة العالم الأوروبي للإسلام؛ فمع ظهور مشروع مارشال لإنقاذ الاقتصاد الأوروبي من خلال استقدام عمالة رخيصة من مستعمرات أوروبا في الهند وأفريقيا، وبدأت أوروبا تشهد وجودًا سكانيًا جديدًا مختلفًا دينيًا وثقافيًا وفكريًا، تمثل فيما أطلق عليهم "**العمال الضيوف**"، واعتقد الأوروبيون في البداية أن وجودهم مؤقت لأنه مرتبط فقط بالإعمار وبناء الاقتصاد من جديد، إلا أن ذلك لم يتحقق؛ فالتاريخ لا يسير دائماً وفقاً للتصورات.

وتمثل تطور المهاجرين عبر ثلاثة أجيال مختلفة، وهي:

الجيل الأول؛ والذي شعر بالخوف ومال دائماً للاندماج مع المجتمع كما هو من دون أي تغيير.

الجيل الثاني؛ والذي اندمج مع المجتمع، لكنه أخذ وقتاً أطول ليتغير.

الجيل الثالث؛ والذي يمتلك مقومات تعليمية وثقافية جعلته أكثر ثقة وقوة، وبدأ يسعى للبحث عن هويته الأولى لإثبات الذات في المجتمع الغربي، خاصة مع تصاعد النزعات التي تعتبرهم دخلاء على الغرب على الرغم من مولدهم فيه.

واعتبر الشيخ أن جزءًا من أزمة المسلمين في أوروبا اليوم يرتبط بالأزمة الاقتصادية، فالمواطن الغربي لا يتقبل أن يحصل مسلم على وظيفه، بينما هو عاطل، فالمسلم أو الأجنبي عامة أخذ حقه حتى لو كان يحمل نفس جنسيته، وهو وتر يلعب عليه اليمين المتطرف بقوة من أجل مكاسب سياسية.

الهوية الأوروبية والقيم الانجلوسكسونية

أشار المحاضر إلى أن الروافد الثقافية في الغرب مهمة جدًا في رؤيته للإسلام، فأوروبا تتحكم بالهوية (شارات الهوية)، فالهوية في المجتمع الغربي تمثل أكبر من معناها المباشر، فهي البطل الذي تثار من أجله المعارك. وهنا يظهر الاختلاف بين المجتمعات الأوروبية والمجتمعات الأنجلوسكسونية؛ فبينما تهتم أوروبا بالهوية تهتم أمريكا بالقيم الجمهورية، ويتضح الخلاف بينهما مثلاً، في موقف الولايات المتحدة من قانون تحريم الحجاب بفرنسا عندما أدانته الخارجية الأمريكية ووصفته بأنه غير مقبول لتقييده الحريات. وعلى الرغم من الاتفاق السياسي والأيديولوجي بين الطرفين؛ فإن تداول الحريات مختلف باختلاف المرجعية الفكرية لكل منهما (الهوية في مقابل القيم).

وبناء على ذلك يرى الشيخ أن جزءًا كبيرً من المشكلة بين الغرب والإسلام وتنامي أسباب التطرف، يرتبط بالخلاف حول حدود الأشياء،

فالتعددية الثقافية المرتبطة بالقيم يقبلها الأنجلوسكسوني ولكن لا يقبلها الأوروبي.

الأخطاء المشتركة.. ونظرة الغرب للمسلمين:

أكد المحاضر أن النظرة العنصرية للإسلام يتحمل جزء منها المسلم الذي ذهب لأوروبا بأفكار عدائية للغرب الذي يصمه بالكفر ويفضل التأويلات الفقهية المتطرفة، فيما يتحمل الغرب الجزء الآخر بسبب النظرة الأوروبية غير الحيادية للإسلام، وإلقاء اللوم من السياسيين في أي قضية على المسلمين، بينما يمتلك العرب عبئاً تاريخيًا ثقيلاً يتصل بالاستعمار والصراع الدائم مع إسرائيل والأفكار الدينية التي تؤثر على رؤية العرب للغرب بصورة غير واقعية في أغلب الأوقات.

كما يتحمل الإعلام من الطرفين جزءًا كبيرًا من المسؤولية، فتشهد الساحة الإعلامية الأوروبية كثيراً مناقشات غير موضوعية من خلال استضافة من يطلق عليهم "الخبراء الوهميون" للحديث عن الإسلام مع أنهم غير متخصصين، ليؤججوا كراهية ثقافة المسلمين. وفي المقابل تعتمد ثقافة معظم المجتمعات العربية على الاستماع من وسائل الإعلام من دون اطلاع، وهو ما جعل الإعلام محركًا رئيسًا لرؤية الغرب في المجتمع العربي، لتبدو محصلة الأمر أن العربي والغربي يحملان بأفكار مغلوطة عن الآخر من وسائل الإعلام التي تفضل الحديث عن التنافس والخلاف لا عن الحياد والتقارب، لاسيما مع سيطرة المتطرفين من الجانبين خلال السنوات

الأخيرة على الإعلام الذي أضحى يلعب على إيقاع الأزمات السياسية والاقتصادية وغيرها.

سيرة المؤلف:

مدير المركز الدولي للدراسات والاستشارات والتوثيق (مداد)

** عضو اتحاد كتّاب مصر.

أولاً: ترجمات في معاجم وموسوعات

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين". (مؤسسة البابطين – الكويت).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم أدباء مصر" (الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "الموسوعة الكبرى للشعراء العرب المعاصرين: 1956 – 2006" – إعداد وتقديم: فاطمة بوهراكة – المغرب – 2009 – برعاية الشيخة أسماء بنت صقر القاسمي.

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم الأدباء: من العصر الجاهلي حتى سنة 2002" – كامل سليمان الجبوري – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – 2002 – 1424 هجرية.

دراسات في الظاهرة الدينية

** المسلمون ومؤامرات الإبادة – مكتبة مدبولي الصغير – مصر – 1994.

** الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب – دار البارق – الأردن – 1999.

▪▪ البابا شنودة والقدس: الحقيقي والمعلن – خلود للنشر – مصر – 2000.

▪▪ الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟

(طبعة إليكترونية – e-kutub.com - 2002 – لندن).

(طبعة إليكترونية – e-kotob.com - 2011).

▪▪ الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة في آتون 11 سبتمبر: مفارقات النشأة ومجازفات التحول – مكتبة مدبولي – مصر – 2005.

▪▪ الإسلام في مرمى نيران العلمانية الفرنسية: ما وراء الحرب الأوروبية على الحجاب والنقاب – مكتبة بيروت – مصر/ سلطنة عمان – 2010.

▪▪ طارق البشري: القاضي.. المؤرخ.. المفكر.. وداعية الإصلاح – سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان – الطبعة الأولى 2011.

▪▪ عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية – سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – رقم 7 – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان – الطبعة الأولى 2008.

▪▪ طارق البشري: القاضي.. المؤرخ.. المفكر.. وداعية الإصلاح – سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان – الطبعة الأولى 2011.

▪▪ مراجعات الإسلاميين (الجزء الأول) – تأليف بالاشتراك – مرز المسبار للدراسات والبحوث – الإمارات – سلسلة كتاب المسبار الشهري – العدد السادس والثلاثون – ديسمبر 2009.

▪▪ السلفيون من الظل إلى قلب المشهد – دار أخبار اليوم – مصر – 2012.

مؤلفات إبداعية منشورة

▪▪ نقوش على قبور الشهداء (ديوان شعر).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر.

الطبعة الأولى 1996.

■ عاصمة للبيع (مسرحية).

دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة – دولة الإمارات – 2000.

■ الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 2003.

■ الندى والموت (ديوان شعر).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 2003.

■ القاهرة.. بيروت.. باريس (رواية)

الدار العربية للعلوم – بيروت – 2006.

■ أهي القدس؟ – ديوان شعر – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – 2009.

■ المصر – رواية – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – 2009.

مؤلفات أخرى منشورة

■ أشهر الأحلام في التاريخ مكتبة ابن سينا – مصر – 1993.

■ التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم – دار التضامن – لبنان – 1996.

■ ثقافة قبول الآخر – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – 2007.

■ مدخل إلى عالم الظواهر الخارقة – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – 2007.

■ التجسس التكنولوجي: سرقة الأسرار الاقتصادية والتقنية (دراسة في المجتمع ما بعد الصناعي) – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – 2007.

■ ثقافة السلام – دار ومكتبة الغد – مصر – 2009.

■ الشرق المؤنث الأبدي: الاستشراق الجنسي والحرب على النقاب – دار ابن رشد – مصر – 2015.

تأليف بالاشتراك

** مقاربات نقدية في شعر رمضان أبو غالية – (بالاشتراك مع الأساتذة: صبري عبد الرحمن، أحمد مرسال، سامح القدوسي) من إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا – مصر – 2004.

** حرية التعبير بين القانون العادل والقاضي الظالم – منشور في: بحوث مؤتمر "الأدب وحدود حرية التعبير" – فرع ثقافة المنوفية – إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي – الهيئة العامة لقصور الثقافة – وزارة الثقافة – مصر – 2006.

** إيران – مصر: مقاربات مستقبلية – (تأليف بالاشتراك) – تحرير: توفيق شومان – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – بيروت – سلسلة الدراسات الإيرانية/ العربية – رقم 1 – الطبعة الأولى – 2009.

** السعوديون الشيعة: الفكرة والإشكاليات – مركز صناعة الفكر – السعودية – 2015.

أعمال حققها

** ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي (الشوقيات) – تحقيق – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – 2007.

** ديوان الشاعر حافظ إبراهيم – (تحقيق) – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – 2009.

أعمال أعدها للنشر أو حررها

اكتشف وأعاد نشر رواية: "اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن" للمغامر المصري حافظ نجيب، وهي الرواية التي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير "فارس بلا جواد". وقد قدم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

** اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى – 1996 – دار الحسام – لبنان – مصر.

الطبعة الثانية – دار الانتشار العربي – بيروت – 2003.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" – 8 مجلدات – لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري – دار الشروق – مصر – 1998.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" – لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري – نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان) – دار الشروق بمصر بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات – 2004.

** القمة الأمريكية السعودية الأولى: القمة السرية بين الملك عبد العزيز ابن سعود والرئيس روزفلت (البحيرات المرة – 1945) – (تقديم وتحرير ودراسة) – بقلم: الكولونيل: وليم إيدي (أول وزير أمريكي مفوض بالسعودية) – ترجمة: حسن الجزار – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – 2008.

** دع القلق وابدأ الحياة – تأليف: ديل كارنيجي – إعداد وتقديم ودراسة – دار الحرم للتراث – مصر – 2009.

** كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس – تأليف: ديل كارنيجي – إعداد وتقديم ودراسة – دار الحرم للتراث – مصر – 2009.

** تربية المرأة والحجاب (ردا على قاسم أمين) – تأليف: محمد طلعت حرب (باشا) – إعداد وتقديم ودراسة – دار الغد للنشر – مصر – 2009.

أفلام تسجيلية:

* دولة المنظمة السرية – الفكرة والإعداد والمادة العلمية – إنتاج قناة الجزيرة – قطر – 2009.

كتابات نقدية تناولت أعماله

** "ممدوح الشيخ وعماد أو صالح شعاعان من شمس شعر تشرق"، منشور في: "كتابة: رؤى وذات" – صالي ناز كاظم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – 2003.

▪ "مقاربات نقدية في شعر ممدوح الشيخ" – تأليف الأساتذة: رمضان أبو غالية – صبري عبد الرحمن – أحمد مرسال – سامح القدوسي – إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا – مصر – 2004.

▪ رسالة ماجستير عن مسرحيته عاصمة للبيع في جامعة جنت البلجيكية للمستشرقة البلجيكية ماريكي فان كرايسبليك – 2006. (قيد الترجمة)

حاصل على جوائز مصرية وعربية في الشعر والمسرح والرواية.